

الدكتور محمد الجوادى

في ظلال السياسة

نجيب محفوظ

الروائى بين المثالية والواقع





الدكتور محمد الجوادى

فى ظلال السياسة:

نجيب محفوظ

الروائى بين المثالية والواقع

مطبوعات دار الخيّال

٢٠٠٧

في ظلال السياسة:

نجيب محفوظ

الروائي بين المثالية والواقع

دار الخيّال

دار الخيال : 0127341507 / 0123290618

فاكسيملي : 7962241

E-mail: Dar el Khial-egypt @hotmail.com

دار الخيّال

الغلاف : محمد الصباغ

تنفيذ الغلاف : كامل جرافيك.

طباعة الغلاف: القطان للمطبوعات
الفنية. المهندسين
ت/ ٣٤٧٩١٦٣

صورة الغلاف: الفنان محمد حجازي،
نوفمبر١٩٩٢

رقم الايداع : ٢٠٠٧/٣٣٤٤

الترقيم الدولي:

ISBN 977 - 5979 - 42 - 0

فى ظلال السياسة:

نجيب محفوظ

الروائى بين المثالية

إهداء

إلى الأستاذة الدكتورة فوزية الدمرداش

تحية تقدير واعتزاز

محمد الجوادى

المحتويات

الرئيس محمد نجيب والرئيس عبد الناصر • حقيقة الاختلاف بين موقف كل من الرئيس عبدالناصر والرئيس السادات من الجيش والشعب • السادات ينبه عبدالناصر إلى حقيقة أنه لم يكن من الممكن له أن ينتصر بنفس الجيش الذى انتصر هو به.

• **فكرة المسئولية التاريخية**: مسئولية الرئيس عبد الناصر عن هزيمة ١٩٦٧• محفوظ لم يكن مرتاحا إلى محاولة الرئيس وأجهزته نفض أيديهم من الهزيمة وإلقاء المسئولية على عبد الحكيم عامر وصلاح نصر • بنفس المنطق الواضح يتعامل نجيب محفوظ مع مسئولية عبد الناصر عن انحرافات المخابرات • الانتقادات الموجهة إلى الرئيس السادات: تهاون فى معاقبة المفسدين • الدولة لا تقوم إلا على الانضباط والاخلاق • مسئولية مصر عن فشل الوحدةمع سوريا • رأيه الواضح فى حرب اليمن • نجيب محفوظ ينتبه إلى الرد على الذين لم يكفوا عن التلويح له بالمقال الذى نشره فى رثاء الرئيس عبد الناصر• نجيب محفوظ ينبه إلى حقيقة أن نصف مقاله - فى الحقيقة - انتقادات لعهد عبد الناصر • نص المقال. ٦٩

• **فكرة الديمقراطية**: دور ثورة ١٩١٩، التراث الديمقراطى أصبح مكونا جوهريا من مكونات الوجدان الشعبى على الرغم من إهمال هذا المكون طيلة الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٦٧ • الفوائد السياسية التى جنتها مصر من تراثها الديمقراطى • هذا التراث منع انتشار الفاشية فى مصر، على الرغم من أن الملك كان فاشستيا • رئيس المحكمة يقول لسعد زغلول: إنك أول مصرى يتولى الحكم منذ العهد الفرعونى، وتوليته بإرادة الشعب • الرد على الذين زعموا أن الثورة المصرية اشتعلت فى غياب سعد • المؤلف يوضح حقيقة رأى نجيب محفوظ فى زعماء الأحرار الدستوريين من خلال نص تالٍ • نجيب محفوظ يجيد عرض وجهة نظر سعد زغلول فى الدفاع عما اتهم به من تعصبه لزعامته • الملك إخناتون يخاطب النحاس: يجد فيه وفى سلوكه صورة من نفسه • موقف نجيب محفوظ من تجربة مصر الديمقراطية لا يمكن أن يكتمل من دون الإشارة إلى انزعاجه من التصوير السياسى الذى تعمدت أقلام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أن تقدم ٧٥

بـه ثـورة ١٩١٩ • كان أشجع ما يكون وهو يصف هذا السلوك بأنه مأجور وزائف وكاذب: يبدأ المدرس [المغلوب على أمره] درسه بالسؤال الخائن «لماذا فشلت ثورة ١٩١٩؟» يا أبناء الأبالسة.. ألا توجد قطرة حياء؟ • يركز انتقاده لثورة يوليو على عنصر غياب الديمقراطية • موقفه المناهض للملكية والنظام الملكى على طول الخط.

• **فكـرة الـمـواطنــة :** يحرص على واجباته السياسية وحقوقـه السياسية • كان مواظبا على الإدلاء بصوته فى الانتخابات وإن لم ينتم إلى تنظيمات الحزب • يأسف أشد الأسف لما أصاب أصحاب الآراء الفنية (من التكنوقراطيين) على يد الثورة من أذى بسبب آرائهم • من المؤسف أن مثل هذه الآراء التى يبديها نجيب محفوظ لا تزال تحظى بمثل هذا الهجوم عليه وعليها • نجيب محفوظ يدين قادة الثورة بسبب قرارهم بإعدام العاملين «خميس» و«البقرى» عقب أحداث المظاهرات العمالية فى كفر الدوار فى بداية عهد الثورة • رأيه أن هذا التصرف لم يكن إلا جريمة قتل. ٨١

• **فكرة الحزبية:** كان ضد القولبة والتقولب، سواء فى الأدب والنقد والفكر • يقارن بين موقفه من المذاهب الجديدة وموقف توفيق الحكيم • نجيب محفوظ فى المقابل يعنى بالتجاوب مع «التقنيات الجديدة» • إيمانه بالوفد وانتباهه إلى خطورة (ثم خطأ) الانشقاق عليه • موقف النقد الذاتى الذى اتخذه تجاه تحمسه المبكر للسعديين (أحمد ماهر والنقراشى) • عودته إلى الوفد عندما اكتشف الحقيقة، وأمنيته لو أن زعيمى الانشقاق قد عادا أيضا إلى التيار الرئيسى للأمة • يعقد آمالا كبيرة على حكومة الوفد الأخيرة (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢)، ويرى أنه كان بوسعها أن تحقق نهضة اجتماعية متميزة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية • لنجيب محفوظ نظريتان فى نهاية الوفد. ٨٣

• **فكرة الدين والدولة** • إيمان نجيب محفوظ بمدى الصعوبة فى العمل على تغيير أى عقيدة مهما كانت • الحرص على تسجيل المفارقة بين الإيمان والنجاح • نجيب محفوظ يبدو وكأنه يريد أن ينادى فى هدوء بفكرة فصل الدين عن الدولة • النقد الذى يواجهه الزعيم أحمد عرابى على لسان إخناتون • النجاح قد يأتى كجزاء على النوايا الحسنة • حقيقة الدور الذى تلعبه «المرأة» فى تمحيص ٨٦

معادن الرجال • تفاوت الالتزام بالشريعة الإسلامية عند الحكام المسلمين • نجاح الحكام المسلمين فى تصحيح الأخطاء التى تقع من بعضهم • سماحة الإسلام كما تجلت فى حكم أحمد ابن طولون.

• **أسـرة الملك والحاشية** • هل من حق الأجنبيات أن يكن ملكات لمصـر؟ • قدرة الحكام على أن يستعينوا بمن حـولهم • قيمة الملكات فى التاريخ القديـم • حقيقـة وطبيعة مشاركـة الملكـة تى الحكم مع زوجها الملك أمنحتب الثـالث • بعض مـلامح حكمـة الملكة تى فى معاملة الملك بحصـافـة • يلتـمس العـذر لنفرتيتى فى هجرها زوجها إخناتون • «حور مـحب» وسر اختياره لزوجـه العجوز • قيمة وحقيقة الدور الذى يلعبه الوزراء والقادة فى مساعدة الملوك • أهميـة فكرة الاستعانة بالتكنوقراطيين من أجل النجاح فى الحكم • يستشـهد بالقـول المأثور المنسوب إلى لينين • مقارنة تجربة عبدالناصر المحدودة بتجربة ستالين البارزة فى بناء الوطن من الداخل. ٩٠

• **الدولة والـمـثل العليـا** • تعدد المثل والأهداف التى أشار إليـها نجيب مـحفـوظ • يظهر الجانب الآخر لكل منها فى الوقت المناسب • قيمـة النظام فى فلسفة وأسلوب خوفو كملك عظيم • الصراع التقليدى بين الفكر النظرى والعمـلى • ينبهنا إلى أن الحياة لا تستقر بالرضا عن كل قوانينها • دفاع رمسيس الثانى عن قيامه باغتصاب العرش من أخيه • التضحية بأخلاق الوفاء من أجل غايات أخرى أجدى على الوطن. ٩٤

• **الفصل بين قضايا الأدب والسياسة** • علاقته بأستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق توثقت تماما على الرغم من اختلافهما سياسيا وحزبيا • الطبيعة التى كانت تحكم علاقة جيلهم بجيل أساتذتهم • كنا نختلف مع الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين فى السياسة على طول الخط، ومع ذلك نحترمـهما كأديبين ونعتبرهما على رأس أساتذتنا الذين نتعلم منهم • تفسيره الذكى لجوهر سياسـة العهـد الناصرى تجاه الفكر والفـن ملتفـتا إلى ما لم يلتـفت إليه غـيره • يشخص هذه السياسة فى قوله: إنها كانت إعطاء بعض الحرية للفن فى مقابل التضييق الشديد على الفكر • كان ينظر للأداء الناصـرى على أنـه متأثر إلى حد ٩٨

ما بالتجارب الشيوعية فى الحكم • مسئولية المدرسة المصرية • خطورة الفصل بين التربية والتعليم • أهمية التربية الجيدة والانتماء • يصرح بأفضلية المنتمى المتربى على اللامنتمى الحاصل على أعلى الدرجات العلمية • جوانب الأزمة التربوية التى نعايشها • ينبه إلى المستوى الأدبى الرفيع الذى كان الملتحقون بالمدارس العلمية يتمتعون به، ذاكرا فى هذا المجال منافسة الدكتور أنور المفتى له فى المدرسة الثانوية • يعبر عن ذهوله وصدمته من سرعة تنفيذ حكم الإعدام فى سيد قطب • نجيب محفوظ يدين رقابة الدولة على الأعمال الفنية فى عهد الثورة ويتهمها بضيق الأفق • عمله كرقيب فى فترة من فترات حياته الوظيفية كان مفيدا للفن • يعترف بصعوبة اللحظات والمضايقات التى مرّ بها فى أثناء عمله فى الرقابة • يعتقد أنه لم يخن نفسه كفنان وأديب.

• الأثر الضخم والقاسى بل المرعب لهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧• دهشته من أن يكون هذا الذى حدث قد أصبح حقيقة واقعة • لم يحدث له ذهول وانكسار مثلما حدث فى تلك اللحظة وما تلاها • يقارن فى ذكاء إبداعى بين شعوره قبل ذلك اليوم المشئوم وبعده • شعر بالخوف والقلق وبانقباض فى صدره، حين اكتشف أن العدو هو الذى بدأ الهجوم • هرع إلى جماعة من الأصدقاء كى يكون بينهم عند سماعه لخطاب عبد الناصر فى ٩ يونيو • شعر بشرخ داخلى بعد سماعه • يعبر عن شعوره النفسى فى هذين اليومين منشئاً حالة من التوحد بينه وبين أفراد الشعب المصرى • يقدم صورة غير مسبوقة تجيد التعبير عن حقيقة ما حدث • الموقف نفسه عبر عنه توفيق الحكيم فى كتابه «عودة الوعى» • نجيب محفوظ يبدع فى تصوير هذا الموقف الذى صوره توفيق الحكيم فى «عودة الوعى» فى مرحلة مواكبة لكتابة نجيب محفوظ للمرايا، ولكنه لا يكثف العبارات على نحو ما فعل الحكيم وإنما هو يدير هذه الأفكار بطريقة روائية ومسرحية • الثورة أقامت بناء شامخا من الورق على الرمال ثم جاءت موجة وأغرقت كل شئ • عشنا فى ظل شبح هائل مرعب طار فجأة فى الهواء بفعل الرياح • هزيمة ١٩٦٧ جعلتنى

ظل شبح هائل مرعب طار فجأة فى الهواء بفعل الرياح • هزيمة ١٩٦٧ جعلتنى أعيد التفكير فى ثورة يوليو بصورة كاملة، وأحاول معرفة ما حققته لمصر• قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ كنت أعيش فى وهم كبير • الحيرة التى انتابته بعد هزيمة ١٩٦٧ ، • ينشغل لبعض الوقت فى البحث عن المسئول عن الخديعة، هل هو الخادع أم المنخدع • «المرايا» بالذات تمثل عملا فريدا بين روايات نجيب محفوظ كلها، فهى العمل الروائى الوحيد الذى أنجزه بأكمله ونشره فى هذه الفترة الحالكة من تاريخنا • «التكنيك» الذى كتب به نجيب محفوظ هذه الرواية يكاد فى حد ذاته يدلنا على هذا الصراع النفسى الشديد الذى كان يجتاح أديبنا ويكاد يعصف به عصفا شديدا • أحس بالغدر إلى جوار الانكسار• ظل يتمنى لو أن هذا الذى حدث لم يحدث على الإطلاق • نكتشف مدى قدرة نجيب محفوظ على استنطاق أبطاله من جميع المستويات الفكرية والمهنية والطبقية بالتعليقات المعبرة عن حقيقة مواقفهم • نجيب محفوظ نفسه لم يكن إلا المتوسط الحسابى لكل هذه الشخصيات المتصارعة فى داخله • القارئ يود لو أن نجيب محفوظ كان قد أعطى لنفسه الفرصة ليضيف عددا آخر من الشخصيات التى كان لابد له أن يستنطقها رأيها فى هذا الذى حدث • المؤلف يفكر فى الشخصيات الغائبة التى كان ينبغى أن تتضمنها رواية نجيب محفوظ • مع هذا فإن الإنصاف يدفعنا فى الوقت ذاته إلى أن نعترف بأن نجيب محفوظ قد اختار الأفضل حين غيّب هذه الشخصيات • ما سجله عمود نجيب محفوظ من رأى فى يونيو ١٩٩٧ • محفوظ يعترف: تحولت كتاباتى بالكامل بعد ٥ يونيو ، وكتبت ما لم أكن أكتبه من قبل • تكنيك الحديث من خلال الشخصيات • نستطيع أن ندرك كثيراً من جوانب الرؤية الفكرية والسياسية لنجيب محفوظ من خلال القراءة المتأنية للوحات التى رسمها لشخصيات روايته ومن خلال تحليله لتوجهات هؤلاء ومواقفهم من هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ودوافعهم وراء هذه المواقف • المضامين التى تناول فيها نجيب محفوظ هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى رواية «المرايا» • الرواية انتظمت ٥٥ شخصية قدم كلا منها باسم محدد، آثر ألا يبدأ بالشخصيات التى بدأت بها ومن خلالها معرفته بالآخرين، ولا بالشخصيات المحورية • رتب هذه الشخصيات على حسب الحروف الهجائية، كما لو أنه كان يصنع معجم شخصيات

● تقســيم المؤلف لشخصيات المرآيا وموقفها من الهزيمة.

● المجموعة الأولى تشمل من توفوا قبل وقوع الهزيمة.

● المجموعة الثانية تمثل شخصيات أخرى غابت عن إدراك محفوظ، ومن ثم غابت معرفته بأحوالها منذ ما قبل الواقعة.

● المجموعة اللثالثة: توقفت علاقة نجيب محفوظ بهم قبل الحدث الجلل.

● المجموعة الرابعة: تمثل أولئك الذين التقى بهم محفوظ بعد النكسة مباشرة أو بفترة ولكن محور حياتهم [ومن ثم حـوارهم معه] لم يشر إلى النكسة من قريب أو بعيـد ● هذه المجموعة عاشت فى ذلك الزمن ولكنها لم تعشه.. أما المجموعة الثالثة عشرة فقد ابتعدت بكامل إرادتها عن الحدث، على الرغم من أنهم كانوا فى بؤرته.. أى أنهم لم يشاءوا أن يعيشوا الحـدث ● الفارق بين من ابتعد بظروفه (المجموعة الرابعة) ومن ابتعد بإرادته (المجموعة الثالثة عشرة) وبين من لم يعيش الزمن نفسه (المجموعات الثلاثة الأولى) ● مجموعات الشخصيات التى أدت أو لعبت دورا فى الانفعال والتأثر بالحدث الجلل، أو كما يسميه نجيب محفوظ «الواقعة»، وهؤلاء فى حقيقة الأمر يضمون أطيافا مختلفة من البشر.

● شخصيات المجموعات الأربع الأولى لم يكن من الوارد أن يكون لها رأى فيما حدث فى ١٩٦٧● كان بإمكان نجيب محفوظ أن يقلل من أعداد هؤلاء، هذا القول مردود عليه بحقيقتين مهمتين. ١٣١

● المجموعة الخامسة: أعداء الثورة والحاقدون عليها ● نجـيب محفوظ يعبر عن الشعور بالسعادة الطاغية، لأن الثورة (وكذلك الحياة) لم تنته كما تنبأ لها هذا الضابط القديم الموتور من ظلمها له ● نجيب محفوظ يبلور موقف المثقف الانتهازى من الثورة ومن هزيمة ١٩٦٧ وما سبقها وما أعقبها ● نجيب محفوظ كان حريصا على أن ينتقم من المثقف الانتهازى، حقق هذا الانتقام على يد القــدر● استفحل مرضه حتى أقعده بصفة نهائية فى الفراش، فأطفأ الشعلة المضيئة الوحيدة فى حياته المعتمة وهى شعلة العقل ● نجيب محفوظ يتصدى بنفسه وبطريقة مباشرة لأفكار المثقف الانتهازى ● الثورة لم تتلاش، بل مضت تضمد جراحها، وتجدد حيويتها، وتتأهب لمعركة جديدة ● محفوظ يبدو متعاطفاً ١٣٢

بعض الشيء مع بعض أفكار هذا المفكر، وإن كان يتصدى لبعضها الآخر بالتفنيد مع اعترافه بآثار فكره الباقية فى الأجيال(!!) • نجيب محفوظ يصل إلى حقيقة أنه مهما يكن من علم الإنسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعى الثقافى المتضمن طبعا الوعى السياسى.. وأنه مهما يكن من تفوقه وبراعته وفائدته فلن يعتصر من ذاته إمكاناتها الإنسانية حتى ينظر إلى نفسه لا باعتباره جوهرا فردا مستقلا، ولكن باعتباره خلية لا تتحقق لها الحياة إلا بوجودها التعاونى فى جسد البشرية الحى • محفوظ يصور طرازاً بارزاً من طوائف الشامتين فى الثورة دفعتهم ظروفهم إلى هذه الشماتة بدون أن تكون لديهم سوء نية • محفوظ يورد وجهة نظر أخرى فى الموضوع وهى وجهة النظر التى تقول بمفهوم جديد للوطن، فالوطن بيئة روحية وليس أرضا ذات حدود • محفوظ يتعالى على الشماتة فى الوطن.

١٤٢ • **المجموعة السادسة: المنتمون للثورة**: على الرغم من أننا نتوقع أن يكون هؤلاء كثيرى العدد فإننا نفاجأ بأنهم قد انحصروا فى شخصية واحدة فقط • نجيب محفوظ يكاد يوحى لنا بذكاء نادر وحنكة مسرحية بأن نموذج هذا الشخص غير موجود إلا فى إطار تصورات الثورة عن نفسها • يشير إليه بذكاء شديد فى قوله: «يتعذر تعريفه على ضوء المبادئ العالمية، ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء الميثاق» • محفوظ لا يقبل العبث التلفيقى الذى صيغ به الميثاق الوطنى، وهو بدهاء شديد يضرب أمثلة سريعة (وقاتلة) على هذا العبث بجمع المواطن (الذى صوره الميثاق) بين الإيمان بالعدالة الاجتماعية والملكية الخاصة معاً، والاشتراكية العلمية والدين معاً، والتراث والعلم معاً، والقاعدة الشعبية والحكم المطلق معاً.. وهكذا.

١٤٥ • **المجموعة السابعة: المتعقلون الذين تجاوزوا الهزيمة**

•حرص نجيب محفوظ على أن يستنطق هاتين الشخصيتين اللتين تضمهما هذه المجموعة بما ينبئ عن إيمانهما بما روجت له أجهزة الدولة فى ذلك الوقت من أن الهزيمة لم تقع لأن النظام لم يسقط حتى وإن كانت الأرض قد احتلت • نحن نعرف أنه لم يكن فى وسع نجيب محفوظ أن يتمادى فى نقد هذه الفكرة فى

الوقت الذى نشر فيه روايته، لكنه فى الوقت ذاته لجأ إلى حيلة ذكية فى نقدها والقضاء عليها قضاء مبرما بأن صور تفسخ أخلاق هاتين الشخصيتين (اللتين اعتنقتا هذه الفكرة) فيما يتعلق بعلاقتهما بالمرأة.

• المجموعة الثامنة: الشباب الذى فضل الهجرة • محفوظ يكتشف أهمية ما يسميه «البيئة العلمية» المفتقدة تماما فى بلادنا، وهو يمضى ليقول إنه لا منقذ لنا سوى العلم لا الوطنية ولا الاشتراكية.. إنما العلم والعلم وحده. ١٤٩

• المجموعة التاسعة: العدميون • يسأل عباس الشاب عن عقيدته البديلة، فيقول الشاب: «كان عندى... وتزلزل كل شىء» • هذه المجموعة تقترح القضاء على جميع المسئولين. ١٥٢

• المجموعة العاشرة: ضحايا الحرب من البسطاء • يتضح مدى معاناة الطبقة الوسطى كلها من جراء الحرب والنكبة فيها • هذا رجل استشهد ابنه فى سبيل الوطن على الرغم من عدم وضوح انتماء سياسى معين له تجاه الثورة • وهذا آخر أصيب إصابة عشواء وهو جالس فى المقهى فى أثناء مظاهرات الطلبة التى تفجرت عقب هزيمة ١٩٦٧ • آثار النكبة لا تقف عند حدود، وهى كفيلة بأن تمتد ولو عبر ثلاث درجات من السببية إلى مثل هذا الذى يبدو بعيدا بذاته عن الأحداث الوطنية • يقدم نماذج للإصابات النفسية التى تصيب معاصريها • تغير معنى اللذة والمغامرة • ما كان حميميا أصبح غريبا. ١٥٣

• المجموعة الحادية عشرة: المواطنون المهمومون بالحرب • سيدة تسأل: خبرنى عن الموقف، حرب أم صلح؟ • محفوظ: بسطت راحتى فى عجز عن الجواب، وافترقنا!!. ١٥٦

• المجموعة الثانية عشرة: السلبيون • موقف فئة لا يستهان بها ولا بعددها بين أفراد الشعب المصرى بعد الهزيمة. ١٥٧

• المجموعة الثالثة عشرة: الشخصيات غير المعنية بالهزيمة • هذه المجموعة تضم أهم الشخصيات فى رواية «المرايا» بل أرفعها قدرا وأكثرها ثقافة وأبعدها تأثيرا • جوهر ما أراد نجيب محفوظ أن يعبر عنه على الرغم من الأثر ١٥٨

الماحق الساحق الذى أحدثته النكسة فى شخصيته • الشخصية الفذة وموقفها من الحياة السياسية • لا يجد رأيا لهذه الشخصيات العلمية والفكرية المرموقة فيما حدث فى ١٩٦٧ من نكبة وكأنها لا تعنيهم • أستاذ الفلسفة الكبير فى مقدمة هؤلاء المرموقين الذين لم يعنوا بالهزيمة ولم ينشغلوا بها • من هذه المجموعة أيضاً: حجة من حجج القانون المعاصر، كان موسوعة فى الفلسفة والسياسة والأدب وقد اعتزل الحياة السياسية بعدما وجد البلاد مقبلة على حكم عسكرى • بالإضافة إلى أستاذى الفلسفة والقانون، فإن أستاذ الاقتصاد فى كلية التجارة كان يشاركهما نفس الروح • شخصية رابعة كان صاحبها صحفيا وفديا ثم أصبح شيوعيا • رأيه الحقيقى فى طائفة كبيرة العدد من الذين أثرت الثورة فى نفوسهم وأخلاقهم، ولم يكن من الممكن أن تستثار عندهم النخوة الوطنية حتى فى لحظات تالية لحدث مزلزل فى مثل عنفوان نكبة ١٩٦٧ • فقد هؤلاء ـ بالتدريج والتتابع ـ كل اهتمام بكل شىء، حتى مع تتابع إنتاجهم (المهنى) الجيد!! • شخصية خامسة: على الرغم من النجاح الطاغى الذى حول هذه المرأة البسيطة من شخصية مهملة إلى شخصية عامة، فإنها شأن أمثالها لم تكن لتنفعل بالحوادث، ولم تتأثر بانهزام الوطن ولم تفكر فى مستقبله، إنما هى عابثة لاهية مرحة • لم يعد عيبا ما كان يعد عيبا على أيامنا • يخيل إلىّ أن الحب كالديمقراطية أصبح معدودا من المهازل الزائدة! • يمكن لنا أن نضم إلى هؤلاء النرجسيين • إدانة موقف الشيوعيين من تلك النكبة الوطنية: لا يفرحون ولا يشمتون شأن المجموعات الأولى ولكنهم مع هذا لا يمارسون الانفعال بأزمة الوطن مع أنهم قريبون منها، ولكنهم لا ينفعلون • محفوظ يلجأ فى بعض المواضع من (المرايا) إلى التعبير بعبارات محملة بكل معانى المرارة والحزن • ثلاثة مواضع مهمة تصور مدى هذا الحزن.

• صدرت الطبعة الأولى من الكرنك عام ١٩٧٤ • نجيب محفوظ حرص على أن يسجل فى نهايتها أنها كتبت فى ديسمبر ١٩٧١ • الرواية تعبر تعبيراً ممتازاً عن

الجو النفسى الذى عاشه الشعب المصرى فى هذه الفترة التى كُتبت فيها • الهزيمة ومعقباتها تدفع إلى التفكير فى جدوى الثورة وما فعلته وحقيقته • تنامى الحيرة فيما يتعلق بالمستقبل • الأثر المدمر الذى تركته الإجراءات الاستثنائية التى قامت بها بعض أجهزة الأُمن والمخابرات على روح الشباب وحياته • ينتبه إلى أثر الهزيمة على الوحدة الوطنية وعلى الوحدة العربية .

• نجيب محفوظ يتنبأ: الحرب القادمة ستكون بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب • حس نجيب محفوظ الاستشرافى فى هذه الجزئية كان عالياً جداً.

• محفوظ يلفت نظرنا بطريقة روائية إلى أن أكثر الناس رفضا لهزيمة ١٩٦٧ ولتصديق وقوعها من الأساس كانوا هم البسطاء، ومع هذا فإن هؤلاء البسطاء سرعان ما انضووا مع اللامبالين، وإن لم يفقدوا الحزن الخفى العميق والدائم • محفوظ لا يجد حلاً إيجابيا إلا بالانضمام إلى حركة الفدائيين الفلسطينيين • يعجب من السذج الذين تصوروا أن «القوة الوطنية» لا تزال ممكنة مع الفساد الذى انتشر، والقيم التى تداعت • الرواية تحفل بفقرات بارزة من حوارات متصلة مع تعليقات لا تخلو من الاستبطان والاستبصار • نجيب محفوظ يجيد تصوير التيارات المائجة فى الشارع السياسى بعد التأكد من وقوع الهزيمة والإحساس بوطأتها • نجيب محفوظ يظهر الشعب واعيا بدرجة عميقة لكل مفردات الصراع • الحوار الفكرى المعبر عن الأمل فى الإصلاح والنصر من خلال ما حدث بالفعل على يد الرئيس السادات، وما كان الآخرون يرون ضرورته، ورؤيته التى يحاول أن يوفق بها بين الاتجاهين • يبدو أن نجيب محفوظ قد استحضر فى ذهنه وهو يدير هذا الحوار ذلك الحوار الفكرى الذى دار قبل الثورة مباشرة عندما دعا نجيب الهلالى إلى التطهير قبل التحرير، وهى الدعوة التى كانت بمثابة طوق نجاة للاتجاهات التى كانت تريد أن تبرر حكما غير ديمقراطى من أجل الإصلاح • مطالبته بالإصلاح الديمقراطى • التوفيق بين العدالة الاجتماعية والحرية السياسية • مصطلح الاشتراكية الديمقراطية • علاقة أبناء الثورة بالأيديولوجيات المختلفة،ومدى إيمانهم بمسئولية هذه الأيديولوجيات عن الوضع الذى وجدوا

أنفسهم فيه • أحد أبطاله لا يزال يؤمن بالاشتراكية وفى الوقت ذاته فانه ينتقد بل يكره الذين تولوا تطبيقها بصورة سيئة • نجيب محفوظ يجيد تصوير الوقع المفاجئ للهزيمة على أبناء الشعب من طوائفه المختلفة وطبقاته المتعددة • موقف رواية «الكرنك» من الثورة يعنى فى كثير من مفرداته بالحديث عن خطورة أخطائها الفكرية وإهمالها لجدوى التراكم التاريخى ولطبائع الأشياء • جرم الثورة فى التشكيل الخاطئ لوعى أبنائها • محفوظ حريص على أن يصور الاعتقال وقسوته من خلال الحديث الروائى عن آثاره على شخصيات مَنْ عانوه، لكنه مع هذا لا يبخل علينا بأن يورد بعض آراء مباشرة فى الاعتقال والتعذيب على ألسنة رواد مقهى الكرنك • أثر تجربة السجن فى تغيير معتقدات بطلة الرواية • محفوظ لا يبخل على أنصار الثورة والمدافعين عن إجراءاتها الاستثنائية بحديث أو مونولوج يتضمن جوهر رأيهم فى طبيعة هذه التجاوزات، وهو يؤديه بسخرية عميقة من كل مفردات المنطق المدافع عن التعذيب كأنه يوظف تكنيك العرب القدماء فى الذم بما يشبه المدح • نجيب محفوظ يجيد تصوير التمزق الذى عاناه أبناء الثورة نتيجة تعرضهم لجرائم المخابرات • نجيب محفوظ يجيد وصف جو القهر معبرا عن إحساسه بالمرارة الشديدة تجاهه • محفوظ يقدم وصفاً دقيقاً لهذا الجو الخانق للحرية • يستخدم مهاراته الأدبية والبلاغية فى تصوير هذا الجو مطلقا اسم «القوى المجهولة» على الجواسيس والمرشدين، ومسميا هذا العصر «زمن القوى المجهولة • تصوير الجو النفسى لاعتياد الجماهير على مآسى الاعتقال المفاجئ للشبان • يصف بعبارة مكثفة حالة اعتياد القهر والتعود عليه والانسياق له بسهولة • حالة الشك المتبادل التى جعلت الناس لا يثقون فى بعضهم • لنتصور أن المقهى أذنٌ كبيرةٌ • إذا دعت ضرورة إلى الخوض فى موضوع وطنى فلنتكلم متخيلين أن السيد «خالد صفوان» يجالسنا • أوهام القوة والنصر التى كان النظام الحاكم يزرعها فى أفئدة الناس • يعجب من أن يحدث هذا التضخم فى تصورنا للوطن بينما نحن مشغولون بالشك فى بعضنا لأن كل حديث كان ينقل إلى الحكومة • وصف حالة اللامبالاة التى وصل إليها الشعب • رواية الكرنك توشك أن تكون بمثابة النتيجة الطبيعية لما سربته دولة الثورة نفسها عن

على استشفاف ما يريد أن يصوره كاتب مقتدر بعد خمسين عاما من الخبرة بالكتابة • المبالغة فى تفسير رموز نجيب محفوظ تقودنا إلى طريق أكثر خطرا حين نجد أنفسنا وقد بعثنا فى الرموز الواضحة ما ليس فيها • لماذا عبر نجيب محفوظ عن فعل الاغتيال بفعل القتل؟ ولماذا بناه للمجهول؟ • لا يريد أن يقول إن ما وقع فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ اغتيال (بما ينطوى عليه من مؤامرة) إنما هو قتل • كأنه يشير إلى تفاهة شخص القاتل إذا قيس بمن قتل. وإلى تعاظم أهمية الحدث بغض النظر عمن أحدثه • يختزل كل تحليلاتنا لمقتل أنور السادات بعدما قرأها جميعا • يربط الأمور بعضها ببعض من بدايات أعمق.. بداية الجيل الثالث فى القرن العشرين الذى لا يجد الفرصة لتحقيق آماله المشروعة • نجد الجيل الأول وقد استراح باله لما حققه، وأصبح يستمتع بالدنيا الزائلة أو الغارية رغم ما قد يعانيه فى أخرياتها • هذا الجيل يدرك مظاهر الأزمة الاقتصادية لكنه لا يتأثر بها كثيرا • الجيل الأول يجد نفسه وقد ظنت أن اضطراب الأوضاع الاقتصادية بمثابة حكمة من حكم الخالق جل جلاله • أما جيل الوسط فإن نجيب محفوظ أشد ما يكون حيرة فى شأنه • يعبر عن هذه الحيرة بأقسى أنواع التعبير وأقصاها فى الوقت ذاته، وهو التجاهل • يتعمد تجاهل هذا الجيل • يؤثر لصورته ـ عن عمد وعن وعي ـ أن تظل محاطة بالغموض والاضطراب.. ويبدو أن هذا مقصود من أجل خطوة تالية • يحاول أن يبحث بنفسه عن تفسيرات شارحة للموقف النفسي، ولكنه فيما يبدو غير مقتنع بأى من هذه التفسيرات إلى النهاية • نجيب محفوظ يتعجب: فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول.. ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر!! • نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر • هذا المنتصر المعجبانى شذ عن القاعدة، تحدانا بنصره، ألقى فى قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيأ لها، وطالبنا بتغيير النغمة التى ألفناها جيلا بعد جيل، فاستحق منا اللعنة والحقد، ثم غالى بالنصر لنفسه تاركا لنا بانفتاحه الفقر والفساد، هذه هى العقدة!! • فكرة منْ قتل يقتل: يرسخ المقولة التى ترددت بتلقائية [مصرية] عقب مقتل الزعيم مستوحية فى هذا ما شاع عن مشاركة الزعيم فى قتل أحد وزراء ما قبل الثورة، • محفوظ يترك ميدانا فسيحا للتفكير • نجيب محفوظ يصنع لنا رموزا قليلة واضحة الرمز لكنها تحتمل كثيرا

هذا الكتاب

لست من أنصار التعميمات فى صورها المختلفة، وإن كنت لا أستطيع أن أنكر وجودها، بل ولا أملك إلا أن أحترمها فى بعض الأحيان.. ولهذا فإنى أجد قدراً من الشجاعة يدفعنى إلى القول بأن نجيب محفوظ كان أكثر أدبائنا عناية بالسياسة فيما كتب وأبدى من آراء، وعلى الرغم من هذا فقد ظل بريئا تماما من استثمار آرائه السياسية، أو توظيفها وقد بلغ فى هذا الخلق حداً يمكن معه القول بأنه كان فى عقيدته السياسية راهبا زاهدا.

نحن لا نستطيع أن ننفى عنه أنه كان ينفعل بالأحداث ويشارك قومه بعض معتقداتهم السائدة، (ونحن لا نستطيع أن ننفى عنه) أنه كان ينخدع أحياناً فى بعض الاتجاهات والتوجهات، ونحن لا نستطيع أن ننفى عنه أنه صنع بعض الأدب الذى أمكن توظيفه لأهداف سياسية واضحة، بل إننا لا نستطيع أن ننفى أنه سار مع بعض الموجات السياسية التى تحفظ آخرون على السير معها.. كل هذا صحيح، بل يثبت حقيقة أهم وأعمق، وهى أن نجيب محفوظ لم يستثمر آرائه السياسية ولم يتاجر بأدبه فى السياسة.

على أننا لا نستطيع أيضا أن ننكر أن انشغاله بالسياسة وإضفاء أعماله الأدبية بها لم يكن له علاقة مباشرة بزهده فى الاستثمار أو رغبته فيه أو ممارسته له.

إنما كان ينبغى لنا أن نبدأ بهذه الملحوظة التى تضيف إلى فهمنا لحقيقة التأمل فى أحداث السياسة وطبيعتها.

ونبدأ بأن نشير إلى حقيقة مهمة، وهى أن تأمل نجيب محفوظ فى السياسة قد مضى مستندا إلى دعامتين أساسيتين هما التاريخ والفلسفة.

قرأ نجيب محفوظ التاريخ مرات عديدة، بل لعله لم يكف عن قراءة التاريخ، وكان فى كل قراءة يعثر على ما يمكن له أن يكون بمثابة نموذج حل المعضلة، وإذا أردت أن أقرب الصورة التى كان عليها نجيب محفوظ وهو يتأمل التاريخ فإنى لا أستطيع أن أزعم أن تشبيها واحدا بكاف لهذا التقريب، وفى الوقت ذاته فإنى أستطيع أن أجد ثلاثة تشبيهات تتنازع وصف موقفه فى سلوكه تجاه التاريخ الذى يتأمل حوادثه، ومن حسن الحظ أن هذه التشبيهات الثلاثة ليست بذات القوة، فأحدها يعكس الأغلبية، وثانيها يعكس الأقلية، وثالثها يعكس الندرة.. ولكنها معاً تصور موقف نجيب محفوظ من التاريخ، وهو الموقف الذى يمثل إحدى دعامتى فهمه وتحليله للسياسة وصياغته لفكره السياسى.

- كان نجيب محفوظ فى هذا السلوك أشبه ما يكون بعلماء الفقه الإسلامى الذين ينمون علمهم بقراءة فتاوى مَنْ سبقهم من العلماء.

- وكان فى بعض الأحيان أشبه بالمهندسين المعماريين الذين يدرسون

الآثار المعمارية للسابقين عليهم.

● وفى أحيان **أندر** كان نجيب محفوظ يؤمن بما قاله توينبى من أن التاريخ يعيد نفسه.

وربما كانت الفكرة السابقة فى حاجة إلى بعض الضوء، وسنحاول هذا من خلال تفصيل القول فى المنظورات الثلاث التى عرضناها.

لم يكن نجيب محفوظ فى حقيقة الأمر يستمرئ الوصول إلى حلول جاهزة أو نمطية، لكنه كان يؤمن أن موضوع الفتوى يظل قابلا للاجتهاد، بدليل أن علماء الدين فى حقب متتالية أفتوا فيه بوجهات نظر مختلفة، وبدليل أن بعضهم فى نفس الحقبة قد اختلف فيه، ولم يكن نجيب محفوظ يخفى كراهيته للنمطية القاتلة، ولا لفكرة احتكار الصواب، ولا لفكرة أن هناك صواب واحد، بل كان على طول الخط مهاجما لهذه الأفكار الثلاث، وكان زاده الذى لا ينضب هو ذلك العلم الفقهى الإسلامى المتراكم والممتد والمتنوع والثرى.

وعلى صعيد أقل تكرارا كان نجيب محفوظ يدرك أن المعمارى الناجح قادر على أن يعيد صياغة الفكرة السابقة مستفيدا بما أثبتته الأيام من آفاق جديدة، وهكذا كان نجيب محفوظ يتأمل فى الأحداث الماضية بمساعدة أدوات لم تكن متاحة أمام مَنْ تأملوا نفس الأحداث من قبله، وهكذا فإنه كان قادرا على أن يوظف أساليب المعماريين من دون أن يتناقض مع ما هو قائم بالفعل، إنه يقر بحقيقة الوجود الذى كان على نحو ما كان، ولكنه يتأمله من زاوية جديدة أتاحتها شرفة جديدة يرى منها ما لم يكن مرئياً من قبل، إنه فى واقع الأمر يقوم بما يطلق عليه مخططو المدن «التخلية» حول

الآثار والمبانى القديمة ليجلو ما فى هذا القديم من سر لم يدركه الراءون والناظرون من قبل.

على صعيد ثالث نادر فإن نجيب محفوظ لا يعارض تماما فى فكرة الدورات التاريخية، ولا الأفكار القائلة بتشابه جوهر التماثل، ولكنه لا يكاد يسيغ القول بأن التاريخ يعيد نفسه إلا مع إظهار وجه للخلاف بين كل تجربتين تبدوان متشابهتين، أو سجلتا فى الوجدان على أنهما متماثلتين أو بدتا وكأنهما مصداق للقول القائل بأن التاريخ يعيد نفسه.

■

وخلال كل هذا البحث الفكرى فى خضم محيط زاخر كانت لنجيب محفوظ من ناحية أخرى أدواته الهادية متمثلة فى أدوات فلسفية تمكن صاحبها من استخدامها على نحو متميز من أجل الوصول إلى نتائج شبه محققة فى هدايته إلى موضعه من الفراغ الهائل الذى يمثله وجوده فى خضم محيط الحياة.

وكانت الأدوات الفلسفية لنجيب محفوظ بمثابة البوصلة، وبمثابة الترمومتر، وبمثابة مقياس الضغط، وبمثابة كل الأدوات الأخرى التى تقيس الأبعاد أو المتغيرات الفيزيائية لتهدى صاحبها إلى حقيقة موضعه فى هذا الكيان الكبير الذى ذهب يستكشفه على نحو أو آخر.

فيما قبل حصوله على جائزة نوبل، وفيما بعد حصوله عليها، روى نجيب محفوظ لأكثر من أديب وكاتب على هيئة حوارات أو حلقات ما أطلق عليه وصف مذكرات، حدث هذا عدة مرات، كذلك فإنه فيما بعد حصوله على

جائزة نوبل نسقت مقالاته وآراؤه وصنفت وصدرت فى كتب كثيرة، وفى هذه الكتب والمذكرات والمقالات تعرض نجيب محفوظ لفكره السياسى بقدر كبير من الصراحة والوضوح، حتى ليبدو لدارس نجيب محفوظ أنه لم تعد هناك فرصة لتقديم المزيد من هذا الفكر، وحتى ليبدو تأويل نصوص نجيب محفوظ نوعاً من أنواع التزيد غير المرحب به.

■

ومما لاشك فيه أن رواية نجيب محفوظ لواقعة ما قد اختلفت مرة بعد أخرى وكذلك اختلف تفسيره لما حدث له أو لما صدر عنه من رأى تجاه ما صادف من تجارب الحياة وخبراتها، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أو نتجاهل حقيقة وضوح رؤيته منذ مرحلة مبكرة حتى إنه فى تعبيره عن هذه الرؤية لم يبتعد فى رواية ما عن بقية الروايات إلا بقدر طفيف جدا، والحاصل أنه فى مجمل آرائه ظل على نفس نهجه، ولم يعدل من هذه الآراء على نحو ما فعل معاصرون كثيرون له، ويمكن القول بأن الاختلافات البسيطة فى رواياته لا تتعدى حدود أمرين، أولهما الاختلافات التى يفرضها الحجم المتاح أمامه للحديث عن الجزئية، وثانيهما ميل الراوى إلى اختزال أو تقديم وتأخير بعض عناصر رواية نجيب محفوظ، ونحن نعرف أن حسن الحظ (أو سوء الحظ) قد أتاح طيفا واسعا من ذوى التوجهات للتصدى للرواية والحديث باسم نجيب محفوظ، ومن ثم فقد عادلت جرعات بعض الروايات المختلفة بعضها الآخر، وإن لم يصل هذا التعادل بالطبع إلى ما كان ممكن التحقق لو أن نجيب محفوظ تولى بنفسه وبمهارته المعهودة منه كتابة سيرة ذاتية وفكرية لرحلة حياته الحافلة.

والواقع أن أكبر هذه المذكرات وهى تلك التى حررها الأستاذ رجاء النقاش وصدرت عن مركز الأهرام للترجمة والنشر تظل محتفظة بمكانة متقدمة بين كل الكتابات المناظرة نظرا لتركيزها وتكثيفها وخلوها من أحاديث الطرف المحاور وفذلكاته، فضلا عن تأكيدها على الجوانب الفكرية والسياسية فى مسيرة نجيب محفوظ، ونظرا لإعادة طرحها لنفس القضية من خلال منظورات ومدخلات مختلفة، فإن حديث نجيب محفوظ فى هذه المذكرات يأتى متسقا إلى حد بعيد مع آرائه الفكرية التى عبر عنها من خلال إنتاجه الفنى.

وسنقدم للقارئ فى هذا الكتاب مجموعة من وجهات نظر نجيب محفوظ للحياة السياسية التى تضمنتها أعماله الروائية ومذكراته الشخصية على حد سواء، وذلك من خلال معايشته لهذه الحياة، سواء بشخصه، أو بفكره، ومن الجدير بالذكر أن هذه العبارات التى حفلت بها أدبياته ومذكراته والتى تبدو وكأنها مباشرة فى تعبيرها عن آراء نجيب محفوظ لم تصدر على هذا النحو المباشر، وإنما كانت نتيجة حوارات ممتدة ومتراكمة أجراها رجاء النقاش ثم نشر خلاصتها من دون أن يقحم الأسئلة التى طرحها ولا المداخلات التى وجد نفسه مضطرا إليها طيلة الحوار، وفى مرحلة تالية فقد أعدنا نحن أيضا ترتيب هذه الفقرات بعد انتقائها، وذلك دون أى مساس بها لنقدم لقارئنا اليوم صورة «مبوبة» لهذه الآراء الفكرية.

■

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يرزقنى التوفيق والوفاء، وأن يديم علىّ نعمه، وأن يجزى الراحلين عنا خير الجزاء، وأن ينفعنا بما تركوه، وأن يخفف عنى آلام المرض والدواء، وأن يشفينى، ويعفو عنى، وأن يبدلنى من أمرى

صحة وافية وقدرة، وأن يديم علىّ رحمته ومغفرته.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم و وصب وقلق،وأن يحسن ختامى ، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى ، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول. وهو جلّ جلاله الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية. فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل .

د. محمد الجوادى

1

ملامح الفكر السياسى لنجيب محفوظ فى رواية «أمام العرش» ومذكراته

ملامح الفكر السياسى لنجيب محفوظ
فى رواية «أمام العرش» ومذكراته

كتب نجيب محفوظ فى الصفحة الأولى من روايته «أمام العرش» أنها حوار مع رجال مصر من مينا حتى أنور السادات، وقد نشر نجيب محفوظ هذه الرواية عقب اغتيال الرئيس السادات سنة ١٩٨٣ ، وقد شعر - كما كان الرئيس السادات نفسه يشعر - أن نهاية عهد السادات كانت بمثابة نهاية عهد الفراعنة الجدد، ويبدو أن دافعه الأول كان حرصه على أن يسجل على الورق كل ما اضطرمت به نفسه من مشاعر تجاه تاريخ الحركة الوطنية المصرية الحديثة والمعاصرة التى عاشها والتى عايش فيها الاختلاف حول تقييم دور زعمائها، ويبدو بكل وضوح أن رؤية نجيب محفوظ لهذه الحقبة الزمنية كانت تامة الاكتمال، وكانت واضحة المعالم بدرجة كبيرة ، ولأن نجيب محفوظ كان منذ بدايات حياته مشغوفا بالتاريخ المصرى القديم

أيضا فقد دعته حنكته وحكمته إلى أن يبدأ روايته أو حواراته منذ التاريخ السحيق لمصر فى عهد مينا.

وقد بدا واضحا من خيارات نجيب محفوظ فيما كتبه فى هذه الرواية أنه ظل فترة طويلة غير مستقر على المرجعية التى يحاكم بها هؤلاء الزعماء المتوالين، وإذا هو فى النهاية يصل إلى حل وسط بأن يجعل المرجعية مصرية تماما فيما قبل المسيحية والإسلام، وأن يحكم من خلال الولاء المصرى المطلق (أو البحت) على كل مَنْ سبقوا اعتناق المصريين لهاتين الديانتين، ثم يجعل قرارات المحكمة بعد ذلك بمثابة توصيات توصى بها لدى المحاكم «الدينية» التى سوف تتولى محاكمة معتنقى المسيحية والإسلام.

على هذا النحو بدأ نجيب محفوظ روايته بدون تقديم، وجعل سطورها الأولى حافلة بكل ما هو كفيل بأن يدلنا على السيناريو الذى تمضى به المحاكمة من زعيم إلى آخر، وقد اختار أن يجعل أوزوريس فى الصدر على العرش الذهبى، وجعل من زوجه إيزيس عضو اليمين، ومن حورس عضو اليسار، أما دور الادعاء فقد أسنده نجيب محفوظ إلى تحوت كاتب الآلهة، الذى جلس مسندا الكتاب الجامع إلى ساقيه المشتبكتين.

❑

ونأتى إلى الإبداع الروائى الذى استغله نجيب محفوظ ووظفه، وفى حقيقة الأمر فقد كان هذا الإبداع هو المبدأ العكسى لفكرة التاريخ، فنحن نعرف التاريخ الذى يبدى فيه اللاحقون آراءهم فى السابقين، ولكن نجيب محفوظ فى كتابه هذا لم يجعل من حق اللاحقين أن يبدوا آراءهم فى السابقين، وإنما أناط هذا الحق

بالسابقين ينتقدون به اللاحقين، وقد وظّف نجيب محفوظ هذه الفكرة من خلال دعوة المحكمة للحكام الذين تحكم عليهم باستحقاق الخلود بالجلوس إلى يمينها ليشهدوا محاكمة التالين لهم، وليدلوا بآرائهم فى أداء هؤلاء اللاحقين، وهكذا نرى الملك مينا ـ على سبيل المثال ـ يبدى رأيه فى أكثر من زعيم لاحق حتى يصل إلى أنور السادات.

ومع هذا فإن العكس لا يحدث، فليس من حق اللاحقين أن يبدوا أمام المحكمة رأيهم فى السابقين، بل الأكثر من هذا أن من حق السابقين أن يناقشوا اللاحقين فيما يرونه فيهم، وبالتالى فإنهم يستطيعون توجيه اللوم لهم، بل وتصحيح وجهة نظرهم.

❑

ونحن نرى نجيب محفوظ فى مجمل أحكامه أكثر ميلا إلى الإنصاف أو إعطاء العذر، كما نراه منصفاً عطوفاً حنوناً، أميل إلى المسامحة والغفران، كما نراه مقدراً للجهود التى بذلت، وللمصاعب التى واكبت كل واحد من هؤلاء، ولكنه مع ذلك لا يبخل على كل واحد من هؤلاء بالنقد الذى يستحقه، وبمقارعة حججه وبخاصة إذا ما كانت ظاهرة البطلان، فإذا ما وصلنا إلى الحكم النهائى فإننا نجده يقدر أغلبية الحكام ولكنه يُنْحِى على بعضهم باللائمة ويضع البعض الآخر فى موضع التافهين الذين لا يستحقون الرحمة ولا يستحقون العذاب أيضا.

وقد أورد نجيب محفوظ حديثه عن طابع جزاءات المحكمة بعد عدد من الصفحات الأولى من روايته على لسان أوزوريس حيث يقول:

«... لا بأس من أن أشرح لكم المصير، فاعلموا أن محكمتى تفضى إلى ثلاثة مقامات، مقام الجنة، ومقام الجحيم، ومقام بينهما للتافهين غير المذنبين ممن لا يستحقون الجنة ولا النار، وفضلا عن ذلك فإن الجنة مراتب، ففيها ملوك وفيها خدم كلٌّ بحسب عمله فى الدنيا».

وبعد أكثر من مائة صفحة يزيد نجيب محفوظ اختصاص المحكمة التى أقامها وطبيعة نظامها توضيحا فيقول:

«وليس من اختصاص هذه المحكمة أن تحاسب الحكام الأجانب، وهى تعتبرهم جميعا أجانب ملعونين، وإن اختلفوا فى الدرجة بين حاكم مصلح وحاكم مفسد، وسوف نواصل محاسبة المصريين، مَنْ اكتسب مصريته بالوراثة أو مَنْ اكتسبها بالإقامة والقلب، وسيكون حكمنا غير نهائى فى حالة اعتناق المصرى لدين جديد مثل المسيحية أو الإسلام فيكون حكمنا نوعا من التقدير التاريخى نرجو أن يوضع فى الاعتبار عندما يحاكم المواطن أمام محكمته الدينية فى عالم الأبدية».

❑

على أن ما يعنينا بالطبع فى حديثنا عن رواية نجيب محفوظ أن نناقش بعض ملامح فكره السياسى الذى تبلور تجاه مجموعة مهمة من القضايا والأفكار السياسية.

وربما جاز لنا أن نبدأ بأن نقرر أن نجيب محفوظ ظل طوال الرواية منحازا كل الانحياز إلى قيم الحرية واحترام حقوق الإنسان، ومع هذا فإنه ظل أيضا مقرا بالأمر الواقع وبطبائع الأشياء، فهو لا يكلف الأمور أكثر ما تحتمل، ولا ينتظر منها

غير ما هو متوقع، وهو لا يؤمن بانفصال القيم عن الواقع، ولا بانفصال النتائج عن المقدمات، إنما هو معنى بإثبات واجب الإنسان فى خضم هذا كله، فهو لا يقبل من أى حاكم تقاعسا عن دور كان ممكنا له حتى لو لم تكن نتائج هذا الدور ممكنة أو محتملة أو مضمونة.

❑

نرى نجيب محفوظ فى هذه الحوارات يعبر عن كل الرؤى التى أفنى حياته من أجل التبشير بها فى كتاباته، ونراه أيضا يعبر عن كل الحقائق التى استطاع الوصول إليها من خلال دراسته وتأمله التاريخ الإنسانى بصفة عامة، والمصرى بصفة خاصة.

السياسة فن الممكن

تتجلى واقعية نجيب محفوظ بصفة خاصة فى محاكمة مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطنى بالتبعية، ونحن نراه وهو يتظاهر بأنه يوجه نظر الزعيمين الوطنيين من خلال أقوال زعماء سابقين، لكننا نرى أبلغ وجهة نظر ناقدة لتصرفات أو توجهات الحزب الوطنى تأتى على لسان سعد زغلول فى دفاعه عن نفسه حين سأله الوزير أمنحتب عن قبوله العمل فى ظل الاحتلال وعدم انضمامه للحزب الوطنى، وعندئذ يجيب سعد زغلول بقوله:

«.. كان الحزب الوطنى يدعو إلى مبادئ خيالية، من ذلك أنه لا مفاوضة إلا بعد الجلاء، مما يعنى بقاء الاحتلال إلى الأبد، ومنه مقاطعة الوظائف العامة لهيمنة الإنجليز عليها، ولا يكفى فى نظرى أن تطالب الناس بسلوك معين، ولكن يجب أن يكون هذا السلوك ممكنا دون تهاون أو إجحاف، وأن يصلح للتطبيق العام، وقد استطاع مصطفى كامل مقاطعة الوظائف بما كان يمده الخديو وغيره به من مال، واستطاع محمد فريد ذلك لثرائه الواسع، ولكن ماذا يصنع أتباع الحزب؟ إن اتبعوا مثل زعامتهم هلكوا، وإن خالفوها مضطرين خانوا العهد، فكيف يدعو أناس إلى ذلك المبدأ المتعالى الذى يعز على التطبيق ويورث الشعور بالإثم؟ ثم كيف نترك الوظائف العامة للأجانب؟ وقد قبلتُ الحياة الرسمية لأمارس من خلالها ما استطعته من مقاومة، ومن أداء خدمات لوطنى كان فى أشد الحاجة إليها، وقد اعترف بذلك خصومى قبل أصدقائى».

ولهذا السبب نفسه نرى نجيب محفوظ غير منبهر بأداء مصطفى كامل وهو ينطق «**بسماتيك الثالث**» بسؤال لمصطفى كامل عن سر عدم قتل الإنجليز له على نحو ما قُتل هو على يد «**قمبيز**»، وبعد مناقشة سريعة يقول بسماتيك لمصطفى كامل:

«زمانك وفر لك من الأمان ما لم يوفر لى بعضه، والحق أنى لم أعرف مجاهدا سعيد الحظ مثلك، حظيت بتأييد الخديو والخليفة والجمعية الإسلامية، وهاجمت عدوك فى الداخل والخارج دون عقاب، واكتسبت مجدا وشهرة دون أن تدفع ثمنا، لم تُقتل كما قتلت أنا، ولم تُنف كما نُفى أحمد عرابى».

❑

بل إن أبنوم وهو رمز الثوار فى مصر القديمة، يستنكر على مصطفى كامل أن يدمغ أحمد عرابى بالخيانة وبأنه المسئول الأول عن الاحتلال، ويعاود نجيب محفوظ من خلال حديث أبنوم التأكيد على فكرته السابقة فيقول لمصطفى كامل:

«إنك شاب وطنى متحمس صادق النية سعيد الحظ، عشت حياتك فى جو معبق بأبهة العرش والخلافة والحضارة الفرنسية، لم تشم رائحة العرق الكادح، ولم تكابد آلام الجهاد الحقيقية، ولم تتورع عن النيل من الثائر الحقيقى» [يقصد: أحمد عرابى].

❑

ويواصل أبنوم نفس المنهج فى نقد تصرفات محمد فريد حين هاجر من وطنه ليدعو إلى قضية بلاده فى الخارج، حيث يتوجه إليه بالحديث قائلا:

ـ «خبرنى كيف يترك زعيمٌ أمتَه فى محنةٍ ليجاهد فى الخارج؟!».

ـ «فقال محمد فريد: دبروا للزج بنا فى السجن».

ـ «فقال أبنوم: ولكن الزعيم الحق يعلم أنه خلق للسجن أو القتل لا للجهاد فى الخارج».

ـ «كان الجهاد فى الخارج ضمن خطتنا الوطنية منذ أيام مصطفى كامل».

ـ «فقال أبنوم: قد يُقبل كعمل إضافى لاستكمال العمل الأصلى فى الداخل، أما أن تهاجر أنت والقادة تاركين حزبكم بلا قيادة حقيقية فهو تصرف بعيد عن الشجاعة والحكمة معا، المسألة أنكم من الأعيان الذين قضيتُ عليهم فى ثورتى بلا رأفة، إنكم تحبون الزعامة ما ضمنت لكم الجاه والاحترام، ولكن لا قبل لك بالكفاح الصادق وما يسوق إليه من سجن أو تعذيب أو موت، لذلك تخليت عن الأمانة فى اللحظة الحرجة مؤثرا الجهاد الآمن فى الخارج، وأصبحت بذلك المسئول عما حاق بالحركة الوطنية من ضعف وتفكك، لذلك أيضا لا أعجب لدهشتك لاشتعال ثورة عارمة فى الشعب، وأدهش فى الوقت نفسه لشعورك المتعالى بالظلم لاختيارها زعيما غيرك، كأن الزعامة ميراث يُتداول فى طبقتك كالأرض والمال حتى بعد الهرب من ميدانها».

«فقال محمد فريد: إنك تردد ما قاله أعداؤنا!».

ـ «لا أنكر وطنيتك، ولكنك أحببت مصر على حين انطويت فى صميمك على احتقار المصريين، ولم يفارقك الشعور بالانتماء إلى أصل أسمى، ولم يكن مفر من أن تنقلب حياتك إلى مأساة... لا يمكن أن يتبوأ زعامة شعب إلا رجل من الشعب،

ويتميز بالعظمة الإنسانية لا العظمة الأرستقراطية».

ومع هذا فإن إيزيس عضو اليمين التى تنطق بروح مصر تعبر عن تقديرها العميق لمحمد فريد وتقول:

«أما أنا فأعتبره من خير أبنائى خلقا وإخلاصا ووطنية، ولم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل، مع مراعاة ظروف مولده ونشأته».

❏

على هذا النحو من التقدير الواضح لقيمة الواقعية نجد نجيب محفوظ وهو يتعامل مع الحقائق التاريخية فى تطور الحركة الوطنية، هو لا ينكر الجهد ولا يصوب الخطأ ولا يخطئ الصواب، ولكنه قبل كل شىء يعنى بما هو ممكن وبما هو مطلوب.

ونحن نراه فى موضع سابق يروى قصة حدوث مجاعة كبيرة فى ذلك الزمن (فى الفصل ٤٧) فيعلق إخناتون بقوله:

- «لو اعتنقتم جميعا ديانة الإله الواحد لبادر إلى إنقاذكم».

وعندئذ يعلق الثائر أبنوم بقوله:

- «كانت مشكلة خبز لا مشكلة لاهوتية».

❏

وفى هذا الإطار ينبه نجيب محفوظ إلى أهمية فكرة معاهدات الصلح وآثارها المزدوجة وذلك من خلال هذا الحوار الذى يديره بين تحتمس الثالث وسيتى الأول:

قال تحتمس الثالث:

- «المعاملة الوحيدة المجدية مع عدو قوى هى القضاء عليه لا عقد معاهدة صلح معه!».

قال سيتى الأول:

- «معاهدة الصلح بديل معقول عن حرب غير مجدية».

❑

وتبدو عبقرية نجيب محفوظ فى تعبيره عن فهمه للعلاقات الدولية وأثرها على حركة التحرر الوطنى، وعلى سبيل المثال فإنه ينتبه إلى العنصر الذى ضمن نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مقابل فشل ثورة عرابى، وهو يعتبر أن هذا العنصر هو فهم الثورة للعلاقات الخارجية ووضعها فى الاعتبار، وهو لهذا لا يضع علاقة الثورة بالأمريكان موضع الإدانة كما يفعل غيره، بل إنه يشير إلى أهمية هذه العلاقة فى ضمان نجاح الثورة وهو فى مذكراته يقول:

« ..... أميل إلى وجود تنسيق ما بين حركة الجيش والأمريكان، ذلك أن مصالحهما اتفقت فى تلك الظروف التاريخية على التخلص من الاستعمار الإنجليزى وإحداث تغيير فى المنطقة.. وكان هذا التنسيق من أسباب نجاح الثورة، وكان هو نفسه السبب الرئيسى فى إخفاق ثورة عرابى، ذلك أن أحمد عرابى اعتمد على تأييد الشعب، واصطدم بالقوى الاستعمارية دون أن يكون له سند قوى يحمى ظهره حتى لو كان تركيا المريضة».

❑

وفى الإطار ذاته يجد نجيب محفوظ شجاعة واضحة فى التعبير عن رأيه

الجرىء القائل بأن تأميم القناة كان خسارة فادحة لمصر، وهو يقدم مبرراته للقول بمثل هذا الرأى على الرغم من إدراكه أن الضجيج العالى حوله قد لا يسمح بتقبل مثل هذا الرأى، بل قد يعده نوعا من أنواع الخيانة الوطنية، وهو يقول فى مذكراته:

«.... على المستوى السياسى كان تأميم القناة خسارة فادحة لمصر، لأنه أدخلها فى صدام مباشر مع القوى الكبرى، وكان الأفضل ألا نحاول استفزازها، خاصة أن عظام الثورة كانت لا تزال لينة، ولا تتحمل مثل هذا النوع من الصدام العنيف. وعلى المستوى الاقتصادى خسرت مصر، ذلك أن موعد عودة القناة لمصر كان يحل فى عام ١٩٦٨، ولو انتظرنا إلى هذا التاريخ ما اضطررنا إلى دفع تعويضات مالية، ولحصلنا على حقوقنا بدون الدخول فى صدام عنيف مع الدول الاستعمارية، خسرنا من ورائه الكثير».

❑

كذلك يتجلى مفهوم الواقعية السياسية عند نجيب محفوظ بصورة أعمق فيما نراه يتكرر من إنصاف «إيزيس»، فهى على الدوام (أو فى أغلب الأحوال) تنطق بما يظهر اعتزازها ببنوة أبنائها الحكام وبأنهم بشر فى البداية وفى النهاية، وليس أدل على هذا المعنى من أن نرى إيزيس وهى تتحدث إلى أوزوريس فى نهاية محاكمة مينا فتقول له: «مولاى يحاكم بشراً لا آلهة».

❑

ولا ينبغى لنا أن نترك الحديث عن هذا الجانب من فكر نجيب محفوظ من دون أن نشير بكل وضوح إلى حقيقة أن نظراته الواقعية لم تكن تعلى بأية حال تمجيده

للاستسلام أو النفعية أو الوقتية، ولعل أبرز ما يدلنا على هذا هو حقيقة نظرته إلى الموت، فنحن نجده يؤمن بحتمية الموت، ولكنه يحاول التغلب على تلك الحتمية بأكثر من طريقة.

ونراه على لسان تحتمس الثالث يقول:

«الموت لا مفر منه، ولأَنْ يموت الإنسان وهو يبنى المجد خير من أن يهلك فى وباء أو بسبب لدغة ثعبان».

وفى موضع آخر يكسو نجيب محفوظ الفكرة نفسها معنى فلسفيا آخر وهو يتحدث عن ولع أمنحتب الثالث بالحب حتى قضى عليه حين تزوج مَنْ كانت فى سن حفيدته، ونرى أمنحتب يعتذر فى محاكمته عن هذا التصرف أو السلوك فيقول:

- «الحق أنى سمعت عن جمالها الفائق، وكنت مجنونا بالجمال، ورغم الشيخوخة والمرض أفرطت فى الحب حتى قضى علىّ».

«فسأله الحكيم بتاح حتب:

- «أكانت تلك ذروة حكمة العمر؟

«فقال أمنحتب الثالث:

«ميتة الحب أفضل من ميتة المرض».

فكرة الدولــة

تعول المحاكمة فى كل فصولها التى يعقدها نجيب محفوظ أمام العرش على ضرورة قيام الملوك والحكام بدورهم فى صيانة استقلال الوطن وسلامة أراضيه، ويظهر هذا فى كل تقدير يناله أحد الزعماء، كما يظهر فى حقيقة أن أبرز الذين دخلوا الجحيم هم أولئك الملوك الستة الذين حكموا مددا قصيرة متناحرين، ومزقوا بتناحرهم أوصال الدولة المصرية حتى احتلها الهكسوس.. انظر إلى هذا الحكم الحاسم الذى يواجههم به نجيب محفوظ فيقول:

«لقد ارتكبتم فى حق وطنكم جريمة لا تغتفر، ولم يكن الضعف ذنبكم الوحيد، ولكن خلت قلوبكم من النبل والنوايا الطيبة».

❑

على أن نجيب محفوظ حريص على أن يعلى من أهمية فهم العلاقات الدولية وحدود التحرك المتاحة أمام كل حاكم، [وقد ذكرنا فى الفصل السابق مباشرة تنبهه إلى العنصر الذى ساعد نجاح ثورة ١٩٥٢ فى مقابل ثورة عرابى]، وهو يلجأ فى حديثه عن الحكام الفراعنة إلى الحديث عن علاقات النسب والمصاهرة التى ربطتهم بمعاصريهم من الحكام، وكأنما هو يقدم بهذا لحديثين مهمين يتوقعهما القارئ عن أسباب فشل تجربتى محمد على وجمال عبد الناصر، وهو يوجه على لسان الزعماء القدامى النقد الواضح لمحمد على الذى لم يكن حظه من الإدراك يوازى حظه من الذكاء:

قال تحتمس الثالث لمحمد علي:

«إنى أشهد لك بالعظمة، وعلى ضوء ذلك أفهم غرورك، وكان بودى أن أتسامح معك لولا النهاية السريعة الأسيفة التى آلت إليها إمبراطوريتك، وهذا يعنى أن إدراكك رغم ذكائك كان ناقصا، لم تدرك أبعاد الموقف الدولى جيدا فتحديته وأنت لا تدرى وعرضت نفسك لقوة لا قبل لك بها».

ـ «اعتقدت أن فرنسا ستقف إلى جانبى حتى النهاية».

«فقال الحكيم بتاح حتب:

«هذا أيضا لا يدفع عنك مظنة قصر النظر».

«فقال محمد على:

«كانت ثمة فرصة مواتية لتجديد دولة الإسلام من منطلق مصر الفتية».

«فقال إخناتون:

«إنى أدرك ذلك تماما وأحيى طموحك لإحياء دولة الواحد الأحد».

«فقال الملك خوفو:

«ليتك وضعت عبقريتك وأحلامك فى تقوية مصر وقنعت بذلك».

❑

ثم يظهر هذا النقد واضحاً وعميقاً لأخطاء جمال عبد الناصر فى حساباته الدولية:

«قال الملك تحتمس الثالث:

«على الرغم من نشأتك العسكرية فقد أثبت قدرة فائقة فى كثير من المجالات إلا العسكرية، بل إنك لم تكن قائدا ذا شأن بأى حال من الأحوال!».

«فقال جمال عبد الناصر:

«تعذر عليّ النصر على جيش متفوق فى التسليح ومؤيد بأقوى دولة على سطح الأرض!».

فقال أمنحتب وزير الملك زوسر:

«كان واجبك أن تتجنب الحرب وأن تكف عن استفزاز الدول الكبرى».

«فقال جمال عبد الناصر:

«كان ذلك يتناقض مع أهدافى، وقد خُدعت أكثر من مرة».

«قال الحكيم بتاح حتب:

«إنه عذر أقبح من الذنب».

❑

وترتبط بالفكرة السابقة فكرة مهمة تأتى متسقة مع تمجيد نجيب محفوظ لفكرة الاستقرار وهو ما يكرر نجيب محفوظ التعبير عنه أمام العرش، هذه الفكرة هى فكرة خطورة الثورات على الاستقرار والحياة المرنية.

ونحن نرى كاتب الآلهة وهو يصف حكام فترة الظلام الممتدة بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى فيقول:

«ولم يتركوا وراءهم أثراً يدل عليهم إلا المعابد المهدمة، والقبور المنهوبة، والذكريات المرعبة».

❑

كذلك يسجل نجيب محفوظ ما يحيق بالثوار من فشل بعد فترة من ممارستهم للحكم، وهم يعترفون بهذا الفشل حين يجيبون عن سؤال للملك زوسر عن سر تقوض مملكتهم فيقولون:

«.... تقوضت عندما نسى الحكام أصلهم الذى نبتوا فيه وتوهموا من جديد أنهم منحدرون من صلب «رع» فأصابهم الكبر، وتسلل إليهم الظلم، فحاق بهم ما حاق بكل ظالم».

❑

ولا يغفل نجيب محفوظ الحديث عن مفهوم المسلمين للدولة، وهو المفهوم المتأثر بالطبع بالعقيدة الإسلامية من ناحية، وبتاريخ دول الإسلام المتعاقبة من ناحية أخرى، وهو ينتبه إلى إبراز حقيقة نظرة المسلمين المصرية إلى الحكام، وسلبية دورهم فى اختيار حكامهم فى عهود الدولة الإسلامية حيث يقول:

«فأجاب على سندس:

«ما كان يهمنا كمسلمين إلا أن يحكمنا حاكم مسلم عادل، والعبد العادل خير من الأمير الظالم».

«فتساءل رمسيس الثانى:

«ومن أين لعبد أن يتفوق على أمير؟».

«فأجابه إخناتون:

«بفضل عبادة الإله الواحد، لقد دعوت فى حياتى للمساواة بين البشر فرميت بالجنون».

❑

ثم تقابل هذا المعنى مرة أخرى وهو يتكرر على لسان ابن قلاقس:

«المسلم لا يهمه الاستقلال، وما يريد إلا حاكما مسلما قويا عادلا، وقد وجدناه عند الفاطميين».

ويؤكد نجيب محفوظ على سيادة هذا المفهوم الإسلامى للدولة مرة ثالثة فيما يرويه «على بك الكبير» عن جوهر سياسته التى كان من الممكن أن تكون سياسة استقلالية:

«فقال على بك الكبير:

«كان العثمانيون يمارسون الظلم والفساد تحت شعار إسلام زائف، وهالنى ما يلقى أهل مصر من عذاب، فلم أجد من سبيل إلى إسعادهم فى ظل إسلام حقيقى إلا بالتحرر من ربقة العثمانية».

❑

وفى مقابل هذا كله نرى النزعة الوطنية المصرية ظاهرة بشكل بارز فى حوار الملك مينا مع عبد الناصر، وفيما قبل هذا فإن نجيب محفوظ حريص على أن يستنطق أحمد عرابى بما يدل على أنه لم يكن من ذوى التعصب الوطنى الضيق، ولكن وعيه للروح المصرية كان وعيا خصبا:

«فقال الملك مينا:

«لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشرية متنوعة اندمجت جميعها فى الوطن وأخلصت للعرش».

«فقال أحمد عرابى:

«لم أكافح إلا العناصر التى أبت الاندماج، والدليل على ذلك أن حزبى لم يخل من وطنيين من أصل شركسى».

فكرة الأمـن القومى

يبدى نجيب محفوظ إيمانا عميقا بفكرة الصراع الحضارى، وأن المستوى الحضارى هو العنصر الحاسم فى حروب العصر الحديث على سبيل المثال، ويدفعه هذا الإيمان إلى الدعوة إلى إعادة التفكير فى موقف صدام حسين فى حرب الخليج، وهو يقدم لقرائه السبب الحقيقى لهزيمته على الرغم من قوته وحشوده، وهو يعتقد أن مصر فى عهد عبد الناصر قد أدركت حقيقة تأثر الجانب العسكرى بضعف التنمية، ومن ثم فإنه لم يندهش عندما عرف أن عبد الناصر كان لديه الاستعداد للتفاوض مع الإسرائيليين، بل إنه هو نفسه كان يدعو إلى هذا التفاوض، وهو فى مذكراته يعبر عن هذه المعانى بوضوح ويقول:

«نحن الآن فى عصر أساسه الحضارة، وإذا لم نكن على مستوى الحضارة الحديثة، فسوف نصبح مجرد ذكرى مثل الديناصورات، وعندما كنت أنادى بالتفاوض مع إسرائيل، كان ماثلا أمام عينى الفرق الهائل فى المستوى الحضارى والتقدم التكنولوجى بيننا وبينهم، والصراع لا تحسمه فقط القوة العسكرية والحشود الضخمة، بدليل أن صدام حسين كان لديه مليون جندى وأسلحة مرعبة تكفى لتدمير عدة دول لا دولة واحدة، ومع ذلك كان مصيره ما نعرف. وبعد النكسة كان من المفروض أن ننتبه إلى هذه النقطة: أن ضعف التنمية يؤثر على الجانب العسكرى والحضارى، لذلك لم أندهش عندما عرفت أن عبد الناصر نفسه كان لديه الاستعداد للتفاوض مع إسرائيل».

وتكاد آراء نجيب محفوظ فى شأن الأمن القومى تميل نحو العدوانية وتهمل النزعات الإنسانية، وهو يصرح فى مرات عديدة بما يدل على اعتقاده فى أهمية إقرار سياسات التوسع.

وينسب نجيب محفوظ إلى الملك زوسر فخره بأنه ابتكر سياسة أن الدفاع عن مصر يقتضى غزو القائمين وراء حدودها.

ويشير نجيب محفوظ إلى فخر أحمس بالروح التى أوجدها عند المصريين، وهو يعبر عن هذا المعنى بعبارات مفعمة بالحماسة وبعض الغطرسة:

- «وانتهى عهدى ومصر تستقبل جيلا جديدا من أبنائها يزهو بالبطولة، ويحلم بالغزو، ويضطرم بروح الاقتحام».

«فقال «خوفو»:

- «تلك طبيعة جديدة».

«فقال «زوسر»:

- «وهى رائعة أيضا».

«فقال الحكيم «بتاح حتب»:

- «لعلها لا تخلو من شر».

فقال «سيكننرع»:

- «لا سبيل إلى حياة كريمة وسط متوحشين إلا بها».

❑

وفى محاكمة أمنحتب الأول يتكرر هذا الاختلاف المعبر عن تناقض الرؤيتين فيما نقرؤه من اختلاف فى وجهات النظر بين الحكيم بتاح والقائد أحمس:

«فقال أحمس:

«أحسنت بما فعلت كل الإحسان، فحدود مصر الجنوبية لا تأمن إلا بامتلاك النوبة، ومركز الدفاع عن حدودنا الشرقية يقع فى سوريا».

«فقال الحكيم بتاح حتب:

«هذا يعنى أن أمان مصر لا يوجد حقا إلا بخلق أعداء موتورين خارج حدودنا؟».

«فقال أحمس:

«علمتنى الحياة أنها صراع مستمر لا راحة فيه لإنسان، ومن يتهاون فى إعداد قوته يقدم ذاته فريسة سهلة لوحوش لا تعرف الرحمة».

❑

ونرى هذه المعانى وهى تتأصل أو تتجذر فى حوارات فى محاكمة تحتمس الثالث حيث نرى القائد أحمس فخورا به إلى حد أن يخاطبه بقوله:

«أشهد بأنك حققت أحلامنا جميعا، وحسبك أنك عرفت النصر عشرات المرات ولم تعرف الهزيمة مرة واحدة».

❑

وفى موضع رابع فى محاكمة الملك «نيخاو» نرى تحتمس الثالث يتكلم ويقول:

«كان يجب أن نعرف أن الأمم الفتية لا تقف أطماعها عند حد، وأن تعمل على إعداد شعبك للقتال».

ومع كل هذا فإن نجيب محفوظ لا يفتأ يوحى لنا بأهمية دور القوة العسكرية فى حفظ استقرار الدول، ونحن نرى أوزوريس يسأل الملك مينا لماذا لم يقنع قومه بالكلمة قبل اللجوء إلى القوة [وقد رمز نجيب محفوظ للثورة بالسيف بدلا من أن يبحث عن رمز فرعونى لها] فيجيبه مينا بقوله:

«فعلت ذلك مع جيرانى وانضم بعضهم دون قتال، ثم حقق السيف فى أعوام ما لم تكن تحققه الكلمة فى أجيال».

قيمة الإنجاز والنجاح

يبدو نجيب محفوظ متأثرا إلى حد الانبهار الكامل بالنجاح الذى حققه أنور السادات سياسياً وعسكرياً وهو لا يكف عن التعبير الواعى عن تقديره لقيمته، وبخاصة أنه تحقق فى ظروف صعبة، ونرى [فيما يرويه من محاكمة السادات أمام العرش] هذا النجاح وقد نال إعجاب أعظم حكام مصر السابقين بطريقة واضحة حتى مع حرص نجيب محفوظ على إيراد [أو سرد] كل الانتقادات الموجهة للسادات.

وهذا بعض من حوارات الحكام السابقين لأنور السادات:

«وتكلم الملك إخناتون فقال:

«أحييك كداعية من دعاة السلام، ولا أدهش لاتهام خصومك لك بالخيانة، فقد تلقيتُ منهم نفس التهمة لذات السبب».

«فقال تحتمس الثالث:

«يذكرنى انتصارك بانتصار رمسيس الثانى الذى كُلل بمعاهدة سلام، والزواج من ابنة ملك الحيثيين!».

«فقال رمسيس الثانى:

«الحاكم مسئول أولا عن حياة شعبه، ومن هذ المنطلق يقوم على الحرب أو يجنح إلى السلام».

«فقال أنور السادات:

«وقد آمنت بصدقق بعقم الاستمرار فى الحرب».

«وقال الملك أمنحتب الثالث:

«ما أشبهك بى أيها الرئيس فى حب الرفاهية لشعبك ولنفسك، كلانا عشق الأبهة والنعيم والعظمة والقصور، غير أن زمانى سمح لى بأن أنهل من النعيم بلا كدر،أما زمانك فأذاقك الحلو والمر، دعنى أعرب لك عن حبى وعطفى».

مفهوم الزعامة

نبدأ بأن نذكر أن نجيب محفوظ فى مذكراته التى سجلها الأستاذ رجاء النقاش يحرص على أن يعبر عن فكرة جريئة وذكية، وهى أن مصر ليست بحاجة الآن إلى الزعيم الجارف الشعبية، وهو يعبر عن هذا المعنى بوضوح شديد فيقول:

«ولا أبالغ عندما أقول إن مصر لا تحتاج الآن إلى زعيم من أمثال عبد الناصر أو سعد زغلول، لأن وجود مثل هذا الزعيم فى الظروف الراهنة يربك الأمور، ويعطل الديمقراطية، ذلك أن حب الناس له سوف يجعلهم يتغاضون عن أخطائه حتى لو كان من الأخطاء فرض أسلوب الرأى الواحد، ووضع المعارضين فى السجون. إن مصر بحاجة الآن إلى حاكم وطنى مستنير لديه إجابة علمية واضحة عن هذا السؤال: ما هو دور مصر فى هذا النظام العالمى الجديد؟!».

❑

وفيما رواه لرجاء النقاش لا يمل نجيب محفوظ من تأمل تجربة الزعيم سعد زغلول الناجحة والمؤثرة فى قيادة الشعب المصرى وثورته، وهو يناقش كثيرا من الأفكار التى حاولت التقليل من هذه الزعامة والحديث عن بعض ما يدينها بالباطل، وعلى سبيل المثال فإن نجيب محفوظ يقدم رؤية واعية تعبر عن فهمه لأهمية تمسك سعد برأيه (إلى حد الاستبداد) فى الفترة الأولى من الثورة، مستشهدا على صحة رأيه بسلوك سعد فى الفترة التالية حين أصبح أكثر ديمقراطية وقبولا للرأى والرأى الآخر، ودفاعه عن الكتاب الذين كانوا يتبنون وجهات نظر مخالفة للأغلبية الوفدية ومنهم الأستاذ عباس العقاد نفسه، وهو يقول فى هذا المعنى:

«وفى رأيى أن استبداد سعد زغلول كان مُبرّراً فى الفترة الأولى من الثورة، لأن الظروف كانت تحتمه. ففى ظل ثورة شعبية جارفة حمل فيها كل مصرى روحه على كفه، لم يكن هناك مجال لكثرة الجدل والاختلاف فى الرأى، ولكن هذا لا يمنع أنه فى فترة لاحقة كان سعد زغلول أكثر ديمقراطية وقبولا للحوار والرأى الآخر، خاصة عندما أصبح رئيسا لمجلس النواب فذات مرة عارضه أحمد ماهر عضو المجلس، وماهر من تلاميذ سعد، وما أن انتهت الجلسة حتى ذهب سعد إلى مكتبه واستدعى أحمد ماهر الذى دخل المكتب وهو يرتجف، لكنه فوجئ بأن سعد ينهض ويحتضنه ويقول له: «هكذا تكون المعارضة!».

«فى تلك المرحلة من حياته أصبح سعد زغلول واسع الصدر، حتى إن البعض اقترح فصل عباس محمود العقاد من حزب الوفد بسبب نقده لبعض مواقف سعد زغلول، فقال لهم سعد بالحرف الواحد: «سيبوه يقول اللى هو عايزه»، وكان يسميه «الكاتب الجبار».

❑

بل إن نجيب محفوظ يرى نجاح سعد زغلول فى تحقيق ما نسميه الآن «الوحدة الوطنية» بمثابة صورة من الدلائل على ديمقراطيته، وهو الاتجاه الذى سار على دربه خلفه مصطفى النحاس باشا:

«ومن دلائل ديمقراطية سعد أنه أغلق مسألة التعصب الدينى بين المسلمين والأقباط، لدرجة أن الناخبين قد يصوتون لصالح مرشح قبطى فى دائرة كلها من المسلمين، كما كانت اللجنة العليا للوفد تضم عددا كبيرا من الأقباط بعد خروج عدلى وصدقى ومحمد محمود، وأظن أن اللجنة أصبحت تضم ثلاثة أقباط من

مجموع خمسة هم كل أعضائها، وبذلك استطاع سعد زغلول أن يقضى على مسألة التعصب الدينى من جذورها، وسار النحاس على هذا المبدأ،حيث كانت الكفاءة والوطنية هما الفيصل عنده فى الحكم على الناس وليس الدين، لذلك يشعر الأقباط المصريون بالحنين إلى هذا العصر، إذ يعتبرونه العصر الذهبى لهم».

أما فى كتابه «أمام العرش» فتأتى آراء نجيب محفوظ فيما يتعلق بفهمه للزعامة فى غاية الوضوح فى حوار بين سعد زغلول وعبد الناصر يشارك فيه النحاس باشا وذلك على النحو التالى:

«وقال سعد زغلول مخاطباً جمال عبد الناصر:

«لقد حاولتَ أن تمحو اسمى من الوجود كما محوت اسم مصر، وقلت عنى إننى اعتليتُ الموجة الثورية عام ١٩١٩، فدعنى أحدثك عن معنى الزعامة، الزعامة هبة ربانية وغريزة شعبية، لا تلحق بإنسان مصادفة ، ولا كضربة حظ أعمى، والزعيم المصرى هو الذى يبايعه المصريون على اختلاف أديانهم وإلا لم يكن زعيما مصريا أبدا، وإن جاز أن يكون زعيما عربيا أو إسلاميا، بيد أننى رغم ذلك لم أضمر لك الرفض، واعتبرت تجنيك علىّ نزوة شباب يمكن التسامح معها نظير ما قدمتَ من خدمات جليلة، لقد قامت الثورة العرابية فناضلتْ نضالا كريما وأُحبطت إحباطا أليما، وقامت ثورة ١٩١٩ فحققت من المآثر ما شهد به التاريخ، ولكن تكاثر أعداؤها حتى اجتاحها حريق القاهرة، ثم جاءت ثورتك فتخلصت من الأعداء، وأتمت رسالة الثورتين السابقتين، وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكرى إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده، وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها، وأن تقيم حكم ديمقراطيا رشيدا، ولكن اندفاعك المضلل فى الطريق

الاستبدادى هو المسئول عن جميع ما حلّ بحكمك من سلبيات ونكبات».

«فقال جمال عبد الناصر:

- «كان يلزمنا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثورية».

«فقال مصطفى النحاس:

- «حجة دكتاتورية واهية طالما سمعناها من أعداء الأمة، كان بين يديك قاعدة وفدية شعبية انهلت عليها بدباباتك ، وعجزت عن إقامة بديل عنها فظلت البلاد تعانى الفراغ، ومددت يدك إلى المنبوذين من الأمة». [يشير نجيب محفوظ بهذا إلى مَنْ إستعانت بهم الثورة من أعداء الوفد الذين لم يحوزوا ثقة الناخبين فى أى مرحلة] فوقعت فى تناقض مؤسف بين عمل إصلاحى يعتبر فى روحه امتداداً لروح الوفد، وأسلوب حكم يعتبر امتدادا لحكم الملك والأقليات، حتى قضى أسلوب الحكم على جميع النوايا الطيبة!».

«فقال جمال عبد الناصر:

- «الديمقراطية الحقيقية كانت تعنى عندى تحرير المصرى من الاستعمار والاستغلال والفقر».

«فقال مصطفى النحاس:

- «وأغفلت الحرية وحقوق الإنسان، ولا أنكر أنك كنت أمانا للفقراء، ولكنك كنت وبالا على أهل الرأى والمثقفين وهم طليعة أبناء الأمة، انهلت عليهم اعتقالا وسجنا وشنقا وقتلا حتى أذللت كرامتهم، وأهنت إنسانيتهم، ومحقت إيجابيتهم، وخربت بناء شخصياتهم، والله وحده يعلم متى يعاد بناؤها، أولئك الذين جعلت منهم ثورة

١٩١٩ أهل المبادرة والإبداء فى شتى المناشط السياسية والاقتصادية والثقافية، بل أفسد الاستبداد عليك أجمل قراراتك، انظر كيف فسد التعليم، وتفسخ القطاع العام، وكيف قادك التحدى للقوى العالمية إلى الهزائم المخجلة، والخسائر الفادحة، ولم تفد من الرأى الآخر ولم تتعظ بتجربة محمد على، وماذا كانت النتيجة؟ دوى وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تل من الخرائب».

«فقال جمال عبد الناصر:

- «لقد نقلتُ وطنى من حال إلى حال، كما نقلتُ العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها، وسوف تُعالج السلبيات حتى تزول، وينساها الزمن ويبقى ما ينفع الناس، وعند ذاك يقر الناس بعظمتى الحقيقية».

«فقال مصطفى النحاس:

- «ليتك تواضعتَ فى طموحك، ليتك عكفت على إصلاح وطنك وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة. إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم. إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن، ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الإمبريالية العالمية، وأسفاه.. لقد ضيعت على الوطن فرصة لم تتح له من قبل، فلأول مرة يحكم ابن وطنى من أبناء البلاد دون مناوئ من ملك أو مستعمر، ولكنه بدلا من مداواة ابن وطنه المريض، دفع به إلى مباراة البطولة العالمية، وهو ينوء بأمراضه فكانت النتيجة أن خسر البطولة وخسر نفسه».

❑

ويتصل بهذا الحوار حوار آخر حافل بالدلالات بين النحاس والسادات يقول فيه نجيب محفوظ:

«وتكلم مصطفى النحاس فقال:

- «حاولتَ اغتيالى وكدت تنجح لولا العناية الإلهية، ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال، ترى ألا زلتَ تؤمن به؟».

«فقال أنور السادات:

- «نحتاج لأضعاف عمرنا كى نتعلم الحكمة».

«فقال مصطفى النحاس:

- «وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطية فدهشت، ثم تبين لى أنك تريد حكماً ديمقراطيا تمارس على رأسه سلطاتك الدكتاتورية!».

- «أردتُ ديمقراطية ترعى للقرية آدابها وللأبوة حقوقها».

- «هذه ديمقراطية قبلية».

«فقال سعد زغلول:

- «هذا حق، ولكن الديمقراطية الحقيقية تُؤخذ ولا تُمنح فلا تغال فى لومه».

«وقال مصطفى النحاس:

- «واشتدتْ الضائقة بالناس، وحدث ما يحدث عادة فى مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرف، فتركتَ الأمور تستفحلُ كأنك لا تبالى، ثم انفجرتَ بغتة فألقيتَ بالجميع فى السجون، فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصة».

«فقال أنور السادات:

- «وجدتُ أنه لا مفر من ضربة حاسمة اتقاء لفوضى توشك أن تجر البلاد إلى حرب أهلية».

«فقال سعد زغلول:

- «عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه يخلق منه خصما، وعند ذاك تُهدر قوة البلاد الأساسية فى صراع داخلى بدلا من أن تُوجه للعمل الصالح».

«وهنا قالت إيزيس:

- «بفضل هذا الابن رُدت الروح إلى الوطن، واستردت مصر استقلالها الكامل كما كان قبل الغزو الفارسى، وقد أخطأ كما أخطأ سواه، وأصاب أفضل مما أصاب كثيرون».

«فقال أوزوريس:

- «أرحب بك بين الخالدين من أبناء مصر، وسوف تمضى بعد ذلك إلى محكمتك الأخرى مؤيدا بتزكية مشرفة منا».

الزعامات حلقات متصلة

كان نجيب محفوظ يحرص دائما على إظهار تأكيده على ضرورة وأهمية احترام القيادات الوطنية لبعضها، مستشهدا على هذا بوقائع التاريخ الحديث:

◆ الواقعة الأولى هى إيمان مصطفى كامل ومحمد فريد بسعد زغلول قبل ظهور زعامته، وهو يعبر عن هذا المعنى فى مذكراته بعبارات جميلة يقول فيها:

«... ولكن المصلحة الوطنية كانت ترتفع بهم فوق هذه النزاعات الشخصية، وهكذا تكون أخلاق الزعماء. فعندما ذهب مصطفى كامل إلى انجلترا سألهم: لماذا تتعاملون مع الأتراك بشأن المسألة المصرية؟ أليست مصر دولة؟ فكان ردهم أن مصر ليس فيها مَنْ هو أهل للحكم! فرد مصطفى كامل وذكر لهم اثنين من الزعماء الوطنيين هما محمد فريد وسعد زغلول، وذلك رغم الخلاف الشديد الذى كان قائما بين مصطفى كامل وسعد زغلول فى ذلك الوقت. كما أن محمد فريد رشح سعد زغلول لتولى رئاسة الحزب الوطنى قبل الثورة، فعندما هرب محمد فريد إلى أوروبا أرسل له أنصاره يشكون من تفتت الحزب وتراجعه ومطاردات البوليس لأعضائه، فكان من بين اقتراحاته لحل مشاكل الحزب، التى بعث بها إلى أنصاره فى مصر، أن يفاوضوا سعد زغلول لتولى رئاسة الحزب، علما بأن محمد فريد فى قرارة نفسه كان يكره سعد زغلول، ويعارض الكثير من أفكاره وآرائه، وقد أشار فريد إلى ذلك صراحة فى مذكراته، وربما لو أن محمد فريد كان موجودا فى مصر لا فى المنفى وقت اندلاع ثورة ١٩١٩، لكان هناك احتمال كبير أن يكون من قادتها أو أن يكون هو الزعيم الذى يذهب نيابة عن الشعب إلى دار المندوب السامى البريطانى، حيث كان مؤهلا لذلك ولا تنقصه الوطنية أو الشجاعة».

◆ الواقعة الثانية التى يستشهد بها نجيب محفوظ على هذا المعنى هى إيمان سعد

زغلول بعبد الخالق ثروت وهو يعبر عن هذا المعنى بقوله:

«وكان سعد زغلول يرى أن ثروت أكثر قدرة على التفاهم مع الإنجليز، ولو عاش سعد شهورا أخرى فأعتقد أنه كان سيترك موضوع المفاوضات لثروت الذى كان يتمتع بالذكاء».

❑

وتحفل كتابات نجيب محفوظ بتعبيره عن مقارنته الذكية بين الزعيمن سعد زغلول ومصطفى النحاس، ومن أدق العبارات التى صاغ بها تصويره لهذه العلاقة قوله:

«.... الحقيقة التى لا تقبل الجدل هى أن سعد زغلول كان زعيما بمعنى الكلمة، وكان يمتلك شخصية متعددة الجوانب، فهو مثقف وأديب ومحام كبير وقانونى وسياسى وخبير وصاحب عقلية جبارة، وإذا قارناه بالنحاس نجد أن النحاس كان أقل فى مجموع مواهبه من سعد زغلول، ولكنه كان فى غاية النقاء والصفاء والوطنية والطيبة ونظافة اليد، وهو شديد الإخلاص لسعد زغلول، وهو مؤمن بمبادئه مثل إيمان السالكين فى الطرق الصوفية بشيوخهم. ورغم ولاء الناس الشديد لسعد زغلول، فإنه [أى النحاس] كان أصلب منه وأشجع وأكثر جرأة عندما يتعلق الأمر بالوطنية».

❑

وفى مذكراته يقارن نجيب محفوظ أيضا بين كل من الرئيس محمد نجيب والرئيس عبد الناصر:

«وقد لعب محمد نجيب دورا كبيرا فى تقريب الناس من الثورة والتفافهم حولها، بما كان يملكه من شخصية بسيطة ساحرة، تحمل فى طياتها نفس الطابع الشعبى الذى ميز شخصية مصطفى النحاس. فمن اللحظة الأولى التى تراه فيها تشعر بالزعامة، وذلك عكس جمال عبد الناصر الذى كان وجهه المتجهم لا يوحى لك بزعامته، لكنك لابد أن تتغاضى عن هذا التجهم عندما ترى أعماله وقراراته وتصرفاته العظيمة».

❑

كما يلتفت نجيب محفوظ إلى حقيقة الاختلاف بين موقف كل من الرئيس عبدالناصر والرئيس السادات من الجيش والشعب حين ينبه السادات عبد الناصر إلى حقيقة أنه لم يكن من الممكن له أن ينتصر بنفس الجيش الذى انتصر هو به، وذلك لأسباب تتعلق بحقيقة التعويل على الشعب والجيش.

قال عبد الناصر:

- «وما النصر الذى أحرزتَه إلا ثمرة استعدادى الطويل له!».

«فقال أنور السادات:

- «ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصارا، ولكنى أرجعت للشعب حريته وكرامته ثم قدته إلى نصر أكيد».

قال عبد الناصر:

«ثم نزلت عن كل شىء فى سبيل سلام مهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة».

«فقال أنور السادات:

«لقد ورثت عنك وطنا يترنح على هاوية الفناء، ولم يمد لى العرب يد عون صادقة، ووضح لى أنهم لا يرغبون فى موتنا كما لا يرغبون فى قوتنا كى نظل راكعين تحت رحمتهم، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى». «واستبدلت بعملاق طالما ساندنا عملاقا طالما ناصبنا العداء».

- «اتجهت إلى العملاق الذى بيده الحل، وصدقت الحوادث ظنونى!».

فكرة المسئولية التاريخية

كان نجيب محفوظ يجاهر برأيه فى مسئولية الرئيس عبد الناصر عن هزيمة ١٩٦٧، ولم يكن مرتاحا إلى محاولة الرئيس وأجهزته نفض أيديهم من الهزيمة وإلقاء المسئولية على عبد الحكيم عامر وصلاح نصر، وهو يعبر عن عدم اقتناعه بلجوء النظام إلى هذه الحيلة ويقول:

« ..... وهذا فى رأيى تبرير غير منطقى، ولا يعفى عبد الناصر من المسئولية الكاملة لسبب بسيط جدا، وهو أن عبد الناصر كان الحاكم بأمره فى مصر، والديكتاتور الذى يملك كل السلطات والصلاحيات، والزعيم الذى يأمر فيطاع. ثم أليس هو الذى وضع عبد الحكيم عامر على رأس الجيش؟ فكيف يعطى هذه المسئولية الخطيرة لشخص ليس أهلا لها، حتى ولو كان صديقه المقرب وأحد قيادات الضباط الأحرار؟ فمهما كان حبه له فإن هذا لا يعطيه مبررا كى يمنحه كل هذه الصلاحيات ويسند إليه مسئولية القوات المسلحة، تلك المسئولية الخطيرة التى تحتاج إلى كفاءة عسكرية وقيادية متميزة».

❑

وبنفس المنطق الواضح يتعامل نجيب محفوظ مع مسئولية عبد الناصر عن انحرافات (أخطاء) المخابرات، وهو يقدم مبرراته القوية فى هذا الصدد:

« ..... وبالنسبة لأخطاء المخابرات وممارسات صلاح نصر، فأنا أعتقد أن المسئولين عن هذا الجهاز ما كانوا ليقدموا على ما اقترفوه دون علم عبد الناصر، ولو كانوا يعرفون أن هذا الزعيم الرهيب الذى يملك كل شىء، يحترم حقوق

الإنسان، ويرفض تلك الممارسات، ما واتتهم الجرأة على القيام بجرائمهم اللاإنسانية .فما أتصوره هو أن هؤلاء كانوا مطمئنين لجانب عبد الناصر، وما كان بإمكانهم أن يجازفوا بأفعالهم تلك لو كان لديهم شك فى اعتراضه عليها. ويؤكد تصورى هذا أن عبد الناصر كان لديه جهازه الخاص الذى يقدم له تقارير مفصلة عن كل ما يجرى فى البلد، بما فى ذلك النكات التى يتبادلها المواطنون على المقاهى، ولاشك أن ما كان يجرى فى المخابرات وصل إلى علمه» .

❑

كذلك يحرص نجيب محفوظ، كما أشرنا فى أكثر من موضع، على أن يورد الانتقادات الموجهة إلى الرئيس السادات من أنه تهاون فى معاقبة المفسدين، وهو ينبه فى حوار من الحوارات إلى أن الدولة لا تقوم إلا على الانضباط والاخلاق، ويقول:

«وقال الملك حور محب:

«توليتَ الحكم فى ظروف تشبه فى بعض مناحيها الظروفَ التى تحدثنى أول حكمى عقب وفاة الملك العجوز آى، وأعترف بأنك قمت بأعمال جليلة، ووجهت ضربات صادقة، لكنك تهاونت فى معاقبة الفساد والمفسدين حتى أوشكوا أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم» .

«فقال أنور السادات:

«شُغلت بتشجيع العاملين عن الضرب على أيدى المفسدين» .

«فقال حور محب:

«لا قيام لدولة إلا على الانضباط والأخلاق» .

ونرى هذا المعنى واضحا أيضا فى الحوار بين الرئيسين عبد الناصر والسادات حيث يقول عبد الناصر:

«واندلقت فى الانفتاح حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد، وبقدر ما كان عهدى أمانا للفقراء، كان عهدك أمانا للأغنياء واللصوص».

«فقال أنور السادات:

«لقد عملتُ لخير مصر فوثب الانتهازيون من وراء ظهرى!».

❑

كذلك يجاهر نجيب محفوظ بمسئولية مصر عن فشل الوحدة مع سوريا ويصل بعد مناقشات طويلة فى مذكراته إلى أن يقول :

«ولكن الحقيقة المؤكدة أن المسئولية الكبرى فى فشل الوحدة تقع على عاتقنا، ذلك أننا صدّرنا إلى سوريا أخطاءنا فى تلك التجربة، ودخلنا فيها بدون تخطيط أو إعداد».

❑

وعلى نفس الخط يبدى نجيب محفوظ، فى مذكراته رأيه الواضح فى حرب اليمن من خلال رواية حوار دار بينه وبين أحد الضباط المصريين على أرض اليمن، ونراه حريصا على أن يذكر وقائع الحوار على نحو ما حدثت مشيرا بذكاء إلى عدم الانتفاع برأيه على الرغم من السماح له بإبدائه رأيه وتسجيله له فى ورقة بخط يده:

«.... طرح الضابط سؤاله علينا طالبا إبداء الرأى والمشورة بصفتنا من كبار الكتاب والمفكرين فى مصر، وتحدث يومئذ عدد كبير من المشاركين فى هذا

اللقاء، أذكر منهم صالح جودت والدكتور مهدى علام، وغلب التحفظ على آراء مَنْ تحدثوا، فطلبت الكلمة لأقول رأيى، وقلت بصراحة إن الحل الوحيد هو أن نفكر فى طريقة مشرفة للانسحاب من هذه الحرب، بعد أن نوفق بين القبائل المتناحرة ونخلق سلطة شرعية يمنية تحكم اليمنيين باختيارهم الحر. فطلب منى الضابط أن أكتب هذا الرأى بخط يدى، حتى يضمه إلى التقرير الذى سيرفعه يوسف السباعى إلى القيادة العليا فى مصر، ولمحت إشفاقا فى عيون بعض المشاركين فى اللقاء خوفا علىّ من هذا الرأى الصريح الذى قد يسبب لى متاعب كبيرة فى مصر، وأشهد أنه لم يحدث لى شيء مما توقعوه، وكانت معاملة المخابرات لى عند عودتى إلى مصر فى غاية الذوق والاحترام».

❑

وبذكاء ودهاء الروائى المتمرس ينتبه نجيب محفوظ إلى الرد على الذين لم يكفوا عن التلويح له بالمقال الذى نشره فى رثاء الرئيس عبد الناصر، ولكنه لا يذكر أنه يرد عليهم وإنما يفاجئ نجيب محفوظ هؤلاء بقوله إن نصف مقاله - فى الحقيقة - انتقادات لعهد عبدالناصر، وهو قول حق، مع أنه يمكن القول بأن الذى دفعه إلى إثبات هذا «النصف» المنتقد، فى الظاهر، هو لجوؤه إلى تكنيك الحوار.

وهو يقول فى هذا المعنى:

«لقد انتقدنى كثيرون ووجهوا إلىّ اللوم عندما كتبت مقالا فى جريدة «الأهرام» أرثى فيه عبد الناصر يوم وفاته مع علمى بأخطائه، وأقول لهؤلاء إنكم لو أمعنتم قليلا فى قراءة المقال، فستجدون أن نصفه انتقادات لعصر عبد الناصر ومعارضة لحكمه. ثم إن للموت جلاله ورهبته، وعندما يذهب إنسان للعزاء فى ميت لابد أن يذكر محاسنه وينسى سيئاته، حتى يبرد الحزن على الأقل، فماذا ينتظر منى هؤلاء

اللائمون؟ هل أقول للناس: «البقية فى حياتكم.. يلعن أبوه؟!»، ياسادة لا تحاسبوا الكتاب والمفكرين على أى فعل أو قول صدر منهم فى تلك الساعات العصيبة، لأن الموقف لم يكن يحتمل مثل هذا الحساب العسير».

وهذا هو نص المقال الذى كتبه نجيب محفوظ فى رثاء عبد الناصر .

- حياك الله يا أكرم ذاهب.

- حياكم الله وهداكم.

- إنى أحنى رأسى حبا وإجلالا.

- تحية متقبلة، ولكن لا تنس ما سبق من قولى «ارفع رأسك يا أخى».

- نحن من الحزن فى ذهول شامل.

- لا يحق الذهول لمن تحدق به الأخطار وتنتظره عظام الأمور.

- يعزينا بعض الشىء أنك فى جنة الخلد تمضى.

- وسيسعدنى أكثر أن تجعلوا من دنياكم جنة.

- إن عشرات التماثيل لن تجعلك فى خلود الذكرى.

- لا تنسوا تمثالين أقمتهما بيدى وهما «الميثاق» و «بيان ٣٠ مارس».

- وراءك فراغ لن يملأه فرد.

- ولكن يملؤه الشعب الذى حررته.

- سيبقى ذووك فى صميم الأفئدة.

- أبنائى هم الفلاحون والعمال والفقراء.

- وجدت قرة عينى فى توديع الكرة الأرضية لك.
- أما قرة عينى ففى استقلال الوطن العربى والحل العادل لأرضه.
- سيكون أحب الطرق إلى نفسى الطريق إلى مسجدك.
- طريقى الحق، هو الطريق إلى العلم والاشتراكية.
- نستودعك الله يا أكرم مَنْ ذهب.
- كلنا ماضون ومصر هى الباقية.

فكرة الديمقراطية

يؤكد نجيب محفوظ فى مذكراته على إيمانه بدور ثورة ١٩١٩ فى إيجاد وتنمية الديمقراطية،وهو يستخدم التعبير بأفعال «زرع» و «رعى»، ويعبر عن عقيدته فى أن التراث الديمقراطى أصبح مكونا جوهريا من مكونات الوجدان الشعبى على الرغم من إهمال هذا المكون طيلة الفترة من ١٩٥٢ ـ ١٩٦٧ :

« .... ولا أبالغ إذا قلت إن ثورة ١٩١٩ هى التى زرعت الديمقراطية فى مصر، ورعتها فصارت جزءا من تراثنا. وصحيح أن الشعب المصرى تغافل عن جزء من هذا التراث الديمقراطى بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ربما بسبب نجاحها، ولكنه عاد يفكر فى هذا التراث بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فالأمر الذى لاشك فيه أن الديمقراطية ثمرة من ثمار ثورة ١٩١٩».

❑

ويشير نجيب محفوظ إلى بعض الفوائد السياسية التى جنتها مصر من تراثها الديمقراطى فيقول:

« .... وهذه الديمقراطية منعت انتشار الفاشية فى مصر، على الرغم من أن الملك كان فاشستيا، وكانت السراى مليئة بالإيطاليين مثل «فيروتستى» و«بوللى».

❑

ويتناول نجيب محفوظ بوضوح شديد علاقة الديمقراطية بالنهضة (التنمية) فيقول:

«وعلى ذلك فالنهضة لا تتحقق بالديمقراطية فقط، كما أن الاستبداد لا يمنعها».

وفى الحوارات المتعددة التى يحفل بها كتاب «أمام العرش» يرتفع نجيب محفوظ بقيمة ثورة ١٩١٩ إلى حدود قصوى، وحين يظن أبنوم زعيم الثوار فى مصر القديمة أن ثورة ١٩١٩ تشبه ثورته، فإن الملك خوفو بجلال قدره يصحح وجهة النظر هذه ويقول:

«ثمة فارق بين الثورتين يجب أن يذكر، وهو أن ثورة أبنوم كانت ثورة العامة على الصفوة، أما ثورة سعد زغلول فكانت ثورة شعب مصر كله فقراء وأغنياء على الاحتلال الأجنبى».

❑

بل إن الملك مينا هو الآخر يرى فى سعد زغلول، خليفة له وصديقا ويقول:

«لقد وحدتَ المصريين كما وحدتُ أنا مملكتهم، فأنت فى ذلك صديقى وخليفتى».

❑

كذلك فإن رئيس المحكمة نفسه «أوزوريس» يتدخل بنفسه فى المناقشة ليقول لسعد زغلول:

«إنك أول مصرى يتولى الحكم منذ العهد الفرعونى، وتوليته بإرادة الشعب، من أجل ذلك أهبك حق الجلوس بين الخالدين من أجدادك حتى تنتهى المحاكمة، ثم تمضى بسلام إلى محكمتك مصحوبا بتزكيتنا وصادق أمانينا»

وقبل هذا فإن عضو اليمين «إيزيس» تبلور عاطفة الأمومة تجاه سعد زغلول فى عبارة خالدة:

«لتبارك الآلهة هذا الابن العظيم البار الذى برهن على أن شعب مصر قوة لا تقهر ولا تموت».

❑

ويتبنى نجيب محفوظ وجهة نظر ذكية فى الرد على الذين زعموا أن الثورة المصرية اشتعلت فى غياب سعد، ويستنطق نجيب محفوظ أبنوم زعيم ثوار مصر القديمة بالقول الحق فى فضل سعد زغلول على الثورة المصرية فى ١٩١٩ حيث يقول:

«فقال أبنوم:

ـ «الموقف الخطير يتطلب عادة سلوكا معينا، والزعيم القادر هو مَنْ يستطيع أن يكون القدوة لهذا السلوك، وقد كان الموقف يحتاج إلى التضحية، فهى أقصى ما يستطيع شعب أعزل أن يقدمه حيال قوة قاهرة، ولما تحدى سعد العدو واضطره إلى نفيه أعطى هذه القدوة المطلوبة ففعل الشعب مثله وقامت الثورة، وما يشهد لسعد بالعظمة أنه أقبل على التضحية وهو يائس من ثورة تحميه أو تدافع عنه فكانت تضحيته كاملة، شجاعة نبيلة لا أمل لها فى أى نوع من النجاة، ولو كان يأمل فى ثورة لقلل ذلك درجة من ضخامة تضحيته».

❑

كذلك يجيد نجيب محفوظ عرض وجهة نظر سعد زغلول فى الدفاع عما اتهم به من تعصبه لزعامته فيقول على لسان سعد زغلول:

«المسألة أننى اندمجت فى الثورة وآمنتُ بها ووجدتُ فيها ضالتى التى كنتُ أبحث عنها طوال حياتى، أما العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول

الزائفة، كانوا ذوى مال وخبرة وحنكة، ولكن وطنيتهم لم تكن خالصة كما كان إيمانهم بالشعب معدوما».

....

هنا لابد أن أتحفظ وأذكر أنه يبدو لى أن نجيب محفوظ قد غلّب انطباعاته الشخصية المباشرة فى تعامله مع هؤلاء الزعماء، وصيغ بها الحوار الوارد على لسان سعد زغلول، وذلك فيما يتعلق بوطنيتهم وبإيمانهم بالشعب، على أننا ، لحسن الحظ، نرى نجيب محفوظ نفسه فى مرحلة تالية، هى المرحلة التى أملى فيها مذكراته، وقد حرص على تسجيل رأيه المنصف فى وطنية الأحرار الدستوريين على الرغم من انتمائه الوفدى وإعلائه لراية الوفد، وهو يقول فى هذا المعنى:

«.... والمنصف لا يستطيع أن ينفى عن «الأحرار الدستوريين» صفة الوطنية، فقد كانوا يريدون مصلحة مصر ولاشك، ولكن من وجهة نظرهم القائمة على أساس أن العنف لا يفيد، بدليل ثورة أحمد عرابى، وهى وجهة نظر فيها شىء من الصواب».

❑

ويتواصل تعبير نجيب محفوظ عن إعجابه ومحبته لثورة ١٩١٩ ، وللمناخ الذى أوجدته، وللانجازات التى حققتها، ونرى نجيب محفوظ فى محاكمة مصطفى النحاس وقد اختار رمز الإيمان فى مصر القديمة وهو الملك إخناتون ليخاطب النحاس بما يتضمن أنه يجد فيه وفى سلوكه صورة من نفسه وهو يخاطبه بقوله:

«تقبل حبى أيها الزعيم، إنك مثلى تفانياً فى الإيمان بالإله الواحد، والإخلاص للمبادئ الطاهرة، مثلى أيضا فى حب البسطاء من الشعب والاختلاط بهم دون

حاجز من التعالى أو الكبرياء، ومثلى تعرضت لعداوة الأوغاد، وعباد السلطة، وأسرى الأنانية حيا وميتا، ومثلى أخيرا فيما حظيت به من نشوة النصر، وما ابتليت به من الجحود والهزيمة، ولكن أبشر فالنصر فى النهاية لنا».

بل إن أوزوريس رئيس المحكمة **يختص النحاس** بقوله: **«إنه يشفعه بأكرم تزكية»**.

وحتى نفهم قيمة هذا اللفظ ومدى سمو معناه، لابد أن نتأمل ما فاه به أوزوريس فى مواجهة الزعماء الآخرين، فهو يقول **لعبد الناصر: «بتزكية مناسبة»**، وللسادات: **«بتزكية مشرفة»**، و لسعد زغلول: **«بتزكيتنا وصادق أمانينا»**.

❑

والواقع أن الحديث عن موقف نجيب محفوظ من تجربة مصر الديمقراطية لا يمكن أن يكتمل من دون الإشارة إلى انزعاجه من التصوير السياسى الذى تعمدت أقلام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أن تقدم به ثورة ١٩١٩ ، ونحن نراه أشجع ما يكون وهو يصف هذا السلوك بأنه مأجور وزائف وكاذب، ومن المهم أن نطلع القارئ فى هذا المقام على عبارة وردت فى كتابه «يوم قُتل الزعيم» ومع أننا سنتناولها فى الباب الرابع بالتفصيل إلا أنه لا يمكن لنا أن نتجاوز الإشارة إلى نصها ونحن فى هذا الفصل، فى تلك الرواية يقول نجيب محفوظ على لسان أحد الأبطال:

....

«.... يتحدثون عن الثورة [أى ثورة ١٩١٩] بلا معرفة.. لم يسمعوا عنها.. حكى لهم الراوى المأجور حكاية زائفة كاذبة. يبدأ المدرس المغلوب على أمره

درسه بالسؤال الخائن «لماذا فشلت ثورة ١٩١٩ ؟» يا أبناء الأبالسة.. ألا توجد قطرة حياء؟ يا زبانية المعتقلات وعباد نيرون».

....

وهذا كما نرى نموذج حىّ للتعبير المباشر الذى ما فتئ نجيب محفوظ يحقنه بخفة ومهارة فى وريد أعماله الروائية مقدما به الحقيقة الحية إلى مَنْ يستحقون الإحاطة والاستمتاع بآرائه السياسية، فيما يتعلق بالثورتين، وما بينهما.

وفى سياق هذا كله فإن نجيب محفوظ يركز انتقاده لثورة يوليو على عنصر غياب الديمقراطية:

«لم تكن انتقاداتى لثورة يوليو فى أى من كتاباتى موجهة ضد النظام، بل كنت أنقد غياب الديمقراطية فى هذا النظام، ولم تكن الديمقراطية من المحرمات، بل هى المبدأ السادس من مبادئ الثورة، والتى أعلنت الثورة أنها تسعى لتحقيقه».

❑

وبالإضافة إلى هذا، أو فى مقابلة معه، يؤكد نجيب محفوظ على موقفه المناهض للملكية والنظام الملكى على طول الخط:

«لابد أن أعترف أننى لم أكن مخلصا للنظام الملكى ولم أكن أطيقه، حتى أننى عندما كتبت رواياتى الأولى، خاصة «عبث الأقدار» و«رادوبيس»، تطورت الأحداث فى الروايتين للتعبير عن هذا الرأى وتأكيده».

فكرة المواطنة

كان نجيب محفوظ - على نحو ما عبر فى مواضع عديدة من مذكراته - يؤمن بأن على المواطن أن يؤدى دوره السياسى كمواطن صالح يحرص على واجباته السياسية وحقوقه السياسية بنفس القدر، ولهذا فإننا نراه يروى أنه هو نفسه كان مواظبا على الإدلاء بصوته فى الانتخابات وإن لم ينتم إلى تنظيمات الحزب، وهو فى مذكراته يقول فى هذا المعنى:

«من أجل الأدب ابتعدت عن العمل السياسى، فلم أنضم إلى حزب أو تنظيم سياسى لا قبل الثورة ولا بعدها. لقد كنتُ من أنصار حزب الوفد، بل من عشاقه، ولا يقل ولائى له عن ولاء أى زعيم من زعمائه، كما لم تجر أى انتخابات برلمانية إلا واشتركتُ فيها بصوتى لصالح الوفد، كما لم تقم مظاهرة مؤيدة له وأتيحت لى الفرصة للمشاركة فيها وأنا شاب إلا وفعلت ذلك، ومع هذا كله لم أنضم إلى لجنة من لجان الحزب، ولم تكن هناك أى صلة رسمية تربطنى به، حتى الدكتور محمد مندور وعزيز فهمى، وهما من كبار كتّاب الوفد، فقد عرفتهما عن طريق الأدب لا عن طريق السياسة».

❑

لكل هذه الأسباب التى كونت عقيدة نجيب محفوظ السياسية وفكره فإننا نراه يأسف أشد الأسف لما أصاب أصحاب الآراء الفنية (من التكنوقراطيين) على يد الثورة من أذى بسبب آرائهم ، وهو يجاهر بانتقاداته حتى على الرغم من أن هذه المجاهرة لا تجلب له إلا المتاعب من بعض الذين لا يزالون، عن حسن نية فى الغالب، يظنون أن أى نقد يوجه لتصرفات عصر الثورة لا يصدر إلا عن عملاء

للإمبريالية أو الرجعية!! ومن المؤسف أن مثل هذه الآراء التى يبديها نجيب محفوظ لا تزال تحظى بمثل هذا الهجوم عليه وعليها، ولا يقدرها إلا مَنْ كان متوقعا أن يتبنوها ممن أوذوا بسبب آرائهم، وفى هذا الصدد يقول نجيب محفوظ:

«.... وأحيانا كانت الثورة تلقى بالوطنيين المخلصين فى المعتقلات لمجرد إبدائهم رأيا أو نصيحة، مثلما حدث للدمرداش أحمد، وكان وكيلا لوزارة الصحة وعضوا بالاتحاد الاشتراكى، وكل ما فعله أنه نبه إلى خطر بحيرة السد، وكيف أنها من الممكن أن تتسبب فى انتشار البلهارسيا فى صعيد مصر، ومن ثم يكون واجبنا أن نلتفت إلى هذا الخطر، ونعمل على مقاومته، والوقاية منه قبل ظهوره واستفحال أمره. وكان مصيرُ الرجل أن ألقى فى غياهب المعتقل لمدة عامين، تعرض خلالهما للذل والهوان، وخرج بعدهما كارها للدنيا. وقد عرفته بعد خروجه من السجن عندما أصبح من رواد جلسة توفيق الحكيم فى مقهى بترو، وتألمت كثيرا لما جرى له».

❑

وفى هذا الإطار يدين نجيب محفوظ قادة الثورة بسبب قرارهم بإعدام العاملين «خميس» و«البقرى» عقب أحداث المظاهرات العمالية فى كفر الدوار فى بداية عهد الثورة، ويجاهر نجيب محفوظ باعتقاده أن ما فعلته الثورة فى هذين المواطنين لم يكن إلا جريمة قتل وهو يقول:

«فلم يتم إعدامهما بسبب ذنب اقترفاه ويستحقان عليه الإعدام، بل كان إعدامهما لمجرد تخويف الآخرين، وإرهاب كل مَنْ تسول له نفسه أو يقوم بمظاهرات احتجاج من أى نوع، فكانا هما كبش الفداء.

«وأرى أن إعدام خميس والبقرى هو جريمة قتل ارتكبتها الثورة فى حق اثنين من الأبرياء».

فكرة الحزبية

من المهم أن نذكر أن نجيب محفوظ كان ضد القولبة والتقولب، سواء فى الأدب والنقد والفكر، وقد عبر عن هذا المعنى فى أدبه، كما عبر عنه فى مذكراته حيث يقارن بين موقفه من المذاهب الجديدة وموقف توفيق الحكيم، ونستطيع أن نضيف إلى ما ذكره نجيب محفوظ حقيقة مهمة، وهى أن نجيب محفوظ كان فى المقابل يعنى بالتجاوب مع «التقنيات الجديدة» على نحو ما نعرف من استخدامه لهذه التقنيات وتجديده فى هذا الاستخدام، وهكذا فإنه بدلا من أن يشغل نفسه بالتجاوب مع **المذاهب** شغل نفسه بالتجاوب والتفاعل مع **التقنيات** فى مذكراته وهو يقول فى هذا المعنى:

«.... والحقيقة أن المذاهب الأدبية لا تجذبنى لذاتها، ويظل المذهب الفنى بالنسبة لى مجرد أداة، وليس هدفا فى ذاته، مثلما حدث مع توفيق الحكيم. ففى أوقات كثيرة كان الحكيم يتجاوب مع المذاهب الفنية لذاتها، فعندما كان التيار الماركسى له سطوة ونفوذ فى الأوساط النقدية كتب «الصفقة»، ولما ازدهر تيار «اللامعقول» فى أوروبا ومصر كتب «ياطالع الشجرة»، وفى مرحلة ازدهار الدعوة للفرعونية كتب «إيزيس»، ولما بدأت الفكرة الإسلامية تظهر وتؤثر كتب عددا من الأعمال فى هذا المجال، منها كتابه المعروف «محمد»، وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان التيار النقدى السائد متجاوبا مع المذهب الأدبى الذى يميل إليه، وإن كنت أعتقد أن الحكيم كان لديه إحساس داخلى - وهو فيه على حق - بأنه رائد، ومن واجبه أن يعطى نماذج للأجيال الأدبية الناشئة عن كل مذهب أدبى جديد يظهر فى الآداب العالمية».

ومع كل هذا الحرص على إظهار البعد عن التخرب يعبر نجيب محفوظ فى مواضع كثيرة عن إيمانه بالوفد وانتباهه إلى خطورة (ثم خطأ) الانشقاق عليه، وهو يعبر عن موقف النقد الذاتى الذى اتخذه تجاه تحمسه المبكر للسعديين (أحمد ماهر والنقراشى)، وعودته إلى الوفد عندما اكتشف الحقيقة، وأمنيته لو أن زعيمى الانشقاق قد عادا أيضا إلى التيار الرئيسى للأمة:

«ومن فرط حبى لماهر والنقراشى انضممت للسعديين وتركت الوفد، واعتبرت أن الحزب الجديد هو الممثل الحقيقى للوفد، وأنه يسير على مبادئ سعد زغلول».

....

«تحمست فى البداية للسعديين، ولكن الحماس بدأ يضعف ويفتر عندما اكتشفت خضوعهم التام للملك، وأنهم لم يحافظوا على مبادئ الوفد العظيمة، وعندما أعود الآن لهذه الأحداث أرى أن ماهر والنقراشى قد أخطأ، وكان من الواجب أن يبقى خلافهما مع النحاس محصورا داخل الحزب، وكان ينبغى لهما أن يدركا ببعد بصيرتهما أن المستفيد الأول من انشقاق الوفد هو الملك والإنجليز، وكان يجب ألا تأخذهما العزة بالإثم ويشقا صفوف الحزب فى تلك الظروف».

❑

كان نجيب محفوظ يعقد آمالا كبيرة على حكومة الوفد الأخيرة (١٩٥٠ - ١٩٥٢)، ويرى أنه كان بوسعها أن تحقق نهضة اجتماعية متميزة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو يعبر عن هذا المعنى فى مذكراته بوضوح تام فيقول:

«ولو استمرت حكومة الوفد فى السلطة خمس سنوات كما كان مقررا لتغير تاريخ مصر، لأن القضية الوطنية كانت على وشك الانتهاء بالحصول على الاستقلال،

وبدأت حركة الإصلاح الاجتماعى تؤتى ثمارها، وبدأ الناس فى التجاوب معها، وكانت التجربة الديمقراطية تسير فى طريقها، وكان من المحتمل - فى الانتخابات التالية - أن تدخل قوى جديدة إلى الساحة، وتسحب الأغلبية من الوفد، ولكن تدخل الملك وتزييف الحياة الديمقراطية عجل بنهاية الملكية».

❑

ولنجيب محفوظ نظريتان فى نهاية الوفد:

● النظرية الأولى يقول فيها:

«فى اعتقادى أن حزب الوفد انتهى عام ١٩٣٦ .. لماذا؟! لأن الوفد قام من أجل تحقيق هدف واحد هو الاستقلال، فأصبح مثل المحامى تنتهى مهمته بانتهاء القضية الموكلة إليه، سواء كسبها أو خسرها أو توصل فيها إلى حل وسط بين الخصوم، والوفد انتهت مهمته عام ١٩٣٦ بتوقيع المعاهدة».

● وأما النظرية الثانية فيواصل فيها التعبير عن رأيه الأول مع إضافة جديدة ينسب فيها إلى غباء الملك فاروق السبب فى إيجاد وظيفة جديدة للوفد:

«قلت إن حزب الوفد انتهى دوره الرسمى ورسالته الأولى عام ١٩٣٦ بتوقيع المعاهدة، ومن غباء الملك أنه أوجد للوفد وظيفة جديدة ورسالة إضافية، هى حماية الديمقراطية، فتحول الوفد إلى حامى حمى الديمقراطية، بعض الوفديين المتعصبين قالوا: «إن الشعب مات بموت الوفد»، وقد عبرت عن هذا الرأى على لسان رأفت أمين أحد شخصيات رواية «ميرامار».

ينبهنا نجيب محفوظ فى مرحلة مبكرة من «أمام العرش» إلى أنه لم يكن من السهل دعوة الناس إلى الإيمان بالتوحيد، ونرى فى هذا التنبيه صورة من صور إيمان نجيب محفوظ بمدى الصعوبة فى العمل على تغيير أى عقيدة مهما كانت، ونحن نرى هذا المعنى واضحا فى حديث أمنحتب لإخناتون حيث يواجهه بقوله:

«لقد كنا نحدس قوة إلهية واحدة تربض وراء آمون ورع وبتاح وسائر الآلهة، لكنا لمسنا تعلق الناس بالرموز المجسدة يلتفون حولها فى كل إقليم يستمدون منها القوة والعزاء، فتركنا الأمور تجرى مع ما جرت عليه رحمة بالقلوب المؤمنة، وحفاظا لها من الضياع».

❑

بل يصل نجيب محفوظ إلى الحرص على تسجيل المفارقة بين الإيمان والنجاح، ونرى هذا التفريق واضحا فى عرضه لكثير من تفصيلات قصة إخناتون:

«فلم يعرف ملك حياة أسمى من حياتى، ولا مُنى بنهاية أتعس من نهايتى».

كما نراه واضحا فى تعليق السابقين عليه، فهذا هو أبنوم يقول له:

ـ «لقد ضيعت رسالتك بسذاجتك وليس رجل الخير إلا مقاتلا!».

وكذلك يخاطبه تحتمس الثالث فيقول:

ـ «طبيعى أن تضيع الإمبراطورية نتيجة لهذا الأسلوب من التفكير، ما أنت إلا مجنون!».

هكذا يبدو نجيب محفوظ وكأنه يريد أن ينادى فى هدوء بفكرة فصل الدين عن الدولة.

ونحن نرى أو نقرأ مثل هذا المعنى على لسان مينا الذى هو بطبعه (كما تصوره الرواية) عدو للفكر:

«ولكن سوء الحظ سلط علينا عدوا اسمه الأفكار فغزانا من الداخل وعبث بمجدنا أيما عبث».

وكأنما يريد نجيب محفوظ أن يستنطق مينا بفكرة قريبة من القول بأن الدين أفيون الشعوب.

❑

وعلى نفس النمط يتمثل هذا المعنى بصورة بارزة فى النقد الذى يواجهه الزعيم أحمد عرابى على لسان إخناتون نفسه [الذى هو رمز النوايا الطيبة]:

- «إنك رجل طيب القلب جرت عليك النهاية المقدرة للقلوب الطيبة».

وقال الحكيم بتاح محب:

- «هكذا ثرت من أجل حرية الشعب فجررت عليه احتلالا أجنبيا».

❑

ومع هذا كله أو بالرغم من هذا كله فإن نجيب محفوظ حريص تماماً على أن يشير إلى أن النجاح قد يأتى كجزاء على النوايا الحسنة وهو ما يأتى ضمن رواية أمنمحتب الثالث لقصة حياته وفترة حكمه حيث يقول ضمن مونولوج طويل:

«... ونصحنى بعض المستشارين بألا أغدق الخير على شعبى أن يتمرد ويطغى، ولكن القلب لا يستجيب فى المعاملة إلا إلى إلهامه الذاتى، وقد وجدت

قلبى يحثنى على حب الناس وفعل الخير فلم أتردد فى إطاعته ولم أندم على ذلك أبدا».

ولهذا السبب نرى إيزيس وهى تقول فى نهاية محاكمته:

«هذا الابن الطيب العظيم تتفتح له أبواب السماء بلا دفاع».

ويتصل بهذا المعنى ما يشير إليه نجيب محفوظ من خوف المفكرين من بطش الحكام على نحو ما يعرضه حوار الثائر أبنوم مع «الشهاب الخفاجى»:

- «وماذا قلت عن المماليك؟».

- «ما كان فى وسعى أن أعرض رقبتى لسيوفهم!».

❑

بل إن نجيب محفوظ يكاد يدلنا على لسان إحدى الملكات على حقيقة الدور الذى تلعبه «المرأة» فى تمحيص معادن الرجال:

«فقالت الملكة نفرتيتى:

«لقد خلق الإله الواحد النساء ليكشفن معادن الرجال، الثمين منها والخسيس».

❑

وفى هذا الإطار يأتى حديث نجيب محفوظ عن تفاوت الالتزام بالشريعة الإسلامية عند الحكام المسلمين. وهو يروى على سبيل المثال تصرفات أحد هؤلاء ونقد الحكيم بتاح حتب لها الذى بلوره فى قوله:

«الدين إسلامى، والحكم رومانى».

وفى موضع آخر تتحدث الرواية عن نجاح الحكام المسلمين فى تصحيح الأخطاء التى تقع من بعضهم:

«لقد كان قائد الجيش حيان بن شريح يطالب الداخلين فى الإسلام بالجزية، ولما بلغ ذلك الخليفة أمره برفعها، كما أمر بضربه عشرين سوطا، وقال له إن الله بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا».

❑

كذلك يحرص نجيب محفوظ على أن يظهر سماحة الإسلام كما تجلت فى حكم أحمد بن طولون فيما يرويه كاتب سره موسى:

«لقد كان اختياره لى دليلا على إيمانه بالمساواة بين الطوائف، فاعتنقت إيمانه بالمساواة، وحتى عندما رشحتُ له المهندسين المسيحيين لبناء الحصون والمساجد كنت متحريا الدقة بلا تحيز، والحاكم العادل يستخرج من طوايا معاونيه خير ما فيها بما هو قدوة لهم».

«وسأله الحكيم أمنحتب وزير زوسر:

«وكيف جرت العلاقات بين الطوائف؟».

«على خير ما يكون، وكما ينبغى لها أن تجرى فى ظل حاكم عادل. فى عهده أصبحت مصر شعبا واحدا ذا أديان ثلاثة، وكان الإسلام قد أخذ ينتشر ويكثر عدد معتنقيه».

أسرة الملك والحاشية

يتطرق نجيب محفوظ فى محاكمة الزعماء إلى قضايا فرعية كثيرة لا تقف عند حدود السياسة وإنما تتعداها لتشمل الحياة الشخصية للزعماء والملوك وهو يطرح على سبيل المثال أسئلة من قبيل السؤال القائل: **هل من حق الأجنبيات أن يكن ملكات لمصر؟**

ويبدو هذا السؤال وكأنه كان مما يؤرق بال نجيب محفوظ، فنراه على لسان الملكة حتشبسوت ينتقد زواج تحتمس الرابع من ابنة ملك أجنبى، وتعبر هذه الملكة عن هذا الانتقاد لهذه الخطوة بأن تصفها بأنها خطوة تشى بشىء من الضعف، بينما نرى تحتمس يدافع باعتبارها سياسة حكيمة، ولكن الملك خوفو يقول:

- «اختيار ملكة من الخارج أمر لا يخلو من الخطورة!».

فقال الحكيم بتاح حتب:

- «أوافق الملك على أنها سياسة حكيمة».

«فقال تحتمس الرابع:

- «وفضلا عن ذلك فالحريم الملكى لا يخلو أبدا من نساء الأمم».

❑

ويرتبط بالمفهوم السابق تأمل نجيب محفوظ للفكرة المرتبطة بقدرة الحكام على أن يستعينوا بمن حولهم، سواء بزوجاتهم أو وزرائهم وكتابهم، ونحن نرى نجيب محفوظ حريصا على إظهار قيمة الملكات فى التاريخ القديم، وهو يشير بكل وضوح إلى حقيقة وطبيعة مشاركة الملكة تى للحكم مع زوجها الملك أمنحتب الثالث:

«فقالت الملكة حتشبسوت:

- «سرتنى شهادتك للملكة بالجدارة، فهى شهادة للمرأة وفيها رد بليغ على أعدائها».

«فقال أمنحتب الثالث:

- «تى ملكة عظيمة بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء».

❑

ويعرض لنا نجيب محفوظ بعض ملامح حكمة الملكة تى فى معاملة الملك بحصافة ومن دون الوقوع فى مخاطرة الغيرة الأنثوية:

- «أما عن ولع زوجى بالنساء فقد كان لكل فرعون حريمه، ولم تطمح زوجة إلى الاستئثار بالملك، بل لم أجد بأسا فى انتقاء الجميلات له حتى تصفو نفسه وينهض بأمانته على خير وجه، قاهرة بقوة إرادتى غَيْرة المرأة الطبيعية، مقنعة نفسى بأن الملكة ليست امرأة عادية وأنها مسئولة عن سياسته!».

ولهذا شهدت لها عضو اليمين «إيزيس» فقالت:

- «أثبتت هذه السيدة جدارة المرأة بالحكم أكثر من حتشبسوت نفسها، وكان زوجها ملكا عظيما، وهيهات أن ينقص من قدره ولعه بالنساء ولذة العيش».

❑

ومن ناحية أخرى نرى نجيب محفوظ وهو يلتمس العذر لنفرتيتى فى هجرها زوجها إخناتون:

«وعند ذاك سألتها الملكة حتشبسوت:

- «إذاً لماذا هجرت زوجك فى قمة الأزمة؟».

«فأجابت نفرتيتى:

- «لم يداخلنى شك فيه، ولكننى توهمت أننى بهجره قد أنقذه من القتل».

❑

وفى موضع ثالث يطلعنا «حور محب» على سر اختياره لزوجه العجوز فينطق الملك بقوله:

«وقد تزوجت من «موت نجمت» أخت نفرتيتى لأنها كانت من أوائل من كفر بإخناتون ورأت الانضمام إلى الكهنة لإنقاذ البلاد».

كذلك يشير نجيب محفوظ إلى حرص رمسيس الثانى على إظهار احترامه ومودته لزوجته نفرتارى على الرغم من علاقاته النسائية الواسعة الممتدة.

❑

أما تعبير نجيب محفوظ عن قيمة وحقيقة الدور الذى يلعبه الوزراء والقادة فى مساعدة الملوك فنراها جلية واضحة منذ الفصل الثانى حيث نرى زوسر مصحوبا فى المحاكمة بوزيره العظيم أمحتب، ويتكرر هذا النمط بعد ذلك مع شخصيات أخرى.

وفى الفصل الرابع نرى وزيرا يَمْثُل بمفرده أمام المحكمة وهو الحكيم بتاح حتب صاحب الوصايا المشهورة.

ونرى أحمس نفسه (فى الفصل الثانى عشر) يشيد بدور القائد أحمس بن إبانا أحد أبناء الشعب.

والواقع أن نجيب محفوظ يؤكد فى مذكراته على أهمية فكرة الاستعانة بالتكنوقراطيين من أجل النجاح فى الحكم، وهو يستشهد على هذا المعنى بالقول المأثور المنسوب إلى لينين، ويستطرد من هذه الفكرة إلى مقارنة تجربة عبد الناصر المحدودة بتجربة ستالين البارزة فى بناء الوطن من الداخل والتزام العزلة حتى تم هذا البناء ، وهو يقول فى هذا المعنى:

«إن الوطنية وحدها لا تكفى، ولابد من أن يصاحبها نوع من الخبرة فى إدارة الأمور، واتخاذ القرارات، لذلك كان لينين على حق عندما قال كلمته المشهورة بعد نجاح الثورة البلشفية: «الآن مهندس واحد خير من عشرين شيوعيا» ! والمعنى أن الثورة بعد نجاحها لم تعد فى حاجة إلى ثوار ومقاتلين، فقد انتهى دورهم وانتهت مرحلتهم، بل تحتاج إلى مهندسين وفنيين وعمال، لأنهم أقدر على إفادة الثورة فى مرحلة البناء. وكان ستالين أذكى من عبد الناصر فى إدارة الثورة الشيوعية، حينما رفض تصدير الثورة للخارج كما طلب تروتسكى، لأن الغرب لو شعر بخطورتها لكان سيقف فى طريق انطلاقها. وبفضل فكرة الستار الحديدى نجح ستالين فى تكوين دولة عظمى، وتحويل روسيا من بلد فقير ضمن دول العالم الثالث الضعيف، إلى أحد القطبين الكبيرين اللذين سادا العالم سنوات طويلة، وليت عبد الناصر استفاد من تلك التجربة، وأقصد بها تجربة الستار الحديدى والتزام نوع من العزلة المقبولة لبناء الوطن من الداخل، وعدم التفكير فى تصدير الثورة إلى كل بلاد العالم الثالث» .

الدولـة والمثل العليـا

على الرغم من تعدد المثل والأهداف التى أشار إليها نجيب محفوظ ولخصها وناقشها فإنه قد نجح فى أن يظهر الجانب الآخر لكل منها فى الوقت المناسب، وذلك من خلال حديث حوارى عن مُثل أخرى أعلى منها، وعلى سبيل المثال فإنه جعل أوزوريس ينتقد دفاع مينا عن توظيفه القوة للإسراع بتحقيق ما لا تحققه الكلمة إلا فى أجيال بقوله:

«هذا المنطق يقدمه كثيرون مداراة لإيمانهم بالعنف»،.

كذلك ينتقد أوزوريس أيضا نظرية زوسر فى الدفاع عن طريق الهجوم بقوله:

«إنها نظرية لا تصدر إلا عن قوى يُضمر العدوان».

ومع هذا فنحن نرى لوحة رائعة تصور حوار الملوك الثلاثة الأوائل حول فكرة بناء الهرم التى تبناها ونفذها ثالثهم:

«فقال الملك مينا:

«عمل مجيد يذكرنى ببناء منف العظيمة التى لم يمهلنى العمر لأتمها».

«وقال الملك زوسر:

«كان الأوفق توجيه القوة المتاحة للغزو وتأمين الحدود».

«فقال الملك خوفو:

«كانت خيرات البلاد المتاخمة تأتينى بلا قتال، وكان حرصى على أرواح رعيتى لا يقل عن حرصى على المجد والخلود».

ويرتبط بهذا حديث سابق لنجيب محفوظ عن قيمة النظام فى فلسفة وأسلوب خوفو كملك عظيم، وهو يقول على لسانه:

«يجب أن يكون لكل نشاط قوانينه وتقاليده لا فرق فى ذلك بين الشرطة أو النحت أو العمارة أو الحياة الزوجية، فنفذتْ شخصيتى إلى كل قرية متمثلة فى الموظفين ورجال الأمن والمعابد،وأصبحتْ مصر مجموعة من التقاليد السامية والنظم الدقيقة، وهو ما أعاننى على تشييد أعظم بناء عرفه الإنسان، اشتركت فيه الألوف المؤلفة على مدى عشرين عاما فلم يتسلل إليه اضطراب أو إهمال، ولم يُحرم أحد من العاملين فيه من العناية والرعاية، ولم يغب فى الوقت نفسه عن عين الرقابة الساهرة، هكذا خاض قومى تجربة فذة بنجاح مثالى وأثبتوا قدرتهم الفائقة».

❑

ويتصل بهذا الحديث عن الصراع التقليدى بين الفكر النظرى والعملى أن صاحب الحكمة الحكيم بتاح حتب، يحظى بتقدير (الأم) أو عضو اليمين إيزيس:

«لا تقللوا من قيمة ابنى الحكيم، نحن نحتاج إلى الحكيم فى عصور التدهور كما نحتاج إلى الطبيب فى أيام الأوبئة، وسيظل للكلمة الطيبة أريجها على الدوام».

❑

بل إن الملك خوفو نفسه الذى كان على مدى الرواية أبرز مَنْ قدسوا النظام ينتصر لحكمته وأهميتها ويقول:

«الحكمة تعيش كالهرم وأكثر».

وعلى الرغم من هذا الإيمان العميق بالنظام والقانون والحكمة، نجدنجيب محفوظ ينبهنا إلى أن الحياة لا تستقر بالرضا عن كل قوانينها، من ذلك ما نراه من انتقاد واضح لفكرة قانون الوراثة على لسان إيزيس نفسها:

«كان أبنائى الثلاثة غير أكفاء للعرش، ولولا قانون الوراثة الأعمى ما جلس أحدهم عليه، ولكنهم يستحقون الرحمة».

❑

كما نرى هذا المعنى واضحا فيما يبديه رمسيس الثانى من دفاع عن قيامه باغتصاب العرش من أخيه:

«إنى لا أحترم قانونا يورث عرشا لعاجز لا يستحقه».

❑

كذلك يتصل بهذه الأهمية [أو الحتمية] التضحية بأخلاق الوفاء من أجل غايات أخرى أجدى على الوطن.

ونرى هذا الحوار يتكرر مرتين، الأولى بين إخناتون وحور محب، والثانية بين عبد الناصر والسادات:

● فى المرة الأولى يروى نجيب محفوظ فيقول:

«وتكلم إخناتون فقال:

«لم أحب أحدا من أتباعى كما أحببتك يا حور محب، ولم أكرم أحدا منهم كما أكرمتك، وكان جزائى أن خنتنى وانضممت إلى أعداء الشعب وأعدائى، ثم هدمت مدينتى ومعبدى ومحوت اسمى وصببت علىّ اللعنات..».

«فقال حور محب:

«لا أنكر مما قلت شيئا، وقد أحببتك أكثر من أى رجل عرفته، ولكنى أحببت مصر أكثر».

●وفى المرة الثانية يروى نجيب محفوظ فيقول:

«وسأله جمال عبد الناصر:

«كيف هان عليك أن تقف من ذكراى ذلك الموقف الغادر؟».

«فقال أنور السادات:

- «اتخذت ذلك الموقف مضطرا، إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك».

- «ولكنى عهدتك راضيا ومشجعا وصديقا؟».

- «من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف اتخذه فى زمن رعب خاف فيه الأب ابنه، والأخ أخاه!».

وكأنما يريد نجيب محفوظ أن يلتمس العذر لأنور السادات فى عدم معارضة عبدالناصر طوال سنين حكمه مع إدراكه للخطأ فى سياسته، وكأنما يحاول نجيب محفوظ من طرف خفى أن يسقط أفكاره هو وموقفه هو الآخر فى هذا الشأن، وكأنه يرد بهذا على الذين لاموه على انتقاده المتكرر لفترة حكم الرئيس عبدالناصر على الرغم من أنه كان أحد نجومها.

الأدب والسياسة

من المهم أن ننتبه إلى إيمان نجيب محفوظ بضرورة الفصل بين قضايا الأدب والسياسة، وقد ساعده على هذا نشأته فى مناخ ليبرالى حقيقى، وقد كان من حسن حظ نجيب محفوظ أن تبلور هذا المعنى على أفضل ما يكون فى علاقته بأستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق وهى العلاقة التى توثقت تماما على الرغم من اختلافهما سياسيا وحزبيا وهو فى مذكراته يروى انطباعاته عنه وعن علاقتهما على النحو التالى:

«الشيخ مصطفى عبد الرازق هو مثال للحكيم كما تتصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطباع، خفيض الصوت، لا ينفعل ولم أره مره يتملكه الغضب. كان الشيخ مصطفى عبد الرازق من أنصار حزب الأحرار الدستوريين، ويعرف أننى وفدى صميم، ومع ذلك لم تتأثر علاقتنا أبدا. كان جيلنا يتمع بصفة جميلة، وهى التفرقة بين قضايا الأدب والسياسة».

❑

ويستطرد نجيب محفوظ من هذه الجزئية إلى الحديث عن الطبيعة التى كانت تحكم علاقة جيلهم بجيل أساتذتهم، على وجه العموم، ويقول:

« فنحن مثلا كنا نختلف مع الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين فى السياسة على طول الخط، ومع ذلك نحترمهما كأديبين ونعتبرهما على رأس أساتذتنا الذين نتعلم منهم، وكان هذا الجيل يحافظ على تلك الصفة بشكل يدعو للإعجاب. كان العقاد وطه حسين مختلفين سياسيا وبينهما خلافات مستحكمة،

ولكن عندما تعرض طه حسين لحملة ضارية بعد صدور كتابه «فى الشعر الجاهلى» وقف العقاد إلى جانبه ودافع عنه على صفحات الصحف وتحت قبة البرلمان. كما أننا كنا فى صدام مع الإنجليز ونتظاهر ونهتف ضدهم: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام»، وفى الوقت نفسه نضع الأدب والفكر الإنجليزى فوق رءوسنا ونقدره ونتابع بشغف ما يكتبه هـ.ج. ويلز، وبرنارد شو وغيرهما. كنا نفرق بين الوجه الاستعمارى القبيح والوجه الحضارى المشرق، وإن لم يمنع هذا التفريق من ظهور أصوات بيننا تنادى برفض تعليم الإنجليزية والفرنسية لأولادنا، وتعتبر اللغتين تجسيدا للغزو الاستعمارى، وهى أصوات لم تفرق بين الوجهين».

❑

وفى مقابل هذا الإحساس بالأفق الواسع يعبر نجيب محفوظ عن فهمه الذكى لجوهر سياسة العهد الناصرى تجاه الفكر والفن ملتفتا إلى ما لم يلتفت إليه غيره، وهو يشخص هذه السياسة فى قوله إنها كانت إعطاء بعض الحرية للفن فى مقابل التضييق الشديد على الفكر وهو يقول:

«..... وفى مقابل هامش الحرية الذى تمتع به الفن فى العهد الناصرى، تعرض الفكر لتضييق شديد، ذلك أن الفكر لا يعرف الرمز أو الالتفاف والتحايل الموجود فى الفن. فالأعمال الفكرية صريحة ومباشرة، ومن هنا كان أى خروج من جانب المفكرين عن الخطوط الحمراء يُقابل بقبضة حديدية، فلم تسمح السلطة للمفكّرين بالمناقشة والمعارضة والدخول فى المناطق الحساسة، فعندما انتقد الدكتور لويس عوض فكرة «القومية العربية» فى محاضراته بكلية الآداب، خرج من كرسيه كأستاذ فى الجامعة ومستشار لوزارة الثقافة إلى سجن الواحات مباشرة، وهذا ما جرى مع كل مفكر سولت له نفسه الخروج على فكر النظام ومبادئه».

ويؤكد نجيب محفوظ على هذا المعنى بطريقة أخرى عند حديثه عن المذاهب السياسية بما يدلنا على أنه كان ينظر للأداء الناصرى على أنه متأثر إلى حد ما بالتجارب الشيوعية فى الحكم:

«... وربما لهذا السبب لم يزدهر الأدب فى ظل النظام الشيوعى، فمن الصعب وجود أدب عظيم فى ظل النظم الشمولية، سواء كانت شيوعية أو فاشية أو نازية. ولكن فى ظل النظام الشيوعى ازدهرت الفنون المجردة مثل الباليه والرقص والموسيقى، لأنها فنون مجردة لا يمكنك أن تعرف ما يقصده بالضبط مؤلفها ومبتكرها. كما تفوق الشيوعيون فى الألعاب الرياضية، فنظام التدريب عندهم يعتمد على التنظيم الشديد الذى يصل إلى حد القهر، أما الأدب فهو فن «مفضوح»، ويمكنك أن تفهم ما يقصده الكاتب حتى ولو من خلال الرمز، خاصة فى ظل نظام بوليسى يفسر الرمز بالشبهات، فلا يكون أمام الأديب حينئذ إلا أن يلتزم بمبادئ النظام الحاكم ويضع نفسه فى خدمته إذا كان منسجما مع نفسه، أما البعض الآخر فيتحول إلى أديب منافق أو منشق متمرد تكون نهايته سوداء. فالأديب الذى يحاول كتابة أدب إنسانى فى ظل حكم شيوعى، يتعرض فى أغلب الأحيان للمطاردة والسجن، لأن ما يكتبه غالبا ما يتناقض مع مبادئ النظرية ومع ما يريده النظام الحاكم».

❑

يصل نجيب محفوظ إلى تقرير حقيقة ومسئولية المدرسة المصرية الحالية عن تقديم خامة جاهزة للتطرف، وهو يقول بكل صراحة:

«إن المدرسة فى مصر بنظامها الحالى تقدم للمجتمع مادة خاما للتطرف، ولا تقدم متعلمين مثقفين مستنيرين».

وينبه نجيب محفوظ إلى خطورة الفصل بين التربية والتعليم، وهو يشير إلى أهمية التربية الجيدة والانتماء، بل يصرح بأفضلية المنتمى المتربى على الحاصل على أعلى الدرجات العلمية:

«من أهم عيوب نظام التعليم الحالى هو أنه يفصل بين التعليم والتربية، وينظر للتربية على أنها من الكماليات، بينما التربية أهم من التعليم، وأؤكد أننى أفضل متعلما حاصلا على مؤهل متوسط ولم يكمل دراسته الجامعية ويشغل وظيفة بسيطة، لكنه يكون قد تلقى تربية جيدة ولديه انتماء، على متعلم آخر حصل على أعلى الشهادات دون تربية جيدة أو انتماء. وفى الحقيقة فإننى تفاءلت واستبشرت خيرا بالخطوات التى اتخذها وزير التعليم السابق الدكتور فتحى سرور على الرغم من ثورة الكثيرين على أفكاره، لأن جميع الأسر المصرية ترغب فى إلحاق أبنائها بالجامعات بأى شكل. ورغم الصعوبات الكبيرة التى اعترضته، ورغم الروتين الفظيع والإمكانيات الضعيفة، فإن الدكتور سرور كان يسير فى الاتجاه الصحيح لتطوير التعليم فى مصر، لكنه لم يستمر وتم تكليفه برئاسة مجلس الشعب».

❑

وينتبه نجيب محفوظ بذكاء إلى بعض جوانب الأزمة التربوية التى نعايشها، فهو ينبه إلى المستوى الأدبى الرفيع الذى كان الملتحقون بالمدارس العلمية (أى الطب والهندسة) يتمتعون به، ذاكرا فى هذا المجال منافسة الدكتور أنور المفتى له فى المدرسة الثانوية وهو يروى فى مذكراته فيقول:

«.... فقديما كان خريجو المدارس العلمية ينافسون نظراءهم فى المدارس الأدبية فى قراءة الأدب والفكر والفن، ويدخلون فى جدل وحوار حول كتابات العقاد وطه حسين. لقد كان الدكتور أنور المفتى على درجة عالية من الثقافة التى كانت

تؤهله للعمل بالنقد الأدبى، وكان زميلى فى مدرسة فؤاد الأول، وكنا نتسابق فى الحصول على أعلى الدرجات، وكان المفتى من أحسن التلاميذ فى كتابة موضوعات الإنشاء».

❑

ويتأكد الشعور بانزعاج نجيب محفوظ من موقف الدولة (فى عهد الثورة) من الأدب والفكر عند حديثه عن إعدام سيد قطب، فهو يعبر عن ذهوله وصدمته من سرعة تنفيذ حكم الإعدام فى سيد قطب:

«.... عندما سمعت بخبر اشتراك سيد قطب فى مؤامرة قلب نظام الحكم، وصدور حكم الإعدام عليه، لم أتوقع أبدا تنفيذ الحكم، وظننت أن مكانته ستشفع له، وإن لم يصدر عفو عنه، فعلى الأقل سيخفف الحكم الصادر ضده إلى السجن المؤبد على الأكثر، ثم يخرج من السجن بعد بضع سنوات، وخاب ظنى ونفذ حكم الإعدام بسرعة غير معهودة، أصابتنى بصدمة شديدة وهزة عنيفة، فرغم الخلاف الفكرى بينى وبين سيد قطب، فإننى كنت أعتبره حتى اليوم الأخير من عمره صديقا وناقدا وأديبا كبيرا، كان له فضل السبق فى الكتابة عنى، ولفت الأنظار إلىّ، وفى وقت تجاهلنى فيه النقاد الآخرون».

❑

وبالإضافة إلى هذا أو بالاتساق معه يدين نجيب محفوظ رقابة الدولة على الأعمال الفنية فى عهد الثورة ويتهمها بضيق الأفق، ويرى أن عمله كرقيب فى فترة من فترات حياته الوظيفية كان مفيدا للفن، لأنه استطاع من خلال موقعه أن يحمى الفن وأن يخدمه، وهو يعترف بصعوبة اللحظات والمضايقات التى مرّ بها

فى أثناء عمله فى الرقابة، ومع هذا فإنه يعتبرها من أسعد فترات حياته الوظيفية لما أسلفنا ذكره، وهو يعبر عن يقينه بأنه لم يخن نفسه كفنان وأديب فيقول فى مذكراته:

«وأستطيع القول إننى أديت من خلال عملى فى الرقابة خدمة للفن ما كان يمكن أن أؤديها فى موقع آخر، ولم أشعر فى لحظة من اللحظات أننى أخون نفسى كأديب وفنان، بل كانت أسعد أيام حياتى الوظيفية هى تلك التى أمضيتها فى الرقابة، ورغم المضايقات الكثيرة التى تعرضت لها من هؤلاء الذين لا يؤمنون بأن الرقابة يمكن أن تكون نصيرا للفن».

«لقد اختلفت مع أصحاب هذه العقليات، وكثيرا ما ذهبوا - خاصة أولئك الذين تربطهم صلات مع القيادة السياسية - للشكوى منى عند وزير الثقافة، وفى كل مرة يأمر الوزير بتشكيل لجنة لبحث الشكوى، وفى كل مرة تنحاز اللجنة لموقفى وتؤيد وجهة نظرى، ولم تخذلنى اللجنة مرة واحدة، والأمثلة كثيرة، فعندما ظهرت الأغنية التى تقول كلماتها: «يا مصطفى يا مصطفى.. أنا باحبك يامصطفى.. سبع سنين فى العطارين... إلخ.. فوجئت بمراقب الأغانى يصدر قرارا بمنعها، وكانت الأغنية تذاع فى الراديو ويغنيها الناس فى الشوارع، ولم يكن أمام «المراقب» سوى [طلب الموافقة على] مشروع لطبعها فى أسطوانات، ولكنه أصدر قرارا بالمنع، ولما سألته عن سبب قراره أعطانى أغرب إجابة يمكن أن أسمعها فى حياتى، إذ قال لى: إن مؤلف الأغنية يقصد مصطفى النحاس، وأن «سبع سنين» الواردة فى الأغنية تشير إلى مرور سبع سنوات على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، إلى هذا الحد من ضيق الأفق كانت العقليات التى تعمل معى فى جهاز الرقابة».

2

صـــورة ٥ يونيـــو ١٩٦٧ فى المرايا

صورة ٥ يونيو ١٩٦٧ فى المرايا

لا يستطيع قارئ نجيب محفوظ أن يتجاهل الأثر الضخم والقاسى بل المرعب لهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، على تفكيره ووجدانه، فلا يكاد أديبنا يجد فرصة للتعبير عن الآراء المصطرعة فى نفسه تجاه هذا الحدث المأساوى إلا ويستغل هذه الفرصة بأكبر قدر من براعة الأديب وقدرته على التعبير عن مكنون نفسه أو عقله، أو عن أمله، أو عن حيرته المضطربة ، أو عن دهشته من أن يكون هذا الذى حدث قد أصبح حقيقة واقعة.

والواقع أن كل مذكرات نجيب محفوظ وحواراته ومقالاته تعبر بمرارة بالغة عن الألم القاتل الذى عاشه نجيب محفوظ نتيجة لحرب ١٩٦٧ .

وهذه هى إحدى الفقرات التى تصور بطريقة مجملة ذكريات نجيب محفوظ عن هزيمة ١٩٦٧ ، وهو يعترف فيها بأنه لم يحدث له ذهول وانكسار مثلما حدث فى تلك اللحظة وما تلاها، وهو يقارن فى ذكاء إبداعى بين شعوره قبل ذلك اليوم المشئوم وبعده فيقول:

«إننى فى حياتى كلها قبل ذلك اليوم أو بعده، لم يحدث لى ذهول وانكسار فى النفس مثلما حدث فى تلك اللحظة وما تلاها. حيث أصابتنى حالة فظيعة من الحزن والاكتئاب وعدم التصديق. كنت كمن يعيش فى حلم جميل، وفجأة سقط من فراشه على أرض صلبة خشنة. فحتى صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ كان لدىّ اقتناع تام بأننا الأقوى والأعظم. لقد كنت واحدا من بين الآلاف الذين شاهدوا الاستعراض العسكرى فى الرابع عشر من مايو ١٩٦٧، ورأيت الدبابات المصرية وهى تسير كالأفيال فى شوارع القاهرة، كما استمعت إلى وقائع المؤتمر الصحفى الشهير لعبد الناصر، وكان مظهره يدل على أنه يتحدث حديث الواثق القوى، وقال جملته الشهيرة: «أنا مش خرع زى مستر إيدن»! كانت كل الأجواء تعطى إحساسا باليقين والقوة، ومن هنا كان عمق الصدمة وهولها».

❑

ويردف نجيب محفوظ راويا بعض التفصيلات الدقيقة التى تتذكرها عقلية روائى مجيد من طرازه، فهو يشير إلى تعاقب الأحداث فى ذلك الصباح بعدما سجل لمندوبين من الإذاعة المصرية نداء لجنودنا فى سيناء، ثم إذا به يسمع صفارات الإنذار ثم صوت أحمد سعيد الواثق الفخم، وعلى عكس الذين انتشوا بحديث أحمد سعيد وما حمله من أنباء النصر فإن نجيب محفوظ بعقليته المنظمة التحليلية بدأ يفكر فى حقيقة ما حدث فى ذلك الصباح، وهكذا فإنه شعر بالخوف والقلق و«بانقباض فى صدره» حين اكتشف أن العدو هو الذى بدأ الهجوم:

«فى صباح الاثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧، ذهبت إلى مكتبى فى مؤسسة السينما، واستقبلت مندوبين من الإذاعة المصرية وسجلت - بناء على طلبهم - نداء لجنودنا فى سيناء بصوتى، ثم انهمكت فى عملى حتى التاسعة صباحا، وفجأة

سمعت صفارات الإنذار، إذاً فقد اندلعت الحرب، وبسرعة لم أفكر إلا فى الحصول على جهاز راديو لأسمع الأخبار، وجاءنا صوت أحمد سعيد، وهو الصوت الواثق الفخم يعلن فى زهو أننا أسقطنا مجموعة طائرات للعدو الإسرائيلى، وفى الحقيقة أننى لم أفرح لهذه الأخبار وشعرت بانقباض فى صدرى، لأن إسقاط طائرات لإسرائيل يعنى أنهم هم الذين بادروا بالهجوم، وأننا فى موقف الدفاع، فاعترتنى حالة من الخوف والقلق».

❑

وعلى عادة الروائى المتمكن الذى يقبض على لحظات المفارقة فى إدراك الحدث يروى نجيب محفوظ بعض ما كان يدور بينه وبين ثروت أباظة من حوار حول سير المعارك:

«كانت كل الأخبار التى أعرفها عن المعركة من مصدر وحيد هو الإذاعة المصرية، ولم أفكر فى الاستماع إلى إذاعات أجنبية، ولكننى قابلت فى نفس اليوم ثروت أباظة وبدا عليه أنه يعرف تفاصيل ومعلومات كثيرة استقاها من محطات الإذاعة الأجنبية. ولأنه كان يعرف مدى انفعالى وتأثرى الشديد فلم يشأ أن يصدمنى بما يعرف، والغريب أنه سألنى أكثر من مرة عن آخر الأخبار التى أعرفها عن مصير المعارك، فأرد عليه بما سمعته من الإذاعة، وأذكر له آخر عدد طائرات أسقطناها، كما سمعتها من إذاعة «صوت العرب»، فكان ينظر لى فى أسى ويقول لى: «على الله»، أى أنه ياليت أن ما أذكره كان صحيحا!! فعشت فى حالة من القلق منذ اندلاع القتال من صباح الاثنين ٥ يونيو حتى الجمعة ٩ يونيو».

❑

ونصل إلى تصوير نجيب محفوظ للحظة التى أدرك فيها حدوث الهزيمة على

نحو ما حدثت، ونراه يهرع إلى جماعة من الأصدقاء كى يكون بينهم عند سماعه لخطاب عبد الناصر، وقد شعر بشرخ داخلى بعد سماعه:

«ففى صباح يوم الجمعة فتحت الراديو لأتابع أخبار المعركة فاستمعت إلى أغنية وطنية لا تدعو للتفاؤل، اصطحبت ابنتىّ وذهبنا إلى حديقة «خريستو» فى الهرم، وأخذت معى جهاز راديو لأتابع ما يجرى أولا بأول، وكان الخبر الذى نزل علىّ كالصاعقة هو أن قواتنا المسلحة انسحبت إلى الضفة الغربية لقناة السويس، وأصبحت كالمجنون أتلهف على شخص يوضح لى الحقيقة، وعرفت من الإذاعة أن عبد الناصر سوف يذيع بيانا فى المساء يتحدث فيه إلى الأمة، وفى مساء الجمعة ذهبت إلى مقهى «ريش» وجلست مع بعض الأصدقاء، وتحلقنا جميعا حول جهاز راديو «ترانزستور» فى انتظار بيان عبد الناصر، وتحدث عبد الناصر ونحن نستمع فى صمت رهيب، وكان بيانا مهيبا، شعرت بعد انتهائه بأننى أصبت بشرخ فى داخلى، فانسحبت فى هدوء وعدت إلى بيتى».

❑

ولنجيب محفوظ تصويرات فنية كثيرة، وبالغة التعبير عما حدث فى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧، وهو يعبر عن شعوره النفسى فى هذين اليومين منشئاً حالة من التوحد بينه وبين أفراد الشعب المصرى الذين هزهم الموقف فى ذلك اليوم، والواقع أن نجيب محفوظ فى تشخيصه لما حدث فى ذلك اليوم يقدم صورة غير مسبوقة تجيد التعبير عن حقيقة ما حدث، وهو يقول:

«كنتُ مثل ملايين المصريين أشبه بمن أعطى توكيلا لمحام كى يترافع عنه فى قضية مصيرية، ومع التوكيل أعطاه كل أوراق القضية، وأقرّ بحرية المحامى فى التصرف حسبما يرى.. وفى لحظة خاطفة خسر المحامى القضية وأعلن تخليه عن

الاستمرار فيها.. وهنا لا يكون أمام صاحب القضية سوى خيار واحد وهو أن يتمسك بمحاميه مهما كانت الظروف، لأنه لا يعرف شيئا عن تفاصيلها وأوراقها وملفها كله، ويطلب من محاميه الاستئناف والاستمرار معه، لذلك خرجتْ جموعُ الشعب تعلن رفضها لفكرة تنحى عبد الناصر عن السلطة وتمسكتْ به، لأنه كان المحامى الذى يملك كل أوراق القضية».

❑

ويعترف نجيب محفوظ بكل صراحة أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ قد جعلته يعيد التفكير فى ثورة يوليو بصورة كاملة [وهو نفس الموقف الذى عبر عنه توفيق الحكيم فى كتابه «عودة الوعى» وسننقل للقارئ هنا بعض فقرات توفيق الحكيم فى كتابه «عودة الوعى»]:

....

«لم أعرف الحقيقة ويعترينى الذهول إلا فى يوم الجمعة ٩ يونية.. فقد ظهر أننا خسرنا الحرب منذ الساعات الأولى من يوم ٥ يونية... وعندما رأينا وجه الرئيس فى شاشة التليفزيون يعلن الهزيمة ويخففها بلفظ النكسة، لم نصدق أننا بهذا الهوان، وأن إسرائيل بهذه القوة...وكان أكرم له وأعظم لو أنه اختفى عن أنظارنا فى ذلك اليوم ولم يواجهنا بكلام. ربما كان خيالنا قد ضخم لنا صورة آلامه التى لا يمكن أن تُحتَمل... ولكننا مع ذلك تأثرنا وعاد فامتلك عواطفنا لعلمه وقوله إننا شعب عاطفى. وأنسانا الهزيمة وجعلنا نرقص، حتى فى مجلس الأمة لمجرد وجود شخصه بيننا بدلاً من أن نسائله ولو برفق ومحبة عن أسباب الهزيمة لنعرف أمراضنا حتى نتهيأ للصحة، لا أن ندعه ليكتم المرض ويخنق الحقائق ليبقى الفساد كما كان، خشية على تصدع مركزه ـ لم يكن بالطبع هذا الشعب فى حالة طبيعية

من الوعي كأى شعب آخر في مثل هذه الظروف، يسائل زعيمه على الأقل بوعي حاضر ولا أقول يحاكمه أو يطالبه بدفع ثمن الهزيمة كما فعل الشعب الفرنسي مثلاً الذى لعن نابليون وتركه للنفى بعد معركة واترلو... وأخذ هو يجدد حياته بدونه وبنفسه. مع أن زعيمه شرفه بانتصارات عسكرية مجيدة ساد بها أوروبا كلها ناشراً مبادىء الثورة الفرنسية ومبشراً بالوحدة الأوروبية. لقد تركوه يدفع ثمن هزيمته الوحيدة. تلك الهزيمة التى تسبب فيها أحد مارشالاته «جروش» ولم يمس وتحمل نابليون كل الذنب والمسئولية.. أما عندنا فإن قائدنا الخالد بهزائمه العسكرية المتلاحقة التى غامر فيها بأموال شعب فقير ليحتل أرضه فى النهاية عدو صغير، بقى ليتنصل من هزيمته ويجعل مشيره هو الذى يدفع عنه الثمن بانتحاره، ويقدم قواده إلى المحاكمات وتلقى عليهم التبعات. وحتى من أراد أن يكتب تلميحاً عن فساد أو هزيمة أو نكسة فيجب إبعاد شخص الزعيم عن كل مسئولية، فالمسئولون دائماً هم الآخرون... وهكذا استمر فى كرسى الحكم على مصر والزعامة الناصرية على العرب جميعاً ـ تلك الزعامة التى خربت مصر ونكبت العرب ـ ونحن ليس لنا حيلة ولا قوة إلا التعلق به لأنه جردنا طول الأعوام من كل فكر مستقل ومن كل شخصية قوية غير شخصيته هو».

«فلا عجب إذن أن نتمسك بزعيمنا بعد الهزيمة وأن نجعل وجوده الشخصى بديلاً من النصر أو مرادفاً له لأنه كان قد أشعرنا بكل هذه الوسائل أنه لا يوجد فى مصر ولا فى العالم العربى كله غير عقل واحد وقوة واحدة وشخصية واحدة هى «عبدالناصر» وبدونه لا يوجد شىء فلا رجال ولا عقول ولا قوى يعتمد عليها. وليس أمامنا إلا الضياع. وهكذا الفاشستية والهتلرية والناصرية كلها تقوم على أساس واحد هو إلغاء العقول والإرادات الأخرى ما عدا عقل وإرادة الزعيم. وكلها شهدت

هجرة العديد من العقول إلى الخارج كما حدث أيضاً لكثيرين في مصر. وكلها تترك بعدها شبحها مسيطراً، وفي ميراثها خيولاً يركبها باسمها الطامعون والمغامرون... إن فكرة الزعامة على العالم العربي هي التي أضاعتنا جميعاً. وهي التي استحوذت على فكر عبدالناصر وجعلته قوة مدمرة لنفسه ولمصر وللعرب. وهو درس يجب أن نعيه جيداً لمقاومة كل مَنْ تراوده نفسه على زعامة العرب، والسيطرة عليهم بشخصه وبإرادته وأفكاره... وهكذا بقي الزعيم موجوداً دائماً يمنينا بكلماته المعتادة عن النصر.. وعادت الأناشيد تردد كلمة النصر، ولكن النصر تغير مفهومه. وأصبح هو جلاء إسرائيل عن الأراضي التي احتلتها، وعودتنا إلى ما كنا عليه قبل ٥ يونية ١٩٦٧ . ولقد كانت أمانينا الوطنية بالأمس انتهاء الاحتلال البريطاني عن أراضينا، اليوم أمانينا الوطنية هي إنهاء الاحتلال الإسرائيلي عن أرضنا... ونحن مستمرون مع ذلك في ترديد شعار الثورة: «كيف كنا وكيف أصبحنا».

....

«ومرت على الهزيمة الأيام. وفي كل يوم يتضح لنا فداحة حجمها لا عن طريق إعلان الحقائق رسمياً.بل بأساليب ملتوية في سطور غامضة عابرة تندس في مقال صحفي نفهم منه أن الجيش قد أبيد وأسلحته ومعداته وأحدث دباباته وطائراته التي استنزفت دم مصر، ضاعت مع الأرواح التي قدرت بعشرات الألوف والأموال التي بلغت آلاف الملايين، ولم تُطلق مع ذلك طلقة واحدة، وقال قواد دولة صديقة في عجب: لو أن كل دبابة صمدت وأطلقت طلقة لتكبد العدو من الخسائر، ما جعل الحرب تمتد إلى أجل معقول، وجعل الهزيمة إذا وقعت، هزيمة بشرف... ولكنه القرار المعروف المألف: قرار الانسحاب ... من أول نظرة! .. أي من أول

نظرة إلى سوء الموقف.. أسلوب واحد هو طابعنا المميز فى حروب الثورة الناصرية: توريط أنفسنا ثم الانسحاب».

«ولكن الانسحاب فى الحرب عام ١٩٦٧ كان باهظ الثمن. فظيعا فى منظره ونتائجه وآثاره... بل كان فى رأى الخبراء العسكريين مجزرة بشرية رهيبة. فالأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصحراء واتخذ مواقعه بمعداته على مدى أسابيع، ودعوته للجرى حافياً دون انسحاب فنى منظم، تحت وابل نيران العدو لهو قرار أهوج من مسئول فقد أعصابه ويستحق المحاكمة. وهو ما لم يحدث. وسحقت مصر سحقاً بهزيمة لن ينساها التاريخ».

❏

ويبدع نجيب محفوظ فى تصوير هذا الموقف الذى صوره توفيق الحكيم فى «عودة الوعى» فى مرحلة مواكبة لكتابة نجيب محفوظ للمرايا، ولكنه لا يكثف العبارات على نحو ما فعل الحكيم وإنما هو يدير هذه الأفكار بطريقة روائية وفى أكثر من صورة:

- ❏ فى إحدى هذه الصور يرى أن الثورة أقامت بناء شامخا من الورق على الرمال ثم جاءت موجة وأغرقت كل شئ.
- ❏ وفى صورة ثانية يرى أننا عشنا فى ظل شبح هائل مرعب طار فجأة فى الهواء بفعل الرياح.

وهو يعترف فى إحدى الفقرات اعترافاً مباشراً فيقول:

«هذه الهزيمة جعلتنى أعيد التفكير فى ثورة يوليو بصورة كاملة وأحاول معرفة ما حققته لمصر، وأدركت أننى قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ كنت أعيش فى وهم كبير،

وأننا أشبه بمن أقام بناء شامخا من الورق على الرمال، ثم جاءت موجة وأغرقت كل شيء، وأننا عشنا فى ظل شبح هائل ظل يرعب الناس، ثم طار فجأة فى الهواء بفعل الرياح» .

❑

ويعبر نجيب محفوظ كثيراً جداً عن حالة الحيرة التى انتابته بعد هزيمة ١٩٦٧، وهو ينشغل لبعض الوقت بالبحث عن المسئول عن الخديعة، هل هو الخادع أم المنخدع، ولكنه لا يستطيع الهرب من الحقيقة المرة التى تكشفت بعد انتهاء الخديعة وهو يقول:

«وبدأت أسأل نفسى: هل نحن الذين اخترعنا هذا الوهم بإرادتنا وعشنا فيه؟ أم أننا خُدِعنا وتعرضنا لمن يضحك علينا، وعشنا وهما مصنوعا بإتقان، وأن مخترعى هذا الوهم وحدهم يعرفون الحقيقة؟» .

«أما الحقيقة الثابتة أمام عينى فهى أن أحلام الثورة عشنا فيها سنوات طويلة، ثم أفقنا على الواقع المؤلم، وكان أكثر ما يؤلمنى هو أننا تحملنا الحكم العسكرى وعانينا من سيئاته، من أجل تحقيق الأهداف التى وعدونا بها، وتحملنا كل المصاعب فى سبيل تكوين جيش مصرى قوى يحفظ هيبتنا فى المنطقة، ورضينا بأن يسىء النظام الحاكم إلينا فى كل شىء.... إلا الجيش، ثم فوجئنا بتلك الهزيمة العسكرية الساحقة، وبتلك الخيبة القوية» .

والحاصل أن الأعمال الفنية التى ألفها نجيب محفوظ فيما بين حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣ تمثل المادة الخصبة لفهم أثر هذا الحدث المأساوى على أدبه، ويمكن لنا بالرجوع إلى قائمة مؤلفاته أن نتبين أنه منذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٢ لم ينشر من

الروايات إلا ميرامار (١٩٦٧) والمرايا (١٩٧٢) كما نشر أربع مجموعات قصصية هى: خـمـارة القط الأسود (١٩٦٩)، وتحت المظلة (١٩٦٩) وحكاية بلا بداية ولانهاية (١٩٧١)، وشهر العسل (١٩٧١)، وهذا ما يغرينا بأن نعول على مضمون «المرايا» والخطاب المحفوظى فيها بدرجة كبيرة من أجل التعرف على هذا التأثير الذى نحن بصدد دراسته.

بل إنه يمكن لنا أن نصل إلى حقيقة أن رواية «المرايا» بالذات تمثل عملا فريدا بين روايات نجيب محفوظ كلها، فهى العمل الروائى الوحيد الذى أنجزه بأكمله ونشره فى هذه الفترة الحالكة من تاريخنا.

وربما جاز لى أن أبدأ بتقرير أن ذلك «الشكل» أو «التكنيك» الذى كتب به نجيب محفوظ هذه الرواية يكاد فى حد ذاته يدلنا على هذا الصراع النفسى الشديد الذى كان يجتاح أديبنا ويكاد يعصف به عصفا شديدا، أو قل بعبارة أخرى إن تأمل مراوحة نجيب محفوظ بين الأشكال والتكنيكات والأفكار المتناقضة والمتضاربة يدلنا على أن هذا الصراع كاد بالفعل أن يقضى عليه، وعلى آماله العقلية، وعلى أحلامه الفكرية، وعلى الأقل فقد كاد هذا الصراع يقضى على ثقته فى قدرة عقله على التفكير.

ويبدو أن نجيب محفوظ قد أحس فى تأمله لما حدث فى ٥ يونيو ١٩٦٧ بالغدر إلى جوار الانكسار، ذلك أنه فيما يظهر واضحا وجليا من كتاباته وحواراته منذ ذلك التاريخ وحتى الآن يبدو وكأنه لا يكاد يستوعب ما حدث، وهو كفنان وكمفكر وكأديب وكفيلسوف ظل يحاول أن يجد تفسيرات متعددة لما حدث، وقد استنطق الشخصيات فى «المرايا» بكثير من هذه الأفكار التى راودته أو المحاورات التى دارت فى ذهنه.

ولكن نجيب محفوظ على الرغم من هذا كله ظل يتمنى لو أن هذا الذى حدث لم يحدث على الإطلاق، وحين نراه يستنطق بعض أبطاله بالشماتة فيما حدث أو بالفرح فإنه فى حقيقة الأمر لا يفعل أكثر من أن يجلد نفسه التى أتاحت لهؤلاء أن يشمتوا فيه (!!)، ولعل أدق تصوير لحالته هذه أن نشبهه فى هذا الموقف بالأب أو الأم التى تسرد على مسامع ابنها (الذى أخفق لتوه في امتحان أو تجربة) ما قاله «الأعداء» وهم يتشفون فى عائلتهم نتيجة إخفاق الابن، فمع أن هذه الأم لم تكن على الإطلاق سعيدة بهذا الإخفاق، ولا هى سعيدة بشماتة هؤلاء، إلا أنها لا تجد أية غضاضة فى أن تروى لابنها هذا الذى قالوه وعلقوا به من قبيل الشماتة، وهى تروى لابنها شماتة هؤلاء وهى تتألم منها وتتأمل فيها، ولكنها ترى بغريزتها أنها لابد أن تفعل هذا، وهى قد تعقب على أقوالهم، وقد تستنكرها وقد تهاجمهم بسببها، ولكنها مع كل ذلك تلتزم لابنها بالدقة فى رواية ما قالوه وما يقولونه.

❑

ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نقرأ تعليقات نجيب محفوظ التى أوردتها رواية «المرايا» فى شأن هزيمة ١٩٦٧، وسوف يكون بوسعنا أن نكتشف مدى قدرة نجيب محفوظ على استنطاق أبطاله من جميع المستويات الفكرية والمهنية والطبقية بالتعليقات المعبرة عن حقيقة مواقفهم، ويبلغ نجيب محفوظ فى هذا الصدد حداً من الإعجاز الأدبى المتناهى حين نراه متمكنا باقتدار لا حدود له من أن يجعل كل كلمة وكل فكرة تتقمص هذه الشخصيات التى رسمها باقتدار فنى بالغ، وهو يعبر عن المعانى فى لوحات تبدو حافلة بتلقائية شديدة ولكنها فى الوقت ذاته حافلة بتركيز قادر على بلورة كل المشاعر والنوايا والتعبيرات.

ويكاد القارئ يستنتج معنا أن نجيب محفوظ نفسه لم يكن إلا المتوسط الحسابى لكل هذه الشخصيات المتصارعة فى داخله، بل يكاد الناقد الحصيف يعجب من قدرة هذا الشخص الفرد على أن يعبر على مدى رواية واحدة عن كل ما كانت جوانحه تضمه من كل هذه المشاعر المضطربة والمتلاطمة والمتضادة والمتناقضة والمصطرعة بل والمتعاكسة والمتنافية.. ومع هذا فإن القارئ يمضى فى الطريق الروائى الذى عبده نجيب محفوظ من شخصية إلى شخصية فيكاد يستقر على أن عبقرية هذا الفنان لا حدود لها.

ويتمنى القارئ لو أن نجيب محفوظ كان قد أعطى لنفسه الفرصة ليضيف إلى هذه الشخصيات الحافلة عددا آخر من الشخصيات التى كان لابد له أن يستنطقها رأيها فى هذا الذى حدث.. فقد كان بإمكان نجيب محفوظ أن يحدثنا عن شخصية أحد أبناء زملائه فى صورة «ضابط» دخل الكلية الحربية فى عهد الثورة وتخرج فيها ليشهد حرب اليمن ثم حرب ١٩٦٧، ولكنه فيما يبدو كان متأثرا بسطوة الجو المشحون وقتها ضد هؤلاء الضباط المظلومين، ويبدو أن غياب مثل هذه الشخصية قد وقع عن عمد من أديبنا، وقد قصد به أن تكون الصورة أكثر اتفاقا مع الجو العام السائد يومها.

وقد كان فى وسع نجيب محفوظ ،من ناحية ثانية، أن يرسم شخصية إحدى الفنانات أو النساء اللائى اقترين من بعض ذوى النفوذ الأعلى فيما قبل الحرب، وأن يورد على لسان هذه البطلة ما ينم عن مشاعرها تجاه ذوى النفوذ، وتجاه وطنها، وتجاه نفسها، ولكن يبدو لى أيضا أن نجيب محفوظ كان يريد أن يوحى لنا بغياب هذه الشخصية، فلم تكن المنتميات إلى هذه الطبقة من تلك الفئات التى كان يمكن لنجيب محفوظ أن يلتقى بها ـ ولو على درب الرواية ـ على الرغم من أنه كان

بحكم الوظيفة، وبحكم الموهبة قريبا - إلى حد كبير - من الطيف الواسع لأهل الفن.

وقد كان فى وسع نجيب محفوظ من ناحية ثالثة أن يرسم لنا شخصية أحد أقطاب الإخوان المسلمين الذين أتيح له أن يلتقى بهم بعد الحرب، ولكنه بتغييب هذه الشخصية أوحى إلينا بما أراده من التعبير عن حقيقة غيابهم عن الساحة، وبخاصة أنهم كانوا فى الحقيقة فى السجون، وقد رمز لأحدهم بالفعل بإحدى الشخصيات، ولكنه أنهى حياته عند القبض عليه فيما عرف بمؤامرة الإخوان فى ١٩٦٥.

❑

على هذا النحو يمكن لنا الآن أن نفكر - فى غرور يفتقر إلى أقدار متناسبة من خبرة واثقة - فى الشخصيات الغائبة التى كان ينبغى أن تتضمنها رواية نجيب محفوظ، ومع هذا فإن الإنصاف يدفعنا فى الوقت ذاته إلى أن ندرك وإلى أن نعترف بأن نجيب محفوظ قد اختار الأفضل حين غيّب هذه الشخصيات، وقد ذكرت فى الفقرة السابقة ثلاثة نماذج، وليس من الصعب علىّ ولا على أمثالى أن نذكر أكثر من عشرة نماذج أخرى، ولكن الحق يقتضينى أن أشير إلى أن الظروف يومها لم تكن هى نفسها الظروف اليوم، وإنما اعتراها تأثير مباشر وغير مباشر لثلاثة عوامل:

- أولها: هو أن أحدا لم يكن يحيط بالحقيقة فيما يتعلق بتلك الأيام وتلك الهزيمة على النحو الذى نحيط به الآن، وقد لا تكون إحاطتنا اليوم بظروف وطننا فيما قبل هذه الحرب كاملة ولا قريبة من الكمال، ولكنها على كل حال أكثر شمولا واتساعا ونفاذا ودقة وموضوعية من تلك المعرفة التى كانت متاحة حين كتب نجيب محفوظ روايته «المرايا».

• ثانيها: هو أن مناخ عبور الهزيمة لم يكن قد تحقق يومها، فقد كانت الهزيمة تتعمق في كل يوم، حتى إن النجاحات المحدودة التي كانت تتحقق بفضل حرب الاستنزاف كانت في أكثر من جانب من جوانبها تكرس ـ عن غير عمد ـ بصورة مباشرة الإحساس بحدود ومدى الهزيمة التي حاقت بنا، بل تضخم من قدرها، وتعمق من أثرها، لأنها كانت تلقى على المتفكرين والمتأملين السؤال الطبيعي والتلقائي وهو: بكم من الوقت بهذه الطريقة [من السنين والعقود] وبكم من الضحايا يمكننا أن نسترد ما خسرناه في ست ساعات أو في ستة أيام؟

وهكذا كان أمثال نجيب محفوظ ينصرفون بتلقائية وبموضوعية شديدة وكنتيجة حتمية لهذا المناخ إلى التفكير في حجم ما حدث، وفي سبب حدوثه بهذا الحجم وعلى هذا النحو.

• ثالثها: هو أن مناخ التعبير في ذلك الوقت وحتى ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ نفسها، كان لا يزال يتسم بالحذر، بل ويعاني من سطوة الرقابة المتيقظة **للإيحاءات** بقدر ما هي متيقظة **للنصوص**، وهكذا فقد كان على نجيب محفوظ أن يتنبه في كل ما يكتب إلى أهمية الحفاظ على حياته التي كانت تساوي عنده الكثير على الرغم من أنها باتت بعد ذلك اليوم المشئوم وهي تكاد تبدو له ولأمثاله وكأنها غير ذات معنى على الإطلاق.. ولم يكن الحفاظ على الحياة هو الهدف الوحيد، فقد كان هناك هدف آخر بالحفاظ على الحرية، وثالثا على الحفاظ على مورد الرزق . . إلخ.

إذا ما تفهمنا هذه العوامل الثلاثة بما تستحقه من التقدير المحيط بجوانبها

المختلفة فإننا نكون على باب كفيل بمساعدتنا على إدراك حقيقة هذا القدْر الكبير من الشجاعة والصدق مع النفس والإخلاص للوطن وللثورة، التى كانت تغمر نجيب محفوظ حين بدأ يكتب المرايا وحين انتهى من كتابتها على هذا النحو الموحى الجميل.

❑

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أطمئن تمام الاطمئنان إلى أننا اليوم فى مجموعنا كعرب نتمتع بالقدرة على أن نفهم هذه العوامل الثلاثة، قد يفهمها الذين وصلوا إلى الخمسين والذين تعدوها لأنهم عاشوا بالفعل هذه السنوات العجاف وهذه المشاعر القاسية، ولكن هل يستطيع أبناء الأجيال الجديدة التى لم تمر بهذه المحنة القاسية أن يستوعبوا كل ما فى هذه التجربة من عناصر دافعة إلى التأمل!!؟

لا أعتقد أنهم جميعا قادرون على الإحساس بعذاب المهانة التى أحسسناها والألم الشديد الذى كان يعترينا بالليل والنهار ويعصف بنفوسنا عصفا شديدا، ولربما كنت أنا وأقرانى أحسن حظا من آبائنا وأجدادنا الذين اكتووا بهذه المشاعر القاسية التى كانت كفيلة بتحطيم هذا الشعب وثقته فى نفسه لولا إيمانه بخالقه ورازقه.

لعلى أعتذر للقراء الذين لم يعاصروا تلك الحقبة عن الفقرة السابقة، ولكنى لا أستطيع أن أزعم أنى كنت قادرا على أن أمضى فى هذا الذى أكتبه دون أن أتطرق إليها، ومع هذا فإنى لا أجد حرجا فى أن أعتذر عنها إذا رآها بعض القراء خارجة عن الموضوع.

ولعلى بعد هذا ألجأ عند هذا الحد إلى نص قريب لنجيب محفوظ نفسه يعبر به كاتبنا عما نريد تصويره، هذا النص هو ما سجله عمود «وجهة نظر» الأسبوعى للأستاذ محمد سلماوى فى جريدة الأهرام، وهو العمود المخصص لحوارات نجيب

محفوظ، وقد نشر هذا العمود فى الذكرى الثلاثين لهزيمة يونيو (أى فى يونيو ١٩٩٧) تحت عنوان «أدب ٥ يونيو!»، وكان نصه الكامل على النحو التالى:

«قلت للأستاذ نجيب محفوظ: يصادف اليوم الذكرى الثلاثون لحرب يونيو ١٩٦٧، كيف أثرت عليك هذه الحرب ككاتب؟»

«قال نجيب محفوظ: «لقد تحولتْ كتاباتى بالكامل بعد ٥ يونيو، وكتبتُ ما لم أكن أكتبه من قبل، فمثلا مدرسة العبث التى كنت أقرؤها وأستمتع بها فى السابق أصبحت بعد ذلك هى الرؤية التى تقوم عليها رواياتى، وأسلوب صياغتها هو الأسلوب الذى أتبعه، وقد كنت قبل ذلك حين أقرؤها وأعجب بها أتصور أنها بعيدة تماما عنى، أما بعد ٥ يونيو فقد وجدت نفسى أكتب العبث بتلقائية وبإخلاص تماما مثلما كنت أكتب الواقعية فى رواياتى السابقة، وهكذا جاءت مجموعة «تحت المظلة» و«شهر العسل» و«خمارة القط الأسود».

«كذلك وجدت نفسى لأول مرة أكتب المسرح فى مسرحيات الفصل الواحد الخمس التى نشرتها فى ذلك الوقت، ذلك أن الحوار كان هو سمة هذه الفترة، حوار الإنسان مع ما يحيط به لمحاولة فهم ما يجرى من حوله، وكيف جرى ما جرى، وحوار الإنسان مع نفسه يحاول الغوص فى أعماقه عله فى بحثه عن نفسه يجد الحقيقة، لذلك كان المسرح هو الصيغة المثلى لهذا الحوار.»

«ويمكن أن يقال إن البحث عن الحقيقة هو القيمة التى سرت فى كل ما كتبت بعد ٥ يونيو ١٩٦٧، سواء فى الكتابات الروائية وفى المسرح».

ثم يقول نجيب محفوظ:

«وقد كنت أعلم طوال الوقت أن هناك شيئاً ناقصاً، وأن ما أبحث عنه غير

موجـود، والسؤال الذى أطرحـه يظل بلا جواب إلى أن تكاملت مع نفسى وعادت إلىّ الروح مرة أخرى فى «ملحمة الحرافيش» التى كتبتها بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣، لأنه إذا كان يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ هو أسوأ يوم فى حياتى، فإن ٦ أكتوبر ١٩٧٣ هو أسعد يوم فى حياتى، وأنه من لطف الله أننى عرفت اليومين، ولم أعرف اليوم الأول فقط كما حدث لمن رحلوا عن هذه الحياة قبل أكتوبر ١٩٧٣».

❑

هل لنا الآن أن نبدأ تناول «المرايا» من خلال الشخصيات التى هى فى حقيقة الأمر بمثابة فصول الرواية التى كتبها نجيب محفوظ بما قد نسميه تجاوزاً **«تكنيك الحديث من خلال الشخصيات»**، وهو الحديث الذى يشمل الرواية كلها التى تتكون من فصول متعاقبة عن شخصيات مختلفة على طريقة المعجم أو الموسوعة التى تتحدث فى المداخل عن الشخص موضوع المدخل مع الإحالة إلى المعلومات الأخرى الواردة فى الحديث ضمن مداخل الشخصيات الأخرى.

نستطيع أن ندرك كثيراً من جوانب الرؤية الفكرية والسياسية لنجيب محفوظ من خلال القراءة المتأنية للوحات التى رسمها لشخصيات روايته ومن خلال تحليله لتوجهات هؤلاء ومواقفهم من هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ودوافعهم وراء هذه المواقف، وأستطيع أن أؤكد ما إنى حفىّ بأن آخذ به نفسى من أن ألتزم بالنصوص التى أبدعها نجيب محفوظ وألا أحملها إلا ما تحتمله بالفعل، وليس هذا بالأمر الهين، وإن لم يكن أيضا بالأمر المعجز، وكل ما هنالك أننا [تقريبا] نعيد صياغة الذهب الذى قدمه نجيب محفوظ فى صورة شخصيات لنقدمه فى صورة قريبة من صور المواقف، مع اعـتـرافنا التـام والمطلق والنهـائى بأن هذا الذهب من ممتلكات [وخصوصيات] نجيب محفوظ نفسه، ومع شكرنا للحظ الجميل الذى يجعل إعادة

الصياغة التى نحاول القيام بها غير قادرة على أن تفسد الأصل الجميل، فالأصل الجميل موجود فى كتاب مطبوع خرجت منه آلاف النسخ إلى القراء منذ سنوات طوال، وهكذا فإن الذى نفعله اليوم لن يفسد الأصل الجميل، ولن يشوهه لأن الأصل باق على ماهو عليه.

ومع هذا فنحن قد نؤمل الكثير من إتمام هذه الخطوة المتواضعة التى نقوم بها الآن ونطلق عليها اسما كبيرا قد لا تستحقه وهو «إعادة الصياغة».. ومع هذا فإن الاسم البديل وهو «التأمل» قد لا يفى بنفس المعنى، فضلا عن أنه قد يبدو وكأنه أكثر مما تستحقه هذه العملية (الخطرة) التى نجريها الآن.

❑

ولأننا بصدد الكتابة الآن عن نتيجة عملية التحليل التى أجريناها للنص الذى بين أيدينا، فسوف نمضى بطريقة تصطنع اللطف والتعطف لنصل إلى ما نريد للقارئ أن يتأمله فى هذا النص الثرى من نصوص نجيب محفوظ.

سوف نتأمل المضامين التى تناول فيها نجيب محفوظ هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى رواية «المرايا» سواء بطريقة مباشرة وبطريقة غير مباشرة، وسواء بطريقة عابرة وبطريقة تراكمية، وسوف نقرأ لهذا السبب الرواية، أكثر من مرة، سطرا سطرا وجملة جملة، وربما يبدو لنا أو للقارئ أننا نلخص بطريقة وافية وقائع الرواية أو معظم شخصياتها، وهذا ضرورى بالطبع من أجل أن نتبين بوضوح مدى الصورة التى أحب نجيب محفوظ أن يرسمها بل الصعوبات والمتاعب التى واجهته فى أن يرسمها، بل الإيحاءات والأفكار التى برع كذلك فى أن يوحى بها من خلال هذا العمل الفنى.

نستطيع أن نبدأ بأن نذكر الآن أن الرواية انتظمت ٥٥ شخصية قدم نجيب محفوظ كلا منها باسم محدد، وقد آثر ألا يبدأ بالشخصيات التى بدأت بها ومن خلالها معرفته بالآخرين، ولا بالشخصيات المحورية، وإنما هو قد رتب هذه الشخصيات على حسب الحروف الهجائية، كما لو أنه كان يصنع معجم شخصيات، ولبعض هذه الشخصيات دور (بالطبع) فى حديث نجيب محفوظ عن ١٩٦٧، على حين أن بعضها الآخر يفتقد هذا الدور، وسنبدأ بالمرور السريع على الشخصيات التى لم يتح لها أن تشارك الصراع الفكرى الذى أداره نجيب محفوظ عن الهزيمة، وذلك لكى ندرك المحيط الذى أثرت فيه الهزيمة ضمن المحيط الأكبر من شخصيات عاشت الحقبة التى تتناولها الهزيمة، وكأنما كان نجيب محفوظ وهو يكتب روايته واعياً لأسلوب علم الإحصاء فى التفريق بين عينة البحث والعينة الشاملة. وبعد هذا مباشرة نتناول بقدر من التفصيل أو التحليل مواقف وأفكار الشخصيات الأخرى التى شاركت فى الصراع.

أما الذين لم يشاركوا فهم مجموعة من الشخوص الذين عايشهم نجيب محفوظ بعمق لفترات طويلة، وسوف نلاحظ أن بعض هؤلاء توفى قبل وقوع الهزيمة بسنوات طويلة كالشخصية الأولى: الدكتور إبراهيم عقل الذى توفى فى ١٩٥٧، والشخصية الرابعة أنور الحلوانى الذى مات فى شبابه برصاص الإنجليز، والشخصية الخامسة بدر الزيادى الذى مات هو الآخر فى شبابه شهيداً للحركة الوطنية، والشخصية التاسعة جعفر خليل الذى مات سنة ١٩٥٠ بعد عودته من أمريكا مباشرة.. وهكذا أيضا الشخصية السادسة عشرة سابا رمزى الذى انتحر فى سن مبكرة، والشخصية الثانية والعشرون شعراوى الفحام الذى توفى فى مطلع الحرب العالمية الثانية (١٩٤١)، والشخصية الواحدة والثلاثون عدلى المؤذن الذى

توفى فى الخمسينات، والشخصية الثانية والثلاثون عبد الرحمن شعبان الذى توفى فى مطلع ١٩٥٢، والشخصية الثالثة والثلاثون عبد الوهاب إسماعيل الذى قتل فى منتصف الستينات، والشخصية السادسة والثلاثون عدلى بركات الذى انتحر بثروته [وهذا هو أبلغ تعبير عن سبب وفاته]، والشخصية التاسعة والعشرون طه عنان الذى استشهد وهو فى المرحلة الثانوية، وكذلك عشماوى جلال (الشخصية التاسعة والثلاثون) الذى كان يتولى فى العشرينات قتل الطلبة المشاركين فى الحركة الوطنية، وعصام الحملاوى (الأربعون) الذى هو والد البنات المتحررات.

❑

كذلك نجد المجموعة الثانية التى تمثل شخصيات أخرى غابت عن إدراك نجيب محفوظ، ومن ثم فقدغابت معرفته بأحوالها منذ ما قبل الواقعة، فهو لا يدرى عن أمرها شيئا: صفاء الكاتب محبوبته الأولى (الشخصية الخامسة والعشرون).. أو تباعدت عن الحياة العامة مثل صبرية الحشمة (الشخصية السابعة والعشرون)، أو لم يعد نجيب محفوظ يعرف عنها شيئا بعد فترة الشباب سعاد وهبى (الشخصية التاسعة عشرة)، والساعى صقر المنوفى الذى رآه لآخر مرة فى ١٩٦٠، وطنطاوى إسماعيل الموظف الأمين (الشخصية الثامنة والعشرون)، وفتحى أنيس (الشخصية الرابعة والأربعون)، وكذلك محمود درويش أستاذ فلسفة التصوف (التاسعة والأربعون) الذى سافر للعمل فى إحدى البلاد العربية.

❑

وهناك بالإضافة إلى أولئك الذين غيبهم الموت وأولئك الذين كانوا خارج منطقة وعى نجيب محفوظ بوضعهم فى الحياة نقابل فى الرواية فئة ثالثة من الذين توقفت علاقة نجيب محفوظ بهم قبل هذا الحدث الجلل، ولهذا فإنهم لم يحدثوه أو

لم يتحدثوا أمامه بأى تعليق على نكسة ١٩٦٧ لأنهم لم يلتقوا به بعدها، فقد أوقف هو (أو الظروف) علاقته بهم قبل النكسة، ومن هؤلاء مثلا الشخصية الثانية عشرة (درية سالم).

❑

أما المجموعة الرابعة من الشخصيات فتمثل أولئك الذين التقى بهم نجيب محفوظ بعد النكسة مباشرة أو بفترة، ولكن محور حياتهم ومن ثم حوارهم معه لم يشر إلى هذه النكسة من قريب أو بعيد، وهنا بالتحديد ينبغى أن يبتدئ تحليلنا لشخصيات «المرايا» أو شخصيات نجيب محفوظ التى تعمد أن يصورها وهى تحيا فى عصر الهزيمة، ولكنها فى الوقت ذاته لا تنفعل بالحدث وكأنها لم تعشه على الإطلاق..

وربما أدرك القارئ الآن سر عنايتى بحصر شخصيات المجموعات الثلاث الأولى التى لم ير نجيب محفوظ صدى لمعايشتها للحدث بحكم ظروفها، أما هذه المجموعة فقد عاشت فى الزمن بالفعل ورآها نجيب محفوظ وهى تعيشه، بل قابلها وعايشها ولكنها لم تنفعل بالحدث أو فلنقل إنها **عاشت فى ذلك الزمن ولكنها لم تعشه**.. وسنجد هناك مجموعة أخرى هى المجموعة الثالثة عشرة ابتعدت بكامل إرادتها عن الحدث على الرغم من أنهم كانوا فى بؤرته.. أى أنهم لم يشاءوا أن يعيشوا الحدث. وهكذا نجد الفارق بين من ابتعد بظروفه (المجموعة الرابعة) ومن ابتعد بإرادته (المجموعة الثالثة عشرة) وبين مَنْ لم يعيشوا الزمن نفسه (المجموعات الثلاث الأولى).

وأبرز أمثلة المجموعة الرابعة من شخصيات «المرايا» الشخصية العاشرة حنان

مصطفى (حبه القديم) ابنة البك القديم والسيدة التركية والتى كانت قد تركت الحى كله منذ زمان طفولته بعدما عرضت أمها على والدة نجيب محفوظ زواجهما وهو لا يزال فى الثالثة عشرة أو لم يبلغها.. ومضت السنوات فلم تقع عينه على حنان منذ غادرت حيهم حتى التقى بها فى حى جليم بالإسكندرية فى ١٩٦٩.

والأمر نفسه تقريبا نجده مع الشخصية الحادية عشرة: خليل زكى الذى أثرى من الحرام ولم يره نجيب محفوظ فيما بين ١٩٥٠ و١٩٧٠ حتى رآه وهو جالس فى مقهى «التريانون» بالإسكندرية، وعرف منه أنه أنجب مهندسين وطبيبا وطالبة بالآداب، وأنهم دوخوه بمناقشاتهم السياسية ولم ينشأوا كما كان يتمنى مثله: لا يهتمون إلا بأنفسهم ومستقبلهم..

وهكذا كان نجيب محفوظ حائرا فى قدر هذا الرجل وهو يحدث نفسه فى شأنه بصوت عال فيقول:

«... وجعلت أختلس إليه النظرات متسائلا: ترى هل يثب إلى العدوان إذا تهيأت أسبابه؟ إلى أى مدى تغير حقا؟ وكيف ينظر اليوم إلى ماضيه؟ وبأى صورة يتصوره أمام أبنائه؟ وهل يطيق أن يعيد أحد سيرته؟ وألا يعتبر إنجابه وتربيته هؤلاء المهنيين كفارة عن أى ماض أسود؟ وأى الحلين كان أفضل، أينجو من القانون رغم جرائمه ليهدى للوطن أربعة من العلماء، أم أنه كان من الضرورى أن يُقبض عليه لتستقر العدالة فوق عرشها؟! وتذكرت قول الأستاذ زهير كامل: «بت أعتقد أن الناس أوغاد لا أخلاق لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هى: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد».

بعد هؤلاء جميعا أو بالأحرى قبل هؤلاء جميعا نأتى إلى الشخصيات التى أدت أو لعبت دورا فى الانفعال والتأثر بالحدث الجلل، أو كما يسميه نجيب محفوظ «الواقعة»، وهؤلاء فى حقيقة الأمر يضمون أطيافا مختلفة من البشر.

فمنهم أعداء الثورة وهم كثرة، ومتنوعون ولكل منهم أسبابه، وسوف نتحدث عن هؤلاء بشىء من التفصيل بعد قليل، وسوف نعتبرهم [لدواعى التقسيم والتبويب فقط] بمثابة المجموعة الخامسة، وربما تمثل هذه المجموعة أهم مجموعات شخصيات هذه الرواية التى تعمقت دراسة موقف النفوس الإنسانية تجاه هزيمة الوطن.

- وسوف نتناول فيما بعد هذا فى المجموعة السادسة تحليل شخصيات المنتمين للثورة الذين كانوا لا يزالون على اقتناع بها رغم هذه الهزيمة النكراء، ومن اللافت للنظر أن هذه المجموعة لا تضم فى مرايا نجيب محفوظ سوى شخصية واحدة.

- ثم نتناول فى المجموعة السابعة نموذجين للشخصيات المتعقلة التى نجحت، ولو ظاهريا، فى تجاوز الهزيمة، وهما الدكتوران صادق عبدالحميد (الشخصية الثالثة والعشرون) وعزمى شاكر (السابعة والثلاثون).

- وبعد هذا نقابل موقف الشباب أو الجيل الجديد، حيث نجد المجموعة الثامنة التى لا تضم إلا شخصية واحدة، وإن كانت هذه الشخصية تعبر عن كثيرين جدا، ومن زى الشاب الذى يلعب دور هذه الشخصية وقد فضل الهجرة إلى أمريكا.

- وفى المقابل نجد المجموعة التاسعة تمثل النموذج الآخر للشباب الذى لم يتح له

تعليمه التفكير فى الهجرة والحصول على وطن آخر، وتمثل هؤلاء الشخصية الرابعة والعشرون صبرى جاد.

- وتمثل المجموعة العاشرة أولئك البسطاء العاديين الذين أوذوا بسبب الحرب، ومن هؤلاء شخصية مدرس الرياضيات الذى كان معنيا بعمله فحسب وتربية أولاده، فأوذى بسبب الحرب، والبيروقراطى القديم الذى أوذى فى زوج ابنته.. إلخ).

- أما المجموعة الحادية عشرة فتمثل أولئك الذين كانوا على بساطتهم وبعدهم عن الحرب مهمومين بها وبما قد تؤول إليه، كعبدة سليمان التى عانت فى زواجها وكان يكفيها منه ما يشغلها، ولكنها مع ذلك تقابل نجيب محفوظ متسائلة عن المستقبل : حرب أم صلح؟ (الشخصية الرابعة والثلاثون).

- أما المجموعة الثانية عشرة فتضم الذين كانوا لا يعتنون على الإطلاق بأخبار الحرب والهزيمة والحياة السياسة ولا يهمهم منها شىء كمثل محقق (محرر) التراث القديم عباس فوزى.

- وهناك أخيرا المجموعة الثالثة عشرة - وهى بيت القصيد فى رواية المرايا - وهى تضم الشخصيات المستبعدة من الانفعال بالحدث. وهؤلاء يمثلون طبقات مهمة من المثقفين والفنانين، ولكنهم - للأسف الشديد - أو هكذا أراد نجيب محفوظ بعيدون تماما عن أزمة الوطن، فلا الأزمة مرت بهم ولا بخاطرهم، أو فلنقل إنها لم تهزهم من الأعماق مثلما هزته هو. ومن أسف أن هذه المجموعة تضم :أستاذه الدكتور ماهر عبد الكريم (الشخصية الثامنة والأربعين) أستاذ الفلسفة الكبير، والذى يعد نموذجا للإنسان الكامل علما وخلقا ونبلا، فضلا عن كرم خلقه وفعله الخير وانصرافه للعلم وبعده عن التعصب، كما تضم حجة

القانون المعاصر الدكتور رضا حمادة (الشخصية الثالثة عشرة)، وأستاذ الاقتصاد البارز الدكتور كامل رمزى صاحب كتاب المذاهب الاقتصادية (الشخصية السادسة والأربعين)، والصحفى الشيوعى البارز عجلان ثابت (الشخصية الخامسة والثلاثين) الذى هو مؤلف واحد من أهم الكتب عن الفكر العربى القومى، كذلك تضم فنانتين مهمتين: ممثلة السينما فايزة نصار(الشخصية الثالثة والأربعين)، والفنانة التشكيلية عزيزة عبده (الشخصية الثامنة والثلاثين)، وكذلك الصحفية الشيوعية الجميلة عالية الثقافة غزيرة المعلومات مجيدة عبدالرازق (الشخصية الخمسون)، وكذلك يمكن لهذه المجموعة أن تضم الشخصية الثامنة (جاد أبو العلا) الذى لم يكن له أى موقف واضح ولا مذكور من النكبة، على الرغم من أن الحديث عنه قد شمل الفترة التى عاشها الرواى عقب النكسة، ثم الموظفة الحقوقية الجديدة بنت جيل الثورة كاميليا زهران (الشخصية السابعة والأربعون).

❑

ونأتى الآن إلى الحديث بتفصيل عن موقف الشخصيات من نكبة ١٩٦٧ ، وما يعكسه هذا الموقف.

بالطبع لن نتناول هنا **شخصيات المجموعات الأربع الأولى** الذين لم يكن من الوارد طبقا للبناء الروائى أن يكون لهم رأى فيما حدث فى ١٩٦٧، فهم إما قد غادروا الحياة قبلها، أو لا يعرف نجيب محفوظ عنهم شيئًا فى هذه الحقبة أو كانوا خارج بؤرة الحدث تمامًا.. ويمثل عدد شخصيات هذه المجموعات الأربع ٢٦ شخصية على حين يصل عدد شخصيات بقية المجموعات التسع ٢٩ شخصية،

وهذا ما يدلنا على مدى دقة تصوير محفوظ لما اعتمل فى فكره فيما يتعلق بهؤلاء الذين طاف تفكيره بهم وهو يحدق فى المرايا.

ولا يمكن لنا أن نتزيد هنا فنقول إنه كان بإمكان نجيب محفوظ أن يقلل من أعداد هؤلاء، فذلك مردود عليه بحقيقتين مهمتين، الحقيقة الأولى: أن بناء هذه الشخصيات كان ضروريا من أجل بناء الشخصيات الأخرى فى المرايا. والحقيقة الثانية: أن النكسة لم تكن نهاية العالم (ولا حتى بدايته) بالنسبة إلى مَنْ لم يعاصروها.. كما أنها كانت الشيء نفسه بالنسبة لمجموعة أخرى من شخصيات المرايا على الرغم من معاصرتهم لها.

❑

فلنبدأ إذاً فى تأمل مواقف شخصيات المجموعة المختلفة تبعاً للترتيب أو التقسيم الذى انتهينا منه لتونا.

المجموعة الخامسة: أعداء الثورة والحاقدون عليها :

١ - يأتى فى مقدمة هؤلاء الشخصية الثانية من شخصيات (المرايا) وهو أحمد قدرى ضابط البوليس السياسى فى عهد الملكية، الذى أحالته الثورة إلى المعاش، يحكى نجيب محفوظ كيف وجده عندما زاره بعد مرضه فى خريف ١٩٦٧ فيقول:

«... وجعلت أنقب فى وجهه المريض عن الوحش الضارى الذى نشر الفزع فى الزمان القديم، أو الشاب المهرج الظريف ولكن عبثا، ولم يكن فى صدرى حياله إلا شعور بالواجب. وعلمت أنه يقيم بشقة صغيرة بالزمالك، وأنه لم يتزوج طبعا، وأنه لم يعد له من صديق سوى نفر من كهول اليونانيين المدمنين لسباق الخيل. وهزّ رأسه ثم غمغم: يخيل إلى أننى انتهيت كما انتهوا.. ففطنت على البداية إلى مَنْ يعنى: كان ٥ يونية مازال ممتزجا بريقنا كالعلقم».

«وأدركت من فورى مدى الحقد الذى عاشره مَنْ إحالته الثورة على المعاش. وكرهت مناقشة شماتته المنغصة بسوء حاله لتحديها الجارح لعواطفى الشخصية. وعلى أى حالٍ لم تتحقق نبوءته السوداء فيما يتعلق بحياته أو حياة الثورة. غادر المستشفى عقب ذلك بثلاثة أسابيع. وزارنى فى بيتى للشكر. تبدى فى حال صحية مقبولة، وراح يغازل ذكريات الجيل السابق».

هكذا يقف نجيب محفوظ بكل وضوح وبكل انتماء فى صف الشعور بالسعادة الطاغية، لأن الثورة (وكذلك الحياة) لم تلته كما تنبأ لها هذا الضابط القديم الموتور من ظلمها له.

٢ - ثم تأتى الشخصية الرابعة عشرة شخصية تاجر السوق السوداء زهران حسونة الذى أثرى فى أثناء الحرب العالمية، وجاءت الثورة فأممت شركته الذى نُحتت أحجار بنائها على حد وصف نجيب محفوظ من الذكاء والغش والإرادة والانتهازية والإيمان والفجور!!

ويصفه نجيب محفوظ بأنه كان يتظاهر بالشجاعة ورباطة الجأش، وأن الحذر كان يذهب به أحيانا إلى الثناء على القرار الذى جرده من ثروته حيث كان يقول: «عدالة علينا أن نقبلها على العين والرأس».

ولكن نجيب محفوظ يرى أنه كانت تفضحه أحيانا ومضات فرح للكوارث التى تحيق بالثورة، إذ لم يكن يحسن إخفاء مشاعره فى تلك اللحظات، ويعدد نجيب محفوظ بعض كوارث الثورة التى فرح لها هذا التاجر «كالأزمة الاقتصادية، وورطة اليمن، وأخيراً ٥ يونيو الذى دار رأسه فيه بنشوة النصر!!».

٣ - ثم الشخصية الخامسة عشرة الدكتور زهير كامل، وهو نموذج للمثقف

الانتهازى المتمرغ فى السقوط حتى إنه يتمتع بفقدان إحساس الحياء المصاحب للسقوط، ويبلور نجيب محفوظ موقف هذا المثقف الانتهازى من الثورة ومن هزيمة ١٩٦٧ وما سبقها وما أعقبها فى فقرة مهمة يقول فيها:

«... وأوشك زهير كامل أن يعلن ارتداده فى ظرفين لولا حسن حظه، أولهما الاعتداء الثلاثى عام ١٩٥٦، والآخر النكسة عام ١٩٦٧، ففى كل مرة خُيل إليه أن الثورة صُفيت وانتهت فتوثب للعمل لمستقبله من جديد. ووضح لى فى المرتين مدى ما ينطوى عليه من انتهازية وزيف، على الرغم من أنه يدين للثورة بجاهه وماله. وقارنت بينه وبين رضا حمادة [إحدى شخصيات المرايا وسنعرض له بالتفصيل]، فكلاهما يتمتع بثقافة إنسانية عميقة وشاملة، وكلاهما من الجيل السياسى السابق الذى أجهضته الثورة، وكلاهما ينتمى إلى عقيدة معادية للاشتراكية، ولكن أحدهما يحتوى على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات، والآخر تستقر فى أعماقه روحٌ نبيلٌ يستحق الفرد من أجله أن يقَدَس ويعبد».

ويبدو بوضوح أن نجيب محفوظ كان حريصا على أن ينتقم من هذا المثقف الانتهازى، وأنه حقق هذا الانتقام على يد القدر:

«... وفى العام التالى للنكسة دهمته أحداث فى صميم أسرته لم تخطر له ببال، إذ صمم ابناه المهندسان على الهجرة إلى كندا! ولم يستطع أن يثنيهما عن عزمهما، أما أمهما فمالت إلى تشجيعهما، وما لبث الشابان أن حققا رغبتهما بالفعل. وحزن زهير لذلك حزنا شديدا وراح يقول لى:

- أنا فلاح. ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به.

فسألته عما دعاهم للهجرة فقال:

ـ الأمل فى مستقبل أفضل..

وهزّ منكبيه فى أسف وقال:

ـ لم يعد للوطن قيمة، تركاه فى محنة قاسية، عن عدم اكتراث أو يأس، وجريا وراء الأمل الخلاب..».

وبعد هذا فإن نجيب محفوظ بطريقته *يواصل الانتقام للوطن من هذا الانتهازى، فقد استفحل مرضه حتى أقعده بصفة نهائية فى الفراش، فأطفأ الشعلة المضيئة الوحيدة فى حياته المعتمة وهى شعلة العقل.*

٤ ـ ويأتى بعد هذه النماذج الثلاثة سالم جبر (الشخصية السابعة عشرة) الذى بدأ حياته وفديا وابتعد عن الوفد بعض الشيء ثم عاد إليه، وفرح بالقضاء على الإقطاع وعزل الملك، ولكنه حذر من إلغاء الأحزاب، إذ كيف تمضى البلد بلا قاعدة شعبية، وفرح بالإصلاح الزراعى، ولكنه حذر من أن توزيع الأرض على الفلاحين سيقوى غريزة الملكية المتوارثة من عصور الظلام، كما استنكر القضاء على القوى الإيجابية فى الأمة متمثلة فى الشيوعية والإخوان. ونجيب محفوظ يرى بعد طول تفكير أن هذا الشخص خلق ليكون معارضا حبا فى المعارضة قبل كل شيء، فإذا كانت الدولة إقطاعية فهو شيوعى، وإن تكن يسارية فهو محافظ(!!!)

أما موقف هذا المفكر من كارثة ١٩٦٧ وموقف نجيب محفوظ من التصدى لأفكاره فتلخصها الفقرة التالية:

«... وكان من بين الذين سُروا فى أعماقهم بالكارثة التى حلت بالوطن فى ٥

يونية ١٩٦٧ ! وهو موقف غريب ولكن تبناه جميع أعداء الثورة، وشاركهم فيه ذلك الرجل الشاذ الذى خُلق ليعارض الدولة وليقف منها موقف النقيض دائما وأبدا. قال منفسا عن حقده:

- ما جدوى أن نتحرر من طبقة لنقع فى قبضة الدولة الفولاذية؟ السلطة الحاكمة أثقل من الطبقة، أثقل من الشيطان نفسه!».

ويتصدى نجيب محفوظ بنفسه وفكره لأفكار هذا الرجل بطريقة مباشرة وهو يقول:

«... ولكن الثورة لم تتلاش، بل مضت تضمد جراحها، وتجدد حيويتها، وتتأهب لمعركة جديدة. ومضى هو يحنق من جديد ويتمزق بين المتناقضات، وإن حافظ فى الظاهر على شخصيته التى عرف بها منذ عام ١٩٢٤، وإن ظل قلما أمينا من أقلام الثورة. ورغم بلوغه السبعين من عمره، ورغم وحدته وخلوه من روح الدعابة، فهو يتمتع بصحة جيدة ونشاط موفور. ولعله المصرى الوحيد من معارفى الذى لم أسمعه يمزح أو ينكت أبدا، ولا عرفت له هواية فنية، حتى الغناء لا يتذوقه. والأدب النادر الذى يطلع عليه يقرؤه قراءة سياسية خاصة كأنه خلق شاذ مقطوع الصلة بالإمتاع والجمال. وركز فى الأيام الأخيرة على الإيمان بالعلم، إيمانا نسخ إيمانه القديم بالأيديولوجية، ويتساءل مرارا:

- متى يحكم العلم؟... متى يحكم العلماء؟!..

هذه هى آخر هتافاته، وهى خليقة بإشباع معارضته الأزلية لجميع أنواع الدول، حتى قال رضا حمادة:

- إنه رجل مجنون، هذه هى الحقيقة!

فقلت (الضمير لنجيب محفوظ):

- وثمة حقيقة أخرى وهى أن أقواله التى تَنَكَّر لها خلقت فى أجيالٍ أثرا لا يمحى!

وهكذا نجد نجيب محفوظ *متعاطفاً بعض الشيء مع بعض أفكار هذا المفكر، وإن كان يتصدى لبعضها الآخر بالتفنيد مع اعترافه بآثار فكره الباقية فى الأجيال(!!)*

٥ - أما الجراح اللامع سرور عبدالباقى (الشخصية الثامنة عشرة) المنتمى للطبقة الثرية، فقد كان فى شبابه بعيدا عن السياسة، ولكن الثورة طبقت الإصلاح الزراعى، فطارت من ملكية أسرته خمسمائة فدان بجرة قلم، وذُهل الرجل الذى تعود على تقديس المال والملكية، ونَبَض قلبُ أسرته بالعداوة، وعُدّ هو من ضمن الأعداء، ولذلك لم يتعين عميدا للكلية رغم استحقاقه العلمى، فامتلأت نفسه بالمرارة والحزن.. وكان يرى أن نجاتنا فى ١٩٥٦ لم تتحقق إلا بفضل الولايات المتحدة، وأنه يحسن بنا ألا نفرط فى الصداقة الأمريكية بعد اليوم.. ولما أعلنت القوانين الاشتراكية اجتاحه الرعب وغشيته كآبة ثقيلة.. وكان يرى أن الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين.

ويروى نجيب محفوظ كل هذا بتفصيلات نفسية وروائية متمكنة ثم يجاهر برأيه بوضوح فى هذه النوعية من المهنيين الكبار قبل أن يروى موقفه من نكبة ١٩٦٧ ويقول:

«فسألته:

- وما رأيك فى مشكلة الفقر فى مصر؟

فأجاب بسذاجة:

ـ كلٌ يتقرر موضعه على طاقته وتلك هى حكمة الله سبحانه!

«فأدركت أنه مهما يكن من علم الإنسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعى الثقافى المتضمن طبعا الوعى السياسى.. وأنه مهما يكن من تفوقه وبراعته وفائدته فلن يعتصر من ذاته إمكاناتها الإنسانية حتى ينظر إلى نفسه لا باعتباره جوهرا فردا مستقلا، ولكن باعتباره خلية لا تتحقق لها الحياة إلا بوجودها التعاونى فى جسد البشرية الحى. لذلك بدا الدكتور سرور بجسمه القوى ووجهه الوسيم ومهارته العلمية الخارقة، بدا متدهورا مترنحا، لا لشىء إلا لأن يدا أخذت من فائض الذين يملكون كل شىء لتضميد جراح الملايين الجائعة. وشدّ ما جزعت عندما آنست فى نبرته شماتة عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧، عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنه النجاة. وناقشت ذلك الموقف مع الصديق كامل رمزى فقال:

ـ لا تدهش ولا تجزع، الأفضل أن تعرف الحقيقة مهما تكن غريبة وقاسية، ثمة جانبان يتصارعان بلا هوادة يقف فى أحدهما الروس والاشتراكيون العرب وطوائف الشعب التى وجدت فى الاشتراكية جنتها الموعودة، ويقف فى الآخر الأمريكان وإسرائيل والذين رأوا الاشتراكية ردعا لطموحهم وجشعهم.

فسألته :

ـ والوطن والوطنية ؟

فأجاب :

ـ تغير مفهوم الوطن ومضمونه، لم يعد أرضا ذات حدود معينة، ولكنه بيئة روحية تحدها الآراء والمعتقدات!»

وهكذا، فإن نجيب محفوظ يصور طرازاً بارزاً من طوائف الشامتين فى الثورة دفعتهم ظروفهم إلى هذه الشماتة بدون أن تكون لديهم سوء نية.. وهو لا يلتمس لمثل هذا الجراح الكبير العذر، ولكنه يتفهم موقفه، فهو يصف رأيه فى مشكلة الفقر بأنه رأى ساذج، كما يبين لنا فى عبارات واضحة ومباشرة أن مشكلته تكمن فى غياب الفهم المفقود الذى لم يتحقق له، ومع هذا فإن نجيب محفوظ لا يترك الأمور تبدو هكذا بدون توازن، وإنما هو يورد وجهة نظر أخرى فى الموضوع وهى وجهة النظر التى ينطق بها الصديق كامل رمزى والتى تقول بمفهوم جديد للوطن، فالوطن بيئة روحية وليس أرضا ذات حدود.

والحاصل أننا نرى نجيب محفوظ حريصا فى براعة فائقة على أن يصور الحقيقة وكأنها موجودة فى المنطقة الواقعة بين فهمين، فهم نجيب محفوظ الذى تركه يجرى على قلمه، وفهم كامل رمزى الذى هو أيضا فهم آخر لنجيب محفوظ وقد حرص على أن يورده وعلى أن يجعله فى المحل الثانى من الاقتناع.

٦ ـ ثم هذا هو سيد شعير (الشخصية العشرون) الذى حقق ثروة من تجارة البغاء ثم من تجارة المخدرات، يبدع نجيب محفوظ فى وصف حياته وثروته وتجاربه كأنه يمهد لرد فعله تجاه نكبة ١٩٦٧ حيث يقول:

«... ولكن ندر اللقاء بيننا. وربما مرت أعوام دون لقاء على الإطلاق. أو يقع لقاء مصادفة فى مقهى الفيشاوى. ولا أنسى يوم أقبل علىّ فى الأسبوع التالى للنكسة. كنت جالسا وحدى أجتر الهم الثقيل الذى لم أعرف له نظيرا من قبل. سلم وجلس ثم بادرنى متسائلا:

ـ هل يقضى احتلال سيناء على التهريب حقا؟!

أحنقنى سؤاله. اعتبرته غاية ما بعدها غاية فى الاستلقاء خارج الزمن. وأدرك بذكائه استيائى فسكت. ومضى يدخن النارجيلة صامتا.. ثم تمتم:

- كعادتك دائما لا شىء يهمك مثل السياسة ووجع الدماغ.

فسألته بضيق :

- الظاهر أنك لم تسمع بما وقع؟

فقال وهو يشكم رغبته فى السخرية:

- سمعنا وشفنا العجب!»

وهكذا التقط نجيب محفوظ هذا النموذج بذكاء شديد ليوظفه فى سياق هذه الرواية ليؤدى هذا الدور المتميز والموجود فى حياتنا العامة بالفعل، ومع هذا فإن نجيب محفوظ يتعالى على شماتة هذه الشخصية فى الوطن.

٧ - وهناك أيضا رجل الأعمال الذى لا قلب له عيد منصور (الشخصية الواحدة والأربعون) لم يعرف الحب، ولا رغب فى الزواج، ولا حنّ إلى الأبوة، ولازال وهو فى الستين وما بعدها يعمل بنفس الهمة فى جمع المال بالقدر ذاته من النهم، ولا يعرف للحياة غاية أخرى، وقد أوذى بسبب الثورة رغم أنها لم تؤذه، ولكنها زعزعت طمأنينته وأقلقت ثقته وكاد يفكر فى الهجرة بعد العدوان الثلاثى واختفاء كثير من أصدقائه اليهود.

أما موقف هذه الشخصية من نكسة ١٩٦٧ فيلخصه نجيب محفوظ بهذه الفقرات:

«وتابع نشاطه بنفس القوة بالرغم من مخاوفه، واسترد أنفاسه فى يونية عام

١٩٦٧ ، ومع أنه راقب الأحداث التالية للهزيمة بدهشة وذهول، إلا أنه لم يفقد الأمل هذه المرة، وقال لى بشماتة:

ـ لا مفر!

وقال أيضا :

ـ طبعا سمعت عن صحوة الموت!

ومرت أشهر، وعام وعامان وثلاثة أعوام، وتحسنت الأحوال، وصلُبت الإرادة، وتجددت آمال النضال، ولكن ذلك لم يهزمه وإن أقلقه أحيانا، واعتصم بفكرته الثابتة، وغذاها بمتابعة الإذاعات المعادية، والشائعات المغرضة، ولما وجد منى ومن رضا حمادة اتهاما لوطنيته قال:

ـ لا وطنَ بعد اليوم إلا وطن المصالح، فإما أن تكون أمريكيا، وإما أن تكون سوفيتيا، إما أن تقبل الحرية والإرادة الخلاقة والإنسانية، وإما أن تقبل النظام والعدالة العمياء والإرادة الميكانيكية».

وبعد هذا التركيز والتكثيف الذى يضعه نجيب محفوظ على لسان هذه الشخصية نراه وهو يعاود الحديث بقدر من التفصيل عن رؤيته للعلاقات الدولية وأثرها على أزمتنا، وهو يقول:

«فقد الأمل فى الإنجليز، وأصبح حلمه الذهبى أن تسيطر أمريكا على الشرق الأوسط، وأن تحدد له مدارا حضاريا فى مجالها الحيوى يلعب فيه العرب واليهود دورا متكاملا».

«هكذا علمته المصلحة أن يتكلم فى السياسة، ومازال يعمل، يشيد العمارات

ويبيعها، يقيم فى ميناهاوس يستمتع بحياته كأعزب مقطوع من شجرة، ويمارس الجنس كل شهر مرة. ويزورنا فى أوقات محددة تحية لعشرة نصف قرن، صداقة لا حب حقيقى ولا احترام، نراه مخلوقا شاذا قُد من حجر، ويرانا مجموعة من الحمقى العابثين بلا قيمة حقيقية».

وعلى الرغم من أن نجيب محفوظ يكاد يتلمس العذر لمثل هذا الرجل فى تصرفاته وتفكيره، بل ويصور تفكيره على أنه نتاج طبيعى لنشاطه وشخصيته، فإنه يجاهر فى وضوح على نحو ما رأينا فى الفقرة السابقة بأنه: مخلوق شاذ قد من حجر.

❑

المجموعة السادسة: المنتمون للثورة:

يمكن لنا أن نقول عن هؤلاء إنهم هم الذين لا يزالون على انتمائهم للثورة من رجالها، وعلى الرغم من أننا نتوقع أن يكون هؤلاء كثيرى العدد فإننا نفاجأ بأنهم قد انحصروا فى شخصية واحدة فقط، وليس معنى هذا أن نجيب محفوظ كان حريصا على تقليل حجم الانتماء للثورة، فقد تولى هو نفسه محاورة كل منتقديها والدفاع عنها مستخدماً وجهة نظرها، بل ما فوق طاقتها الفكرية من وجهات نظر، وقد أدى نجيب محفوظ هذا بإخلاص على مدى الرواية كلها، ولكن شخصيات المرايا فرضت أن تنحصر هذه المجموعة فى شخصية واحدة هى شخصية قدرى رزق (الشخصية الخامسة والأربعون)، وتبدأ معرفة نجيب محفوظ به من تردده وهو ضابط فى سلاح الفرسان على شقة عدلى بركات الفاخرة فى أوائل ١٩٤٨ (وعدلى بركات هو صديقهم الثرى السكير الذى أضاع ثروته الطائلة بسرعة

فائقة)، وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ «اكتشفنا أنه كان ضمن مجموعة الضباط الأحرار فعجبنا لقدرته الخارقة على الكتمان»، وقد أصيب الضابط قدرى رزق فى حرب ١٩٥٦ فى ساقه وفقد عينه اليسرى فاضطر إلى ترك الجيش وعمل فى وظيفة ثقافية كبيرة بوزارة الإرشاد، وكان على استعداد دائما للإيمان بما تدعو الثورة للإيمان به، إذ أن إيمانه الحقيقى كان بالثورة، وبها وحدها .

ويصور لنا نجيب محفوظ أثر الهزيمة عليه فيقول:

«ولما حاقت بنا هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ ، زلزل لها كيانه حتى خيل إلى أنه يموت وهو حى، وتساءل فيما يشبه الهذيان:

«أيذهب ذلك التاريخ كله هباء؟!

ونظر فى وجوهنا بوجه شاحب وتساءل مرة أخرى:

- أنركع مرة أخرى تحت أقدام الرجعيين والاستعماريين؟!

كان يجاهد بعنف ليسترد أنفاسه اللاهثة، وليخلق من الضياع أملا جديدا، ويحول الهزيمة إلى درس وعبرة. وكلما مرّ يوم دون استسلام استرد بعضا من عافيته، وعكف على أرض الواقع الصلبة يحفرها بأظافره يستخرج منها بعض قطرات من ندى الأمل. وما أشبهه فى ذلك بالدكتور عزمى شاكر أو الدكتور صادق عبدالحميد [يشير نجيب محفوظ إلى شخصيتين من شخصيات المرايا]، وكان يقول:

- ما تاريخ العرب الحديث إلا سلسلة من الهزائم أمام الرجعية والاستعمار، ولكن ما يكاد اليأس يخيم حتى ينبثق من ظلماته نور جديد، وهكذا ذهب التتار والصليبيون والإنجليز، وبقى العرب!».

«وهو يريد للثورة أن تبقى، وأن تنتصر، مهما كان الثمن، كيلا تتعثر النهضة فى زمن لم يعد يسمح بالتخلف يوما واحدا، ويتابع أنباء القتال وهو آسف على أنه لم يعد فى إمكانه الاشتراك فيه. ويحزنه أن نتلقى ضربة دون أن نردها بالمثل، ولذلك فهو ينتظر على جمر اليوم الذى نستكمل فيه استعدادنا للقتال. إنه يعيش يوما فيوما، بل ساعة فساعة فى متابعة وقلق وترقب وأمل ومحاسبة للنفس لا هوادة فيها. وبصرف النظر عن آراء الأستاذ سالم جبر (إحدى شخصيات المرايا) المتناقضة، وسخريات عجلان (شخصية من شخصيات المرايا) الحادة، وانتقادات رضا حمادة (شخصية ثالثة من شخصيات المرايا من أصدقاء كل من نجيب محفوظ وقدرى رزق) المرة، فإن قدرى رزق يعتبر رجلا محترما ومخلصا من رجال ثورة يوليو، وقد يتعذر تعريفه على ضوء المبادئ العالمية، ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء الميثاق، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعية إيمانه بالملكية الخاصة والحوافز، ويؤمن بالاشتراكية العلمية إيمانه بالدين، ويؤمن بالوطن إيمانه بالوحدة الوطنية، ويؤمن بالتراث إيمانه بالعلم، ويؤمن بالقاعدة الشعبية إيمانه بالحكم المطلق. وعندما يهل علىّ وهو يعرج ويطالعنى بعينه الباقية، ينبض قلبى بالمودة والإكبار».

وهكذا يتبين لنا أن نجيب محفوظ يكاد يوحى *لنا* بذكاء *نادر* وحنكة *مسرحية عالية بأن* نموذج *هذا* الشخص غير موجود *إلا فى إطار* تصورات *الثورة* عن نفسها، وهو ما يشير إليه بذكاء شديد فى قوله: «**يتعذر تعريفه على ضوء المبادئ العالمية، ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء الميثاق**».

ونرى هنا نجيب محفوظ مخلصا للفلسفة التى درسها وتعلمها وقرأ فيها وتبحر، فهو لا يقبل العبث التلفيقى الذى صيغ به الميثاق الوطنى، وهو بدهاء شديد يضرب

أمثلة سريعة (وقاتلة) على هذا العبث بجمع قدرى رزق بين الإيمان بالعدالة الاجتماعية والملكية الخاصة معاً، والاشتراكية العلمية والدين معاً، والتراث والعلم معاً، والقاعدة الشعبية والحكم المطلق.. وهكذا.

❑

المجموعة السابعة: المتعقلون الذين تجاوزوا الهزيمة:

من بين الشخصيات العديدة التى رسمها لنا نجيب محفوظ تبرز شخصيتان فقط استطاع صاحباها أن يتجاوزا آثار الهزيمة بسرعة معقولة وبدءا يفكران فى أزمة الوطن، ومن المهم أن نلتفت إلى أن هذين لم يصنفا فى بداياتهم (التى تصورها رواية المرايا) من دراويش الثورة، ولكنهم أيضاً لم يصنفا أعداء لها على طول الخط، وهاتان الشخصيتان هما الطبيب الدكتور صادق عبد الحميد، ومدرس التاريخ الدكتور عزمى شاكر.

فأما الأول: صادق عبدالحميد (الشخصية الثالثة والعشرون) فإنه يأتى حسب سياق الرواية ليمثل بسرعة صورة مقابلة لصورة الجراح اللامع سرور عبد الباقى (الشخصية الثامنة عشرة) الذى يتهمه نجيب محفوظ بنقص الحس السياسى بل وبسذاجة التفكير (وقد استعرضنا ملامح شخصيته منذ قليل).. أما الدكتور صادق عبدالحميد، فقد كان يحلم بالاشتراكية منذ عهد التلمذة، وكان من المتحمسين للثورة عن إيمان وعقيدة، ولم تكن له جذور حزبية أو إقطاعية تمنعه من الارتماء فى أحضان الثورة، وكان يعلم سلبيات الثورة وأخطاءها، ولكنه كان يراها شرا لابد منه فى فترات الانتقال والتطور، وكان يرى أن الفساد سيختفى ولكن المؤسسات ستبقى، كما أن الطبائع يلزمها وقت أطول لتتغير.

ويرينا نجيب محفوظ فى عبارات واضحة وموحية كيف أمكن التحكم فى أثر الهزيمة فى شخصية هذا الطبيب على الرغم من أن انفعاله الأول بالنكسة كان بالغ الأثر، وعلى الرغم من أنه كان يتعجب من تبلد مشاعر المصريين تجاه هول الكارثة التى وقعت فيقول :

«ولما وقعت الواقعة يوم ٥ يونية ١٩٦٧، ذُهل واختل توازنه، ومضى يتخبط بين الصالونات والمقاهى وكأن القيامة قامت، ودار بينى وبينه حديث طويل فى التليفون ختمه متسائلا:

ـ أكانت حياتنا وهما من الأوهام؟!

وقابلته بعد ذلك بأيام فى بيت رضا حمادة بمصر الجديدة فوجدته ممتعضا غاية الامتعاض، وجعل يردد بتألم شديد:

ـ ما أكثر الشامتين، ما أكثر الهازئين، ما أكثر المازحين، لم يُجن أحد، لم ينتحر أحد، لم يصب بجلطة أحد، يجب أن أجن، أو أن أنتحر.

ويواصل نجيب محفوظ وصف تطور الحالة النفسية للدكتور الطبيب صادق عبدالحميد مع مضى الزمن وهو يقول:

«ولكنه أخذ يسترد الثقة يوما بعد يوم، وينظر إلى الهزيمة باعتبارها تجربة مريرة نزلت بنا لنعيد «تشخيص» أنفسنا، وكلما سمع عن رغبة الأعداء فى تصفية الثورة، ازداد إيمانا بها وحماسا لها، حتى اعتقد مخلصا أن استمرارها أهم من استرداد الأجزاء المحتلة من الوطن العربى، إذ ما فائدة أن نسترد أرضا ونخسر أنفسنا؟ ثم إن استمرارها هو الضمان الوحيد لاسترداد الأرض، طال الزمن أو قصر، كما أنه الضمان الوحيد لبعث الشعب العربى».

ـ إنـنـا مطاردون، يطاردنا التخلف، وهو عدونا الحقيقى لا إسرائيل، وليست إسرائيل عدوا لنا إلا لأنها تهددنا بتجميد التخلف».

❑

أما صاحب الشخصية الثانية التى استطاعت تجاوز الهزيمة فكان هو الدكتور عزمى شاكر (الشخصية السابعة والثلاثون)، وهو دكتور فى التاريخ تخرج فى جامعات فرنسا، كان يرى الثورة انقلابا قُصد به الإصلاح وتفادى الثورة الحقيقية، فُصل من هيئة التدريس واعتقل أعواما وأفرج عنه فعمل فى الصحافة، وعكف على الكتابة فى الموضوعات التى تتيح له التعبير بإخلاص عن آرائه، فآثر الكتابة فى الشئون الخارجية (والتاريخية)، وعقب صدور القوانين الاشتراكية تغير موقفه تغيراً ذاتيا وجذريا وعن إخلاص حقيقى، وكان نجيب محفوظ يراه من الشيوعيين المتجددين الذين يتطلعون دائما إلى الحرية، يروى نجيب محفوظ موقفه من ١٩٦٧ فيقول:

« ... ولما وقعت الواقعة ـ أى هزيمة يونية ١٩٦٧ ـ تزلزل كيانه كالجميع، وشدته إليها موجة النقد العاتية، فغطس فيها وقب، ولكنه لم يكتب كلمة فى الموضوع، بالرغم من أنه كان يكتب نظرات أسبوعية فى مجلة سياسية. وأشهد بأنه كان من أوائل من ثابوا إلى التوازن، بل لعله كان أولهم، ففى أكتوبر من السنة نفسها نشر مقاله المشهور الذى حلل به الهزيمة، فاعتبرها درسا، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس، وأكد فى النهاية حقيقة مازال يؤمن بها، وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها، لا سيناء ولا القدس، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر. وفى الأعوام التى تلت ذلك عكف على تأليف كتابه الرائع «من الهزيمة نبدأ»، وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأثرية، وقد شهدته وهو يعمل فى وحدته بالاتحاد

الاشتراكى بهمة مذهلة، كما استمعت إليه فى التليفزيون مرارا. وهو من القلة التى لم تصب بانقسام الشخصية، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم فى مجالسه الشخصية. وإشادتى به كانت بلاشك من أسباب إغضاب كثيرين ممن هزمتهم الأحداث مثل عجلان ثابت وسالم جبر. ولا أنسى كيف غضب الأستاذ سالم وأنا أنوه مرة بكتاب «من الهزيمة نبدأ» فقال ببرود:

- طالما احترمته ولكنه لم يعد إلا المعادل الموضوعى المدنى!

أما ثابت عجلان فسمى الكتاب «من الانتهازية نبدأ» وجعل يضحك ويقول:

- «حسبنا أن يكون لنا من الكتاب جاد أبو العلا وعزمى شاكر».

ويردف نجيب محفوظ بعد هذا فيقول:

«ولكن الدكتور عزمى ما زال ثابتا فى إيمانه وصدقه ونشاطه».

ومن المثير للتساؤل أن نجيب محفوظ كان حريصاً فى المرايا على أن يدخل إحدى الشخصيتين كطرف فى علاقات نسائية يكون هو نفسه (أى نجيب محفوظ) طرفا فيها، فقد كان نجيب محفوظ على علاقة بدرية سالم زوجة صادق عبدالحميد قبل أن يعرفه، فلما عرفه وتوطدت معرفته به سمع منه نفسه أنه قد زهد زوجته وأنه يتمنى لو وفقت إلى حب رجل آخر فتذهب معه بسلام(!!)

وهكذا خيل إلى نجيب محفوظ أن قصة درية قد اكتملت، ولكن ساورته - وماتزال - شكوك كثيرة!!

ولكن ما جعل نجيب محفوظ يشعر باشمئزاز شديد تجاه الدكتور صادق عبدالحميد هو علاقة الأخير بسيدة أخرى من زوجات الأصدقاء، ثم علاقة جديدة لزوجة الدكتور صادق عبد الحميد بالدكتور جاد أبو العلا.. وهنا يعبر نجيب محفوظ عن ضيقه بهمومه الأخلاقية فيقول:

«وقلت لنفسى إنه لمن حسن الحظ أنه لم يبق لنا طويل عمر فى هذه الحياة المتعبة الفانية» .

ولست بمستطيع أن أدعى أنى فهمت معنى هذا الرمز (!!) .

❑

ونحن نرى حرص نجيب محفوظ على أن يستنطق هاتين الشخصيتين بما ينبئ عن إيمانهما بما روجت له أجهزة الدولة فى ذلك الوقت من أن الهزيمة لم تقع لأن النظام لم يسقط حتى وإن كانت الأرض قد احتلت ، ونحن نعرف أنه لم يكن فى وسع نجيب محفوظ أن يتمادى فى نقد هذه الفكرة فى الوقت الذى نشر فيه روايته، لكنه فى الوقت ذاته *لجأ إلى حيلة ذكية فى نقدها والقضاء عليها قضاء مبرما بأن صور تفسخ أخلاق هاتين الشخصيتين* (اللتين اعتنقتا هذه الفكرة) فيما يتعلق *بعلاقتهما بالمرأة* .

كذلك نستطيع أن نلاحظ أيضا أن هذين الشخصين قد استطاعا التغلب على الهزيمة بفضل ثقافتهما المهنية لا الأيديولوجية ولا الإيمانية، وأن المشاعر الإنسانية لم تكن بمثابة القوة التى ساعدت أيا منهما على النجاح فى التغلب على الهزيمة!

❑

المجموعة الثامنة: الشباب الذى فضل الهجرة:

نجد لهذه المجموعة نموذجا بارزا هو (الشخصية السادسة) بلال عبده البسيونى، والرواية تعرفنا بوالديه، وهو ابن لزميل قديم لنجيب محفوظ، وإحدى السيدات التى أقامت الظروف بينها وبين المؤلف (نجيب محفوظ) علاقة عاطفية كاملة (الشخصية الثالثة) .

وفى حديث نجيب محفوظ عن هذه الشخصية نصادف أهم الأفكار المرتبطة باستشراف نجيب محفوظ لمستقبل بلاده بعد حرب ١٩٦٧ ، فالشاب (بلال) وأخته يفكران جديا فى الهجرة، ويبلور نجيب محفوظ فى ذكاء شديد وجهة نظر الشباب الساعى إلى الهجرة من خلال ما يمكن وصفه بأنه: حوار حىّ. فالدكتور بلال ينبهنا إلى أهمية ما يسميه «البيئة العلمية» المفتقدة تماما فى بلادنا، وهو يمضى ليقول إن وطنه الأول هو العلم وهو يتساءل فى صدق: ماذا بقى لنا بعد ٥ يونيو؟!

ثم هو يقول إنه لا منقذ لنا سوى العلم لا الوطنية ولا الاشتراكية إنما العلم والعلم وحده، فهو الذى «يواجه المشكلات الحقيقية التى تعترض مسير الإنسانية، أما الوطنية والاشتراكية والرأسمالية فتخلق كل يوم مشكلات نابعة من أنانيتها وضيق نظرها وتبتكر لها من الحلول ما يضاعف فى النهاية من حصيلة المشكلات الحقيقية».

ويصل نجيب محفوظ إلى أن يضع على لسان هذا البطل قوله المختصر:

«وسأكون فى أمريكا أعظم فائدة لوطنى مما لو بقيت فيه».

وعلى صعيد آخر أكثر عمقا يدير محفوظ على لسان الأب بعض عبارات يلوم فيها ابنه [فى الظاهر] بأنه يحلم بالهرب. ويعقب نجيب محفوظ فيقول:

«شعرت بأن عبده غير جاد فى معارضته، وأنه لا يحسن إخفاء إعجابه بابنه. وهزّ الدكتور بلال منكبيه استهانة، فأيقنت أنه يمثل موقفا جديدا من «الوطنية»، تلك الأمانة القديمة التى أرهق جيلنا حملها. وقال بلال ضاحكا وقد ذكرتنى ضحكته بأمه:

- الحق أنى أحلم بهيئة علمية تحكم العالم لخير العالم.

فسألته :

- وماذا عن القيم؟.. العلم لا يتعامل معها، وحاجة الإنسان إليها لا تقل عن حاجته إلى الحقائق.

فنظر إلى فيما يشبه العجز ثم قال:

- يجب ألا يعنى ذلك التمسك البائس عديم الجدوى بقيم بالية، إنكم لا تتمسكون بها إلا خوف المغامرة بالبحث عن غيرها، والعلم لا يعطى قيما، ولكنه يضرب مثالا حسنا فى الشجاعة، فعندما تهاوت الحتمية الكلاسيكية كيّف نفسه برشاقة فوق أرض الاحتمال، وتقدم لا ينظر إلى الوراء».

وفى المقابل فإن نجيب محفوظ يرد على هذا الشاب مهاجما نموذج الجيل الجديد بقوله:

«إنكم تودون الهجرة إلى الحضارة بدل أن تنموها فى أرضكم».

«وبعد قليل يقول الشاب فى حدة:

«أتحدى إسرائيل أن تفعل بنا مثلما فعلناه بأنفسنا».

❑

ثم يعقب نجيب محفوظ برؤيته الشخصية التى تبدو وكأنها نتاج طبيعى لحوار الأفكار الذى أداره على مدى عدد من الصفحات، ويبدو نجيب محفوظ وكأنه يتحدث إلينا فى براءة شديدة وهو يقول:

«وقد بت ليلتى متفكرا فى حديث الدكتور بلال، مستعيدا جمله وعباراته، متأملا الموضوع من شتى جوانبه، حتى اقتنعت فى النهاية بأنه لا نجاة للجنس البشرى إلا بالقضاء على قوى الاستغلال التى تستخدم أسمى ما وصل إليه فكر الإنسان فى

استعباد الإنسان، وخلق صراعات مفتعلة سخيفة تستنفد خير ما فيه من إمكانات رائعة، وذلك كخطوة أولى لجمع العالم فى وحدة بشرية، تستهدف خيرها معتمدة على الحكمة والعلم، فتعيد تربية الإنسان باعتباره مواطنا فى كون واحد، وتهيئ لجسمه السلامة، ولقواه الخلاقة الانطلاق ليحقق ذاته ويبدع قيمه، ويمضى بكل شجاعة نحو قلب الحقيقة الكامنة فى ذلك الكون الباهر الغامض».

بل يصل نجيب محفوظ إلى أن يتبنى سياسة «إما وإما» حاصرا الأمر فى حقيقته التى أدركها وعبر عنها من قبل فى عدد آخر من أعماله الفنية الرائعة، وهو هنا يقول فى وضوح وصراحة:

«إما ذلك، وإما مستقبل يجعلنى أشعر بالامتنان، لكونى من جيل يوشك أن يختم رحلته فى هذه الحياة العجيبة التى تدور بخيرها وشرها فوق فوهة بركان».

❑

المجموعة التاسعة : العدميون:

هذه مجموعة لم يكن أفرادها يقلون عدداً ولا تأثيراً عن المجموعة السابقة، وهم - كما نعرف - موجودون بكثرة فى المجتمعات ويزداد وجودهم عند حدوث أزمات من طراز كارثة ٥ يونيو، ويمثل هؤلاء صبرى جاد (الشخصية الرابعة والعشرون) وقد تعين فى إدارة السكرتارية فى نهاية عام النكسة، وكان قد طلب إلى نجيب محفوظ أن يصحبه إلى صديقه الأستاذ عباس فوزى ليأخذ منه حديثا صحفيا، فلما انتهى من هدفه بدأ الأستاذ عباس فوزى يسأله عن آراء الجيل الجديد فى الحياة والدين والدولة والسعادة.. إلخ.. وعلى لسان هذا البطل يرد تعبيران يتعلقان بالهزيمة مباشرة، فالشاب يستدرك ويقول إنه بعد النكسة وُجد نوع من الميل للدين، البعض يقولون إن هزيمتنا ترجع إلى إهمالنا لديننا.

وبعد أربع صفحات يسأل عباس فوزى الشاب عن عقيدته البديلة، فيقول الشاب:

«كان عندى... وتزلزل كل شىء عقب ٥ يونيو، فيسأله ماذا تقترح لتحسين أحوال العالم؟ ويجيب الشاب بقوله: القضاء على جميع المسئولين فيه، فيسأل المسن: وماذا يحدث بعد ذلك؟ ويقول الشاب: لا يهم... ستتحسن الأحوال وحدها».

❑

المجموعة العاشرة: ضحايا الحرب من البسطاء :

١ ـ يقدم نجيب محفوظ لهؤلاء أكثر من نموذج، ولعل أبرز مَنْ يعبرون عن هذه المجموعة هو مدرس الرياضيات فى المدرسة الثانوية (غانم حافظ: الشخصية الثانية والأربعين)، وفى شخصية هذا الرجل وحياته يتضح مدى معاناة الطبقة الوسطى كلها من جراء الحرب والنكبة فيها، ويصفه نجيب محفوظ ويصف معاناته هذه بعبارات تبدو وكأنها من السرد العادى، ولكنها، فى الحقيقة، محملة بكل طبائع الأمور ونقائضها وبكل تصاريف القدر، وهو يقول:

«... ومرت أعوام حافلة بالتاريخ وهو قابع فى عشه يراقب الأحداث من بعيد، يناقشها بهدوء ويعلق عليها برقة، مركزا على تربية أولاده الثلاثة حتى تخرج بكريه ضابطا فى سلاح الفرسان، والأوسط مهندسا ثم التحق بالجيش، والثالث بيطريا. وقد نجا ابناه من حرب ١٩٥٦ بأعجوبة، فحمد الله وشكره، وواصل عمله حتى أحيل على المعاش عام ١٩٦٠، وهو يتمتع بصحة جيدة وحياة زوجية سعيدة. ولما احتشدت قواتنا فى سيناء فى أواسط عام ١٩٦٧، خفق قلبه بعنف بعد طول هدوء، وراح يسأل كل من هدب ودب:

- حرب أم لا ؟

ووقعت الواقعة، وانحسر الظلام عن شيء من النور، فرجع الابن الأوسط مصابا إصابة غير قاتلة، أما بكريه فاعتبر من المفقودين، وهزته الصدمة من الأعماق. وتبدد هدوؤه التقليدى فانهار انهيارا يدعو إلى الرثاء، وكان يحب أبناءه كأم، ورفض أن يصدق أن ابنه قتل، وظل يحلم دائما بمعجزة تعيده إليه سالما. وما لبث ابنه الأوسط أن تماثل للشفاء فعاد إلى الجبهة، وبقى الرجل ممزقا بين أحلامه عن المفقود وخوفه على المقاتل، وهو يتابع أنباء الجبهة ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم، ترجفه أخبار الغارات فى الأرض والسماء، ويخذله إيمانه رغم رسوخه، ويزلزله حبه العميق لأولاده. وأراه أحيانا شيخا عجوزا محنى الظهر قليلا أبيض الشعر. يجلس شارد النظرة، يفكر فى المجهول، لا يبشر منظره بقدرة على مواجهة الحياة بمطالبها الجامحة، فأحتار طويلا بين العتب عليه والرثاء له، ثم أنضم إليه مواسيا، ثم نتبادل التخمينات عن الغيب».

❑

كما نجد نموذجا آخر لهذه المجموعة فى شخصية نادر برهان (الشخصية الثانية والخمسين) والذى استشهد ابنه فى سبيل الوطن على الرغم من عدم وضوح انتماء سياسى معين له تجاه الثورة.

وربما كنا فى حاجة إلى القول بأن ابن نادر برهان يمثل نموذجا لمجموعة كبيرة من ضحايا الحرب من المواطنين العاديين جداً الذين امتدت إليهم شرور الحرب فقطفت أرواحهم على غير انتظار، وقد كان بين ضحاياها كثيرون منهم بالطبع.

كذلك فإن البيروقراطى القديم شرارة النحال (الشخصية الحادية والعشرين) الذى وصل إلى مكانة عالية فى ظل الملكية ثم فى ظل الثورة بفضل وسائل غير شريفة يبدو فى رواية نجيب محفوظ وكأنه ليس للنكبة أثر عليه إلا أنه أصابه الحزن عندما أصيب زوج كريمته إصابة عشواء وهو جالس فى المقهى فى مظاهرات الطلبة التى تفجرت عقب هزيمة ١٩٦٧ .

وهكذا فإن نجيب محفوظ من خلال حديثه عن هذه الشخصية والشخصية السابقة يبدو حريصاً على أن يرينا أن آثار النكبة لا تقف عند حدود، وأنها كفيلة بأن تمتد ولو عبر ثلاث درجات من السببية إلى مثل هذا الذى يبدو بعيدا بذاته عن الأحداث الوطنية، فالحزن لم يعتره بسبب النكبة ولا هو شارك فى المظاهرات ولا هو راقبها، ولا هو أصيب فيها بطريق الخطأ، وإنما أصيب زوج ابنته بطريقة عشوائية وهو جالس فى مقهى (وليس وهو ماض إلى عمله مثلا) .

❑

ولا يقف تأثير الحرب (الذى تصوره «المرايا») على الإصابة أو الاستشهاد فيها ،كما فى الأمثلة الثلاثة السابقة، فهناك بالطبع نماذج للإصابات النفسية التى تصيب معاصريها وتجعلهم يتغيرون حتى فى ملامحهم البدنية، وربما كان النموذج القريب إلى التعبير عن هذا الموقف هو نموذج الشخصية الثالثة : أمانى محمد التى تغير سلوكها بعد ١٩٦٧ ، ونحن نجد نجيب محفوظ وهو يعبر عن هذا المعنى فيقول:

«وكنت فى ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ سائرا بشارع رمسيس أمام مبنى التليفون [يقصد مبنى هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية] وجدت أمانى مقبلة نحوى على بعد

خطوات! وبحركة عفوية مددت يدى فصافحتنى بلهوجة وارتباك أشعرانى بتسرعى وخطئى.. وهمست معتذرا إن شاء الله تكونين بخير».

«فأجابت وهى تمضى: الحمد لله».

ثم يردف نجيب محفوظ قائلا: تبدت مفرطة فى البدانة والرزانة، غير أن ارتباكها أقنعنى بأنها تعانى مسئولية السيدة المتزمتة إذا ورطتها ظروف خارجة عن الإرادة فى مصافحة رجل «غريب».

فإذا تأملنا الرمز الذى روى لنا نجيب محفوظ هذه الشخصية من خلاله وتأملنا علامتى التنصيص حول آخر كلمة فى حديث نجيب محفوظ عن هذه الشخصية، أدركنا كيف نجح نجيب محفوظ فى التعبير عن معنيين مهمين:

- الأول: هو تغير معنى اللذة والمغامرة.
- والثانى: هو أن ما كان حميميا أصبح غريبا.

وفى هذه الإشارة السريعة كنايات عن كثير من المعانى، ولكن يبدو أن البناء الفنى لهذه الرواية لم يكن ليسمح بأكثر من هذه الإشارة العابرة المحملة بمثل هذه المعانى.

❑

المجموعة الحادية عشرة: المواطنون المهمومون بالحرب:

١ـ من هؤلاء البسطاء :وقد رمز لهم نجيب محفوظ بعبدة سليمان (الشخصية الرابعة والثلاثين) ، وقد التقت بنجيب محفوظ، وهو يحكى مأساة زواجها، ثم يقول: «ثم سألتنى ونحن نتوادع»: خبرنى عن الموقف، حرب أم صلح؟».

ويعلق نجيب محفوظ بقوله: فبسطت راحتى فى عجز عن الجواب، وافترقنا!!

٢ـ ومن هؤلاء شخصيات مهنية ناجحة كثريا رأفت (الشخصية السابعة) التى جاءت تدعو سالم جبر إلى نقابة المعلمين، فحضرت جلسة شارك فيها عدد من شخصيات المرايا بمن فيهم نجيب محفوظ نفسه، وكان الحديث يدور حول النكسة، فشاركتُ فى الحديث، وبقيتُ حتى قام الزملاء للانصراف.

ومع أن نجيب محفوظ لا يحدثنا عن رأيها فيما حدث إلا أنه يعطينا الإيحاء بأنها حضرت مع الحاضرين المناقشين لتحديد الأبعاد، ولتحليل الأسباب، ولاستقراء الغيب عن النكسة.

❑

المجموعة الثانية عشرة: السلبيون: اللامبالون: «الأناماليون»:

١ـ من هؤلاء عباس فوزى (الشخصية الثلاثون) الموظف القديم محقق التراث المهتم باللغة وسلامتها، قامت الثورة ولم تكد تؤثر فيه شيئا، لا هو حزن على العالم المولى، ولا هو سرّ للعالم الصاعد، وقد ضاعف نشاطه فى التأليف الدينى حتى حاز ثروة كبيرة بكل معنى الكلمة.

أما موقفه من ١٩٦٧ فيلخصه نجيب محفوظ بقوله:

«ولما لاحظ همى وغمى فى الأيام التى أعقبت هزيمة يونية قال باسما:

ـ شاب شعرك ولم تتعلم الحكمة بعد !

ثم تساءل بسخرية :

ـ هل ثمة فارق حقا بين أن يحكمك الإنجليز أو اليهود أو المصريون؟!».

وهكذا يتبين لنا هذا النموذج مخالفا تماما لنموذج سابق وهو نموذج عبدة سليمان التى كانت على الرغم من بساطتها وبساطة ثقافتها وانشغالها بأولادها وزوجها وهمومهم تسأل نجيب محفوظ: حرب أم صلح، أما هذا الرجل الذى حصّل قدرا من الثقافة (أيا كان مصدره) والذى يعد بطريقة أو بأخرى واحدا من المؤلفين والمثقفين فإنه لا يرى للمسألة أية أهمية، فهو محكوم محكوم، سواء أكان الحاكم إنجليزا أم يهودا!!

وليس من شك أن هذا الموقف كان موقف فئة لا يستهان بها ولابعددها بين أفراد الشعب المصرى بعد الهزيمة، بل ربما حتى الآن، وقد نمت من هؤلاء الطائفة الذين اصطلح على وصفهم بتعبير «الأناماليين».

❏

المجموعة الثالثة عشرة: الشخصيات غير المعنية بالهزيمة:

من العجيب أن نكتشف أن هذه المجموعة تضم أهم الشخصيات فى رواية «المرايا» بل أرفعها قدرا وأكثرها ثقافة وأبعدها تأثيرا، قد يكون هذا الاكتشاف مزعجا بعض الشيء، ولكن هذه هى الحقيقة للأسف، وهى جوهر ما أراد نجيب محفوظ أن يعبر عنه على الرغم من الأثر الماحق الساحق الذى أحدثته النكسة فى شخصيته.

١ ـ فهذا هو الدكتور ماهر عبد الكريم (الشخصية الثامنة والأربعون حسب الترتيب الهجائى)، ولكنه حسب «المقام والأهمية» قد يكون الشخصية الأولى فى المرايا، بل إننا نجد أثره منذ أولى صفحات الرواية ومنذ يحدثنا نجيب محفوظ عن إبراهيم عقل (أولى الشخصيات حسب الحروف الهجائية).

ويتمتع الدكتور ماهر عبد الكريم بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك، ولم يعرف نجيب محفوظ أستاذا فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله، وهو سليل أسرة عريقة.. ولم يعلن عن ميل سياسى قط، ولم يقع فى رذيلة التعصب أبدا، ولم ينطق فى حديث عن هوى أو تحيز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير... إلخ.

وبعد أن يستعرض نجيب محفوظ سيرة أستاذه الكبير وحياته، يذكر أن الثورة انتزعت من يده عشرة آلاف من الأفدنة وأنه باع قصره فى المنيرة واشترى فيلا فى مصر الجديدة، وواصل عمله الجامعى بنفس الهمة حتى أحيل إلى المعاش، وعين عضوا فى المجلس الأعلى للفنون والآداب، ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية، ونال وسام الاستحقاق. ويلخص نجيب محفوظ موقف هذا الأستاذ من الثورة بقوله:

«... قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التى أبعدته عن الشبهات، وهو وإن لم يعلن ولاءه للثورة لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه بطريقة غير طبيعية أن يُرمى بشىء مما يمس الكرامة، فإنه لم يتردد فى إعلان ذلك الولاء فى مجالسه الخاصة، فقال يوما:

- إنى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن عمله كى يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له.

❑

ويلخص نجيب محفوظ انطباعه عن هذه الشخصية الفذة وموقفها من الحياة السياسية بقوله:

«ولم أستشعر فى حديثه أو سلوكه أى أثر لمرارة، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب فى الأفئدة، فلا يُطالب مثله بأكثر من ذلك، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلا لاقتلاع طبقته، وأن يقنع نفسه بها فلسفيا كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر».

ثم يروى نجيب محفوظ بعد ذلك أنهم احتفلوا بعيد ميلاد أستاذه الخامس والسبعين عام ١٩٦٩، ويحدثنا عمن حضروا هذا الاحتفال ولكنه لا يتناول بوضوح رأى الأستاذ الكبير فيما حدث فى ١٩٦٧ من نكبة، ويكتفى نجيب محفوظ بأن يقول:

«وشرق الحديث وغرب ولكنه كان يرتد إلى بؤرة واحدة، هى الصراع فى الشرق الأوسط، ويُعالج على مستويات سياسية واقتصادية وفلسفية ودينية، ويتفرع إلى الموقف العالمى والكشوف العلمية والمشكلات العامة الإنسانية والاضطرابات الخطيرة فى الغرب والشرق وذبول القيم، والمستقبل، أجل المستقبل، وبأى وجه يطالعنا. وطغت موجة من التشاؤم، وترددت كالهنك المُطرِب بين الشيوخ، طوبة يرمون بها الدنيا المولية، واشترك أستاذنا فى الجوقة ولكن بنغمة أخرى، وفجأة قال [الضمير يعود على الأستاذ ماهر عبدالكريم]:

- رحم الله إبراهيم عقل..

ما الذى دعاه إلى تذكره؟ كان أحب الأصدقاء إلى قلبه، ولم أشهد دمعه إلا يوم جنازته عام ١٩٥٧، وتذكرت بدورى كلمته لنا قبيل التخرج. وعاد يقول:

- سلم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس..

وابتسم طويلا ثم قال:

- قولوا فى الدنيا ما شئتم، لا جديد فى التشاؤم، ولكن الحياة فى صالح الإنسان، وإلا ما زاد عدده باطراد، ومازادت سيطرته على دنياه».

❑

وبالإضافة إلى الأستاذ ماهر عبد الكريم يأتى فى مقدمة هؤلاء المرموقين الذين لم يعنوا بالهزيمة ولم يشغلوا بها رضا حمادة (الشخصية الثالثة عشرة) الذى كان حجة من حجج القانون المعاصر، كما كان موسوعة فى الفلسفة والسياسة والأدب، وكان قد اعتزل الحياة السياسية بعدما وجد البلاد مقبلة على حكم عسكرى، ولكنه مع هذا انتبه إلى مهنته ، وإلى وضع دائرة معارف العلوم الجنائية.

ونجيب محفوظ حين يحدثنا عنه ينتبه بشدة إلى الجانب الأخلاقى دون أن يلتفت إلى أن يوضح لنا رأى هذا الرجل فى هزيمة ١٩٦٧ ، على الرغم من أن سياق الكلام يوضح أنه عاش هذه الفترة، ومع هذا فلنقرأ هذه العبارات التى يصف بها نجيب محفوظ هذا الرجل لنتأكد من هذا المعنى:

«ولا غرابة فى أن تبهرنى الأخلاق البناءة لرجل عاصر فترة انهيار فى الأخلاق والقيم لا نظير لها حتى خيل إلىّ فى أحيان كثيرة أننى أعيش فى بيت كبير للدعارة لا فى مجتمع. ففى رضا حمادة عرفت رجلا نقى النوايا والسلوك، نزيها مخلصا، آمن طيلة حياته بمبادئ لا يحيد عنها كالحرية والديمقراطية والثقافة بالإضافة إلى عقيدة دينية مستنيرة متطهرة من شوائب التعصب والخرافة».

«أجل وقف موقف الرفض من أى رأى يسارى، وعجز عن التطور مع الزمان، فعاصرته أول العهد بصداقته، وهو مثال للشاب الثورى، ثم عاصرته فى شيخوخته

وهو محافظ عنيد، وإن لم يعترف بذلك. فما برح يردد أن الليبرالية هى التى سندته حيال الكوارث التى عصفت بحياته. وأيدته بسحرها وهو يشهد اختفاء القيم والأشخاص الذين عبدهم مثل الحرية والديمقراطية ومصطفى النحاس، وزوجه، وابنه، [وقد] توارى كل جميل من دنياه فلم يتهدم، [ولكنه] ثابر على العمل بقوة مضاعفة، وجابه الحياة بإرادة من فولاذ، وظل على علاقاته الطيبة بالأصدقاء والصالونات والمجالس. وكلما أقبل علىّ بقامته المديدة ورأسه الأبيض، أو أمتعنى بأحاديثه المتنوعة. انبعث فى أعماق روحى نشاط متألق بالأفراح فأجدد إعجابى به وبالحياة المباركة التى خلقته».

❑

وبالإضافة إلى هذين الأستاذين فى الفلسفة والقانون، فإن أستاذ الاقتصاد فى كلية التجارة كان يشاركهما نفس الروح، وهذا هو الدكتور كامل رمزى (الشخصية السادسة والأربعون) .. وينبئنا نجيب محفوظ أن هذا الأستاذ «قد قضى فى الاعتقال خمسة أعوام وكان حديث عهد بالحرية فى ١٩٦٥ عندما عرفه نجيب محفوظ لأول مرة، وكان يتكلم بثقة وصرامة وقوة... ولا يؤمن بالحلول الوسطى ولا بالمجاملة ولا بالتسامح، بل يؤمن برأيه لحد التعصب ولا يطيق المعارضة، فهى تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان اللائق، تولى أحد المناصب فلم يعمر فيه إلا عاما واحدا حتى ضج أهل الأرض جميعا من صلابته ونزاهته، ونقل فجأة إلى مؤسسة صحفية».

ويكتفى نجيب محفوظ بأن يحدثنا عن انطباع هذا الأستاذ الكبير نتيجة استبعاده من وظيفته دون أن ينبئنا عن أثر النكبة الكبيرة فيه، ولو بلفظ واحد، على الرغم

من أن هذا الرجل عاشر هذه النكبة وما بعدها من أيام سوداء.. ولكن نجيب محفوظ كان حريصاً على أن يستبعده تماما من الانفعال بالنكبة وعلى أن يحصر انفعاله فى أزمة الوظيفة التى فقدها بسبب صلابته ونزاهته!! فيقول:

«ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس. ولم أدهش لذلك كثيرا، وذكرت فى الحال مأساة الأستاذ طنطاوى إسماعيل رئيس السكرتارية القديمة، كما ذكرت الدكتور سرور عبد الباقى، وقلت لنفسى إن أمثال أولئك الرجال يغلقون الأبواب فى وجوه الوصوليين والانتهازيين وما أكثرهم. كما أنهم بقوة أخلاقهم يفضحون الضعفاء أمام أنفسهم فيمتلئون حقدا عليهم. لذلك لم أسمع رثاء له إلا بين خاصة أصدقائه».

«وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه مرارة وخيل إليه أن نواميس الطبيعة تقلقلت وشذت عن مداراتها. ولكن ذلك لم يمنعه من مزاولة عمله الجديد بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة، بل إنه وجد فراغا لم يكن يجده، فاستأنف نشاطه العلمى، وشرع فى وضع قاموسه السياسى. وكان ـ ومازال ـ شعلة من النشاط المتواصل، ونورا يطارد ظلمات الناس».

❑

وينتمى لهذه المجموعة أيضًا عجلان ثابت (الشخصية الخامسة والثلاثون) ، كان صحفيا وفديا ثم أصبح شيوعيا، ودعانى إلى مسكنه بخان الخليلى فتعرفت بزوجته، وكانت فتاة حسناء، على قدر متوسط من التعليم، ولاحظت أنها متفانية فى الحب، وذات إرادة صلبة فى مواجهة حياتها المتقشفة. ودار الحديث عن الحرب والسياسة، فقال:

ـ لم أعد وفديا كما كنت..

فدهشت، ولكنه صارحنى بأنه «شيوعى»، وراح يؤكد لى أن الشيوعية حل لمشكلات العالم، ثم وهو يضحك:

ـ وحل لمشكلتى أيضا..

فضحكت زوجته وقالت:

ـ «وهذا هو الأهم!»

على هذا النحو نرى التلميح «المحفوظى» الذى هو أقرب إلى التصريح. ونمضى مع نجيب محفوظ وهو يرسم ملامح هذه الشخصية فيقول:

«ومضى يشرح الشيوعية باعتبارها نظرية علمية ولكننى شعرت بأنها حلت فى نفسه محل العقيدة الدينية. وفى أعقاب الحرب فُصل من الدار الصحفية بإيعاز من الداخلية فى ظل الحكم الرجعى الذى سيطر على البلاد بعد إقالة الحكومة الوفدية. وتحرج مركزه، وحتى سكنه المتواضع أصبح مهدداً بالطرد منه لعجزه عن دفع الإيجار. وكنت أزوره، وأقدم له أحياناً مساعدات لا تغنى. ثم تبين لى أن مسكنه يتحول إلى شىء جديد، غريب، إلى ملتقى لبعض أهل البلد من أغنياء الحرب حيث تدور الجوزة وتجلس زوجته بينهم كربة الاستقبال والبيت، وهكذا أصبح مكشوف الوجه مستهترا وماجنا عابثا، وبعد قيام الثورة تحسن حاله، ولكنه اعتقل أعواما ثم خرج من المعتقل واستعاد عمله ودخله، ولكنه لم يستطع إنقاذ زوجته التى أدمنت الأفيون ولكنه صمم على الاحتفاظ بها».

❑

هكذا يحدثنا نجيب محفوظ بالتفصيل عن هذه الشخصية المركبة أو المعقدة بكل

أبعادها، ثم هو لا يكاد ينبئنا عن موقفه من ١٩٦٧ على الرغم من أنه كان ممن عاشوا نفس الفترة.

وهو يقول فى وصف علاقته «المقدسة» بزوجته:

«... وقدّس علاقته بها، متفانيا فى الإخلاص لها والتسامح معها، فهيأ لها الحياة الطيبة، ولم يسمح لنفسه بمحاسبتها على تصرف، تواجدت أم غابت، استقامت أم استهترت. وزحف عليه العجز قبل الأوان فلم يبق له من مسرات الدنيا إلا العمل والحديث والتسامح اللانهائى مع زوجته. وبالرغم من آلامه وحرمانه وتدهور زوجته المحبوبة، فقد بلغ فى تلك الفترة غاية نضجه وأعطى أطيب ثماره، فتتابعت مقالاته السياسية والاجتماعية متسمة بالطلاوة والعمق، وإنى لأعد كتابه عن الفكر العربى التقدمى، من أمتع الكتب المعاصرة وأقواها إيحاء وتفاؤلا، كما أعد وجهه الشعبى، وتناقضات حياته الشخصية، ومتاعبه الجسمانية، وحدة ذهنه وصفائه، مثالا لعصر مضطرب جياش بعوامل هدم وبناء، وتفكك وتجمع، ويأس وأمل. ولشد ما تألمت عندما لم أجد من أستاذى الدكتور ماهر عبد الكريم استعدادا للترحيب به فى صالونه فقال بهدوءه المعروف:

- يقال إنه شخص.....

وابتسم ابتسامة استغنى بها عن تسجيل وصف لا يرتاح إليه ذوقه الرفيع! وعلمت أن الذى وشى به عنده هو جاد أبو العلا، ذلك الشخص الذى لا وجود له فى الواقع!».

ربما يغرينا التأمل أن نقول إن نجيب محفوظ من خلال هذه الشخصية قد استطاع *التعبير بسخرية شديدة عن رأيه الحقيقى فى طائفة كبيرة العدد من الذين*

أثرت الثورة فى نفوسهم وأخلاقهم، ولم يكن من الممكن أن تستثار عندهم النخوة الوطنية حتى فى لحظات تالية لحدث مزلزل فى مثل عنفوان نكبة ١٩٦٧ ، فقد فقد هؤلاء ـ بالتدريج والتتابع ـ كل اهتمام بكل شيء، حتى إن تتابع إنتاجهم (المهنى) الجيد!!

❑

وتأتى مع هؤلاء فايزة نصار (الشخصية الثالثة والأربعون) وهى زوجة صاحب جراج، كانت جارة لعجلان ثابت وكانت ذات جاذبية جنسية قوية، وكانت على علاقة بصاحب كازينو الهرم جلال مرسى، وقد واتتها الفرصة لتكون ممثلة سينمائية فوافق زوجها بينما اعترض عشيقها، وقامت بتمثيل الدور وكانت مفاجأة فنية لا يستهان بها، ودعيت إلى تمثيل دورين جديدين وهجرها عشيقها فلم تسع لاسترداده، وما لبث زوجها أن طلقها بحجة حماية بيته وطفليه من الجو الفنى الذى أخذ يغزو بيته، وانتقلت إلى شقة صغيرة بالزمالك وقد التقى نجيب محفوظ عندها ببعض الأصدقاء ووجدها مرحة كعادتها وسعيدة بالنجاح، وقال له عجلان ثابت وهما راجعان من عندها:

«محتمل أن تحن أحيانا إلى طفليها، ولكنها ليست بالتى تنهار بسبب ذلك، أعترف لك بأننى أسعد بنجاح أى فلاح أو فلاحة، مهما يكن ثمن ذلك النجاح».

وعلى الرغم من هذا النجاح الطاغي الذى حول هذه المرأة البسيطة من شخصية مهملة إلى شخصية عامة، فإنها شأن أمثالها لم تكن لتنفعل بالحوادث، ولا تتأثر بانهزام الوطن ولا تفكر فى مستقبله إنما هى عابثة لاهية مرحة.

ومع هذا فإن نجيب محفوظ لا يستطيع بعد كل هذا التحليل أن يتغاضى عن الإشارة إلى استبقاء النزعة الإنسانية فيها وفى أمثالها، وهو يبدو وكأنه عاجز عن أن يثبت هذا المعنى بكثير من الدلائل إلا أن يورد على لسان محدثه تعبيرا عن أمله فى أن تحن إلى طفليها على نحو ما قرأنا.

❑

كما تأتى أيضا عزيزة عبده (الشخصية الثامنة والثلاثون) وهى الفنانة التشكيلية التى كانت على علاقة عاطفية بناقد فنى من أصدقاء نجيب محفوظ، على الرغم من زواجها، وقد أثمرت هذه العلاقة ابنة رفضت عزيزة أن تضحى بها عندما اكتشفت أنها حامل فيها، وكانت تشبه فعلاً أباها يوسف بدران، ولهذا كان هذا الأب حريصا على تجنب رؤيتها.

يدور حديث« المرايا» عن هذه الشخصية فيصل نجيب محفوظ إلى أن يخبرنا بأنها بحلول عام ١٩٧٠ أحرزت أول نجاح حقيقى فى حياتها بنجاح معرضها، واعترف بها كفنانة مصرية أصيلة... وهكذا فإن هذه الموهوبة (المتوسطة الموهبة) لم تكن أبداً مشغولة بهموم الوطن فى ظل انشغالها بهمومها الشخصية ثم الفنية.

ثم تأتى شخصية الموظفة الجديدة كاميليا زهران، وهى حقوقية فى الثالثة والعشرين، كان نجيب محفوظ يتظلل بسحابة من الغم والنكد فى أعقاب هزيمة يونيو عندما بدأ يسمع بما يتناثر عن حبها للمدير، وسرعان ما تنشأ علاقة حب صادقة بينها وبين صبرى جاد، وتعلن خطوبتهما، وينصرف نجيب محفوظ إلى التعليق على سعادته الشخصية بهذه النهاية السعيدة من دون أن يشير إلى أى انفعال عند هذه الموظفة الجديدة بنكبة ١٩٦٧ على الرغم من أنها بحكم السن تمثل

أولئك الذين تربوا فى ظل الثورة وتلقوا التعليم والفرص الوظيفية من حكوماتها ونظامها.

يرسم نجيب محفوظ ملامح هذه الشخصية فيقول:

«وقد استقبلت عملها بامتعاض لإلحاقها بعمل كتابى بعد دراسة قانونية توشك أن تذهب هباء. وسرنى أن أطالع فى عينيها نظرة مستقيمة وجريئة جاوزت بشكل ملموس نظرة الحريم المستكينة الخاملة، ومع ذلك شعرت بطريقة ما بعمق تجربتها فى الحياة، وأنها لا تكاد تختلف فى أمر جوهرى من هذه الناحية عن زميلها الجالس إلى جانبها. وسرعان ما رفع الحجاب الكلفة بينها وبين الزملاء ولكنه لم يجاوز حدود الأدب التقليدية، شأن من تنظر إلى المستقبل بحكمة وتعمل حسابا للعقد الشرقية التى يحملها الزملاء من أسلافهم فى البيوت.

وعقب الإجازات الصيفية حدثنى زميل قديم نسبيا فى الإدارة فقال:

- لعلك لا تدرى أن كاميليا زهران راقصة بارعة؟

فسألته بدهشة:

- راقصة؟!

- رأيتها فى هانوفيل تراقص شابا، وكانت مندمجة فى الرقص بنشوة كأنها نغمة.

فقلت متوثبا للدفاع:

- لم يعد عيبا ما كان يعد عيبا على أيامنا.

فهرش رأسه قليلا ثم قال:

- أود أن أتخيل كيف تكون الحياة مع زوجة مثلها؟

فقلت:

- إن نسبة الطلاق فى هذه الأيام أقل من نظيرتها على أيامنا، وكذلك نسبة تعدد الزوجات!

فقال ضاحكا:

- الظاهر أنك رجل عصرى، رغم كهولتك؟

- أود لو كنت من أبناء هذا الجيل، لا استخفافا بمتاعبه ولكن لتخففه من كثير من العقد التى نغصت علينا صفو الحياة.

وقد قلت مثل ذلك لصديقى رضا حمادة وهو أقرب أصدقائى القدامى إلى المحافظة، فسألنى عما أعنى فقلت:

- تبادل الحب فى جو من الصراحة الصحية خير من الكبت والتقلب بين أذرع البغايا.

فقال بارتياب:

- يخيل إلىّ أن الحب كالديمقراطية أصبح معدودا من المهازل الزائدة!».

❑

ويمكن لنا أيضا أن نضم إلى هؤلاء النرجسيين أمثال جاد أبو العلا (الشخصية الثامنة) الذين لم يتأثروا لا بالنكسة ولا بما بعدها.

❑

وأخيرا فإن هناك صحفية شيوعية لامعة على قدر كبير من الثقافة والمهارة وقد ضحت بحياتها الزوجية من قبل حين أراد زوجها أن يفرض سيطرته عليها، وعاشت حياتها محققة نجاحات ملحوظة، وهى مجيدة عبد الرازق (الشخصية الخمسون) ، وهذه الشخصية التى تحظى باحترام نجيب محفوظ ليس لها أى دور فى الانفعال بنكبة ١٩٦٧ على الرغم أنها موجودة فى الحياة بنشاط، وهو يصف حالها باختصار فيقول:

« وعلمت أخيرا ـ وسعدت بذلك جدا ـ أنها ستقوم برحلة صحفية لزيارة بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط، فقلت لعلها تجد فيها تسلية عن وحدتها، وتجديدا لحياتها، ومادة طريفة لقلمها» .

وهكذا يبدو نجيب محفوظ *مصمما بكل ما يملك على إدانة موقف الشيوعيين من تلك النكبة الوطنية* فهم لا يفرحون ولا يشمتون شأن المجموعات الأولى ولكنهم مع هذا لا يمارسون الانفعال بأزمة الوطن مع أنهم قريبون منها، ولكنهم لا ينفعلون .

❑

يبقى أن أذكر أن نجيب محفوظ لا يقتصر فى سكب انطباعاته عن النكبة على ألسنة أبطال روايته (المرايا) المتميزة ولكنه يلجأ فى بعض المواضع من (المرايا) إلى التعبير بعبارات محملة بكل معانى المرارة والحزن، وسوف أكتفى بأن أشير إلى ثلاثة مواضع مهمة تصور لنا مدى هذا الحزن.

- من ذلك أنه فى أثناء حديثه عن الشخصية السابعة ثريا رأفت يصف مشاعره بعد واقعة ١٩٦٧ بعبارات تمتلئ بالأحاسيس والتعبير الشجى حيث يقول:

«كنت فى تلك الأيام ألتمس مجامع الزملاء والأصدقاء، كما يلتمس المحترق مادة - غطاء أو ترابا أو ماء - ليطفئ به النار المشتعلة فى ملابسه».

- كما أنه فى ختام حديثه عن تاجر السوق السوداء (زهران حسونة) الذى دارت رأسه بنشوة الشماتة لما حاق بمصر فى ٥ يونيو، يلجأ نجيب محفوظ إلى المباشرة فيقول:

«لقد لاطمتنى فى ذلك اليوم المشئوم تيارات متناقضة كاد يختل لها عقلى، ولعله مما زاد إكبارى لرضا حمادة أن المأساة قصمت ظهره كما قصمت ظهرنا، وأنه نسى فى ذلك اليوم كل شيء إلا حبه العتيد لوطنه».

- على أن أكثر هذه العبارات تعبيرا عن مدى إحساسه بالقسوة من الأحداث قوله فى حديثه عن كاميليا زهران:

«وكانت تظللنا سحابة من الغم والنكد فى أعقاب هزيمة يونيو».

فقد جاءت هذه العبارة وسط عبارات لم تكن تستدعى وجودها إلا أن يكون الشعور بالألم مسيطرا على كل لحظة من اللحظات التى تبدو بعيدة عن الدافع إلى هذا الألم.

3

تأملات نجيب محفوظ فى عصر الثورة
(١٩٥٢ـ١٩٦٧)
من خلال رواية «الكرنك»

تأملات نجيب محفوظ فى عصر الثورة (١٩٥٢ـ١٩٦٧)
من خلال رواية «الكرنك»

(١)

صدرت الطبعة الأولى من الكرنك عام ١٩٧٤، وقد حرص نجيب محفوظ على أن يسجل فى نهايتها أنها كتبت فى ديسمبر ١٩٧١.

وفى الحقيقة فإن الكرنك تعبر تعبيراً ممتازاً عن الجو النفسى الذى عاشه الشعب المصرى فى هذه الفترة التى كتبت فيها الرواية. فهى تتضمن الحديث الحافل بالمرارة عن الهزيمة ومعقباتها، وهى تتضمن أيضا الحديث المتأمل فى جدوى الثورة وما فعلته وحقيقته، كما أنها تعبر عن الحيرة فيما يتعلق بالمستقبل، وفوق كل هذا يطفو على سطح الرواية الحديث الذى كان يشغل الناس حينذاك عن الأثر المدمر الذى تركته الإجراءات الاستثنائية التى قامت بها بعض أجهزة الأمن والمخابرات على روح الشباب وحياته.

حصلت الكرنك على شهرة مدوية نتيجة تحولها إلى فيلم سينمائى شهير ليس هو

موضوع حديثنا، لأنه بالطبع وكما أشار نجيب محفوظ نفسه شيء آخر أو عمل إبداعى آخر غير الرواية، ولهذا فإننا نستطيع أن نتصور أنفسنا منصفين ونحن نطلب من القارئ أن يقرأ الرواية بمعزل عن الأثر الذى تركه فيه الفيلم الذى حمل اسمها حتى يستطيع أن يتأمل فكر نجيب محفوظ الحقيقى من خلالها وتأملاته فى الهزيمة وتاريخ الثورة.

وسنحاول فى دراستنا هذه بقدر الإمكان أن نتغلب على نرجسيتنا وذاتيتنا بأن نختصر آراءنا وعباراتنا لنستمع ونقرأ نجيب محفوظ من خلال عمل أدبى متميز متتبعين مواضع الفكرة فى المواقع المتناثرة والمتباعدة من الرواية.

(٢)

نرى نجيب محفوظ فى تأمله لما حاق بالوطن فى ١٩٦٧، وهو يصل إلى آفاق فكرية بعيدة بثاقب نظره، فنراه - على سبيل المثال - وهو ينتبه إلى أثر الهزيمة على الوحدة الوطنية وعلى الوحدة العربية. وهو يصف هذا الأثر بأنه أعنف آثارها ويتنبأ أن الحرب القادمة ستكون بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب، ويبدو لنا أن حس نجيب محفوظ الاستشرافى فى هذه الجزئية كان عالياً جداً، ويكفينا فى هذا الصدد ما حدث فى حرب الخليج الثانية وقبلها... وهو يقول:

«... وأحرق الحزن قلوب الشعب البرىء، ولم يعد له من أمل فى الحياة إلا أن يرد الضربة ويسترد الأرض، ولكنى أنصت هنا وهناك إلى قلوب تخفق بالشماتة والفرح، وبدأت أدرك أن الصراع ليس صراعا وطنيا خالصا، وأن الوطن ينزوى حتى فى أشد أحوال المحن فى خضم صراع آخر يحتدم حول المصالح والعقائد، وجعلت أراقب هذه الفكرة فيما تلا ذلك من أيام وأعوام حتى وضحت جوانبها وتعرت جذورها، فإذا بيوم ٥ يونيو يستوى *فى التاريخ هزيمة لقوم من العرب*،

ونصرا لقوم آخرين منهم أيضا، وأنه جاء ليهتك الستر عن حقائق ضارية، وليعلن حربا طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب».

كذلك نرى نجيب محفوظ وهو يبلور موقفه فى الأعقاب الأولى للهزيمة فى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ حيث يفسر موقف المندفعين إلى التمسك بالزعيم بأكثر من تفسير، منها أن الأمر كان يتعلق بآخر رمز من الكبرياء الوطنى، ومنها أن الشعب خاف الحرية ، وتحمل المسئولية بعدما تعود على اللامبالاة، ولنقرأ هذا الحوار على سبيل المثال:

ـ «لا داعى للشرح فقد عانيناه بأنفسنا، ولكن هل أيدت جماهير ٩ و١٠ ؟».

ـ «نعم .. بكل قوة».

ـ «إذن ظل إيمانك لا يتزعزع؟».

ـ «بل لقد انهار من أساسه وآمنت بأنه كان قصرا من رمال».

ـ «اسمحى لى بأن أصارحك بأننى لا أفهم موقفك».

ـ «الأمر بسيط جدا، لقد أشفقت من حمل المسئولية فجأة، خفت الحرية بعد أن استنمت طويلا إلى اللامبالاة، وأنت أكنت مع الجماهير تلك اللحظة؟».

«ـ نعم.. كنت أتعلق بآخر رمز من الكبرياء الوطنى».

يجدر بنا هنا أن نشير إلى ما أوردناه فى الباب الأول من هذا الكتاب من أن نجيب محفوظ طور فكرة ما حدث فى ٩ و١٠ يونيو بأنه كان كالعلاقة بين المواطن والمحامى الذى وكله وترك له كل ورق القضية.. والبادى أن التفكيرين المحفوظيين متسقان.

ويلفت نجيب محفوظ نظرنا بطريقة روائية إلى أن أكثر الناس رفضا لهزيمة ١٩٦٧ ولتصديق وقوعها من الأساس كانوا هم البسطاء، ومع هذا فإن هؤلاء البسطاء سرعان ما انضووا مع اللامبالين، وإن لم يفقدوا الحزن الخفى العميق والدائم:

«... وكان أشدنا مناعة حيال الوباء إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية، فهما يرفضان الهزيمة ويصدقان الراديو ويحلمان بيوم النصر، ولكنهما بمرور الأيام مضى شعورهما بالكارثة يفتر، واهتمامهما بالحياة اليومية يتصاعد، ثم انحدروا فى طريق اللامبالاة إلا ما استقر فى أعماق النفس من حزن دائم خفى».

(٣)

وعلى مدى صفحات الرواية يطرح نجيب محفوظ من خلال أبطاله مخرجاً من هذه الحال التى أوصلتنا إليها الهزيمة، وهو لا يجد حلاً إيجابيا إلا بالانضمام إلى حركة الفدائيين الفلسطينيين وهو يجرى الحوار مع أحد أبطاله على هذا النحو:

- «إذاً فأنت تؤمن بالفدائيين؟».

- «وعلى اتصال بهم وأفكر جادا فى الانضمام إليهم، ولا ترجع أهميتهم إلى أعمالهم الخارقة، ولكن إلى مزاياهم الفريدة التى تمخضت عنها الأحداث. إنهم يقولون لنا إن الإنسان العربى ليس كما يعتقد الكثيرون، ولا كما يعتقد هو فى نفسه، ولكنه يستطيع أن يكون معجزة فى الشجاعة إذا شاء».

❑

ومن ناحية أخرى يجيد نجيب محفوظ تصوير انطباعات الجماهير فى الفترة التى سبقت وقوع هزيمة ٥ يونيو، وهو يعجب من السذج الذين تصوروا أن «القوة

الوطنية» لا تزال ممكنة مع الفساد الذى انتشر والقيم التى تداعت، ويصور الآراء المتعددة بطريقة المسح السينمائى السريع لفقرات بارزة من حوارات متصلة مع تعليقات لا تخلو من الاستبطان والاستبصار إذ يقول:

«تطايرت الشائعات وما ندرى إلا والجيش المصرى ينطلق بكل ثقله إلى سيناء، فاشتعلت المنطقة كلها بنذر الحرب، ولم يداخلنا شك فى قوتنا ولكن...».

- «أمريكا.. هى العدو الحقيقى».

- «إذا هجم الجيش انهالت علينا الإنذارات».

- «سيتحرك الأسطول السادس».

- «ستنطلق الصواريخ نحو الدلتا».

- «ألا يصبح استقلالنا نفسه فى خطر؟».

«الحق أننا لم نشك فى قوتنا.. تداعت كثير من القيم أمام أعيننا، وتلوثت أيدٍ لا حصر لها، لكننا لم نشك فى قوتنا. وإنه لتفكير لا يخلو من سذاجة، ولكن عذرنا أننا كنا مسحورين، ومُصرين على الأمل، وبدا أنه فوق طاقتنا أن نكفر بأول تجربة وطنية خالصة جاءت فى ختام سلسلة من عصور الذل والاستعباد، ولبثنا متلهفين حتى استيقظنا على أعنف مطرقة صكت رءوسنا الثملة بنشوات العظمة. ولن أنسى ما زفره طه الغريب، وهو أطعننا سنا، فقد تجلى الأسى فى عينيه وقال:

«ها أنا ذا على حافة القبر، وسيجىء الأجل بعد أسبوع أو شهر، فيارب لِمَ لم تعجل به قبل أن يدركنى هذا اليوم الأسود!».

(٤)

وعلى النمط نفسه يجيد نجيب محفوظ تصوير التيارات المائجة فى الشارع

السياسى بعد التأكد من وقوع الهزيمة والإحساس بوطأتها، وهو ينقل الآراء المختلفة مختصرة ومتتالية حتى وإن كانت متعارضة ولكنه يجيد تصويرها على النحو - غير المنطقى - الذى تصطرع به، ونحن نراه حريصاً على أن يظهر الشعب واعيا بدرجة عميقة لكل مفردات الصراع دوليا وعربيا وعسكريا وحضاريا وسياسيا وفكريا ، ولنتأمل هذه الحوارات المتداخلة :

- «الحرب.. لا سبيل إلا الحرب».

- «بل العمل الفدائى ونركز على الدفاع».

- «الحل السلمى ممكن أيضا».

- «الحل الوحيد الممكن هو ما تفرضه الدول الكبرى».

- «المفاوضة تعنى التسليم».

- «المفاوضة ضرورة، كل الأمم تتفاوض، حتى أمريكا والصين وروسيا وباكستان والهند».

- «الصلح معناه أن تسيطر إسرائيل على المنطقة وتزدردها لقمة سائغة».

- «كيف نخشى الصلح؟ هل ازدردنا الإنجليز أو الفرنسيون؟».

- «إذا أثبت المستقبل أن إسرائيل دولة طيبة عايشناها، وإن ثبت العكس أزلناها كما أزلنا الدولة الصليبية من قبل».

- «المستقبل لنا، انظر إلى عددنا وثرواتنا».

- «المسألة علم وحضارة».

- «إذاً فلنحارب، لا حل إلا الحرب».

- «روسيا لا تمدنا بالسلاح الضرورى».

- «لم يبق إلا حالة اللاسلم واللاحرب».

- «هذا يعنى الاستنزاف الدائم لنا».

- «معركتنا الحقيقية معركة حضارة، السلم أخطر علينا من الحرب».

- «فلنسرح الجيش ولنبن أنفسنا من جديد».

- «لنعلن الحياد ونطالب الدول بالاعتراف به».

- «والفدائيون؟ أنت تتجاهل القوة الفعالة فى الموقف».

- «لقد انهزمنا وعلينا أن ندفع الثمن ونترك الباقى للمستقبل».

- «عدو العرب الحقيقى هو العرب أنفسهم».

- «قل : الحكام».

- «قل: أنظمة الحكم».

- «كل شىء يتوقف على اتحاد العرب فى العمل».

- «لقد انتصر نصف العرب على الأقل فى ٥ يونيو!».

- «لنبدأ بالداخل، لا مفر».

- «عظيم، الدين.. الدين هو كل شىء».

- «بل الشيوعية».

- «بل الديمقراطية».

- «لترفع الوصاية عن العرب».

ـ «الحرية.. الحرية».

ـ «الاشتراكية».

ـ **«لنقل الاشتراكية الديمقراطية».**

ـ «لنبدأ بالحرب ثم نتفرغ للإصلاح».

ـ «بل نبدأ بالإصلاح ثم تتقرر الحلول فى المستقبل».

ـ «يجب أن يسير الاثنان معا» لا يمكن.

كأنما كان نجيب محفوظ يدير الحوار الفكرى المعبر عن الأمل فى الإصلاح والنصر من خلال السطور الثلاثة الأخيرة، وهو يشير بالسطر الأول إلى ما حدث بالفعل على يد الرئيس السادات وبالسطر الثانى إلى ما كان الآخرون يرون ضرورته، وبالسطر الثالث إلى رؤيته التى يحاول أن يوفق بها بين الاتجاهين..

ويبدو لى أن نجيب محفوظ قد استحضر فى ذهنه وهو يدير هذا الحوار ذلك الحوار الفكرى الذى دار قبل الثورة عندما دعا نجيب الهلالى إلى التطهير قبل التحرير، وهى الدعوة التى كانت بمثابة طوق نجاة للاتجاهات التى كانت تريد أن تبرر حكما غير ديمقراطى من أجل الإصلاح..

ومن الطريف أن نجيب محفوظ يستغل هذه الفكرة نفسها من أجل ما يمكن وصفه بأنه مطالبة بالإصلاح الديمقراطى، أو من أجل ما يمكن القول بأنه الإصلاح على وجه العموم سواء فى ذلك الإصلاح السياسى والاجتماعى والخلقى.

على أننا نستطيع أيضاً أن نلمح محاولة من نجيب محفوظ إلى التوفيق بين العدالة الاجتماعية والحرية السياسية، وهو ما عرف بعد ذلك بالتعبير الذى استخدمه نجيب محفوظ بالفعل: الاشتراكية الديمقراطية.

(٥)

ويصور نجيب محفوظ علاقة أبناء الثورة بالأيديولوجيات المختلفة،ومدى إيمانهم بمسئولية هذه الأيديولوجيات عن الوضع الذى وجدوا أنفسهم فيه، ونحن نرى أحد أبطاله لا يزال يؤمن بالاشتراكية، لكنه فى الوقت ذاته ينتقد بل ويكره الذين تولوا تطبيقها بصورة سيئة، وينفى هذا البطل أن تكون الاشتراكية أحد أسباب هزيمة ١٩٦٧ ويقول:

«... كثيرون يصبون غضبهم عليها باعتبارها سببا من أسباب الهزيمة، ولكن الحقيقة التى يجب أن تُعرف هى أنه لم تكن توجد فى حياتنا اشتراكية حقيقية، لذلك فإننى لم أتخل عنها، وإن تمنيت أن أقطع الأيدى التى تطبقها».

❑

ويجيد نجيب محفوظ من ناحية أخرى تصوير الوقع المفاجئ للهزيمة على أبناء الشعب من طوائفه المختلفة وطبقاته المتعددة، وهو يصور على لسان أحد أبطاله [إسماعيل الشيخ] كيف علم بالهزيمة بينما هو فى ظلام السجن، وقد تم الإفراج عنه بعد الهزيمة، فكأنما كانت الهزيمة بمثابة السبب الذى دفع الحكومة إلى الإفراج عنه، وكان قد سجن للمرة الثالثة بعدما ثبتت براءته فى مرتين سابقتين، أما فى المرة الثالثة فقد سجن لأنه لم ينجح فى اختبار المخابرات له كمرشد بعد أن قبل بأن يؤدى هذا الدور لهذه الأجهزة، ولكنه سقط فى أول اختبار.

يحدثنا نجيب محفوظ بما حدثه به هذا البطل فى المرحلة التى عاشها بعيداً عن المعتقل، أى بين اعتقال وآخر، وهذه هى الفترة ذاتها التى وقعت فيها الكارثة

وأعقبها ما أطلقت عليه أجهزة الثورة «سقوط دولة المخابرات»، لنقرأ هذا النص المكثف:

«... واستدعى ذات يوم فظن أنه ماض لمقابلة خالد صفوان [مدير المخابرات]، لكنه رأى وجها جديدا، فأبلغه بنبأ الإفراج عنه».

«وقبل أن أغادر المبنى علمت بكل شىء».

«ولاذ بالصمت مليا ثم استطرد:

- «بقصة الطوفان من أولها إلى آخرها».

- «تعنى الحرب؟».

- «أجل.. مايو.. يونيو.. حتى خبر القبض على خالد صفوان نفسه!».

- «يا لها من ساعة».

«تخيل حالى إن استطعت!».

- «أجل.. أستطيع ذلك».

«وكانت الدنيا قد عبرت ذروة النكسة وأفاقت من الذهول الأول فوجدت الميدان مكتظا بالأشباح والأحاديث والحكايات والشائعات والنكات.. وانعقد الإجماع على أننا كنا نعيش أكبر أكذوبة فى حياتنا».

- «وهل شاركت فى ذلك الإجماع؟».

- «بكل قوة العذاب الذى يفتت مفاصلى، تبخر إيمانى وفقدت كل شىء».

- «أظنك اليوم جاوزت ذلك الموقف؟».

- «درجات ولا شك، على الأقل فإننى حريص على تراث الثورة».

هكذا نجد نجيب محفوظ فى «الكرنك» يعالج ما لم يستطع معالجته فى «المرايا» من الحديث عن الموقف الحقيقى لأبناء الثورة من الشباب من الثورة وتجاوزاتها وتراثها.

(٦)

أما موقف رواية «الكرنك» نفسها من الثورة فيعْنى فى كثير من مفرداته بالحديث عن خطورة أخطائها الفكرية، وبخاصة تجاهلها للأدوار التى سبقتها وإهمالها لجدوى التراكم التاريخى ولطبائع الأشياء.

ونحن نرى نجيب محفوظ ينبه على سبيل المثال إلى خطورة جرم الثورة فى التشكيل الخاطئ لوعى أبنائها، وهو يصف حديث هؤلاء الأبناء وهم فى المقهى، ويسخر بطريقة مهذبة من أوهام الثورة فى التجاوز عن كل الجرائم من أجل قوة لم يثبت لها وجود، وهو يقول:

«... عند أكثريتهم يبدأ التاريخ بالثورة مخلفاً وراءه جاهلية مرذولة غامضة. إنهم أبناؤها الحقيقيون ولولاها لتشرد أكثرهم فى الأزقة والحوارى والضياع. قد تند عنهم أيضا أصوات معارضة توحى بيسارية متطرفة أو إخوانية حذرة هامسة، ولكنها لا تلبث أن تضيع فى الهدير الشامل، ولفت نظرى بصفة خاصة إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية، يتغنيان بعنتر وفتوحاته، يعانيان مرارة العيش [هكذا يلفت الروائى العظيم النظر إلى طبيعة المفارقة، وهى نتيجة طبيعية لمثل هذا الأسلوب فى الحكم] ، كأن الفقر هان عليهما من أجل النصر والكرامة والأمل، على أن تلك النشوة لم يزهد فيها أحد حتى الحاسدون والحاقدون. لم يخل أحد من

رواسب الذل والهزيمة والخذلان فألهبهم الظمأ نحو الكأس المترعة بتحديات العدو القديم، نـهلوا منها حـتى الثمـالة، وراحـوا يرقـصـون من وجـد الطـرب. وأى جـدوى تُرجى من النقـد عند السكارى؟ أتقـول الرشـوة.. الاخـتـلاس.. الفـسـاد.. القـمـع والإرهاب؟ طظ، أو فليكن، أو أنه شـر لابد منه، أو مـا أتفـه ذلك، خـذ رشـفـة من الكأس السحرية وارقص معنا».

على هذا النحو يتحـدث نجيب محـفوظ كاشفاً بذكاء شديد وسخرية أشد عوج المنطق الذى حاول به البعض الدفاع عن أخطاء الثورة.

❑

وبعد خمس وثلاثين صفحة وعلى لسان أحد أبطاله يكرر نجيب محـفوظ التعبير عن هذا المعنى فيقول:

«... وقد عشت دهرا وأنا أظن أن تاريخ مصر يبدأ بالثالث والعشرين من يوليو، ولم أتجه للبحث عما وراء ذلك إلا بعد النكسة».

هكذا يصل نجيب محفوظ إلى التصريح الواضح بما كان يرى من انخداع جيل كامل بمكانة الثورة فى تاريخ مصر.

وحين يأتى موضع الحديث عن الاعتقالات فإن نجيب محفوظ ينبهنا بكل ذكاء إلى أن أغلبية المعتقلين كانت تنتمى للثورة، وحين يرد هذا الرأى على لسان أحد رواد المقـهى فإن اثنين من جلسائه يعـقبـان على هذا النحو الذى يجيـد تلخـيص الأمور:

- «فقال رشاد مجدى:

- «ولكن توجد أقلية مخالفة لا يستهان بها».

- «فقال محمد بهجت:

«وضح الحق، لقد أرادوا اعتقال المتهمين فساقوا أصدقاءهم معهم حتى يتم التحقيق».

(٧)

ونأتى إلى الموضوع الذى اشتهرت به الرواية، وهو التعذيب وتجاوزات الاعتقالات، ونحن نرى نجيب محفوظ حريصا على أن يصور الاعتقال وقسوته من خلال الحديث الروائى عن آثاره على شخصيات مَنْ عانوه، لكنه مع هذا لا يبخل علينا بأن يورد بعض آراء مباشرة فى الاعتقال والتعذيب على ألسنة رواد مقهى الكرنك فى أكثر من مناسبة:

«وجرى الحديث بيننا تعليقا على الحدث:

- «الاعتقال فعل مخيف حقا».

- «وما يُقال عما يقع للمعتقلين أفظع».

- «شائعات يقشعر منها البدن».

- «لا تحقيق ولا دفاع».

- «لا يوجد قانون أصلا».

- «يقولون إننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات».

- «وإنه لابد من التضحية بالحرية والقانون ولو إلى حين».

- «ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عاما أو يزيد فآن لها أن تستقر على نظام ثابت»

ولا تفوت الروائى (الذى حظيت أعماله السابقة بالتحول إلى السينما) فرصة الحديث عن أثر تجربة السجن فى تغيير معتقدات بطلة الرواية فيقول:

« ... سألتُها عما عانتْ فى السجن فى المدة القصيرة التى قضتها فيه، لكنها أكدت لى أن معاناتها كانت قصيرة وتافهة.. وقد شاب إيماننا الثورى امتعاض راسخ، أصبحنا أكثر استعدادا للإصغاء للنقد، انطفأ الحماس، تضاءلت الشعلة، أجل إن الإيمان الأساسى لم يُقتلع، ولكننا قلنا إن الأسلوب يجب أن يتغير، وإن الفساد يجب أن يُستأصل، وإن الأعوان الساديين يجب أن يذهبوا، الثورة المجيدة أصبحت محاصرة».

«وذات مساء عادا (الضمير يعود على البطلة وحبيبها) إلى مناقشة الموضوع مع حلمى حمادة (صديقهما) فى مسكنه، وقال حلمى حمادة: إنى أعجب كيف أنكما مازلتما تؤمنان بالثورة!».

«فقال له إسماعيل:

«إن وجود الأمعاء بالجسم البشرى لا يقلل من جلال العقل».

«فقال حلمى ساخرا:

«إننا نلجأ عند العجز إلى التشبيه والاستعارة».

«ثم قال لهما:

«علينا أن نعمل».

❑

والشاهد أن نجيب محفوظ لا يبخل مع هذا على أنصار الثورة والمدافعين عن

إجراءاتها الاستثنائية بحديث أو مونولوج يتضمن جوهر رأيهم فى طبيعة هذه التجاوزات، ومع أن نجيب محفوظ يبدو وكأنه يتقمص دور المدافع فإنه يؤديه بسخرية عميقة من كل مفردات المنطق المدافع عن التعذيب.

ويبدو نجيب محفوظ فى هذا الموقف وكأنه يوظف تكنيك العرب القدماء فى الذم بما يشبه المدح.

يقول نجيب محفوظ فى الكرنك :

«... وإذا بفكرى يتقمص انطلاقة جديدة دافعها الأول الحزن العميق. قلت لنفسى حقا إن حياتنا تزخر بالآلام والسلبيات لكنها فى جملتها ليست إلا النفايات الضرورية التى يلفظها البناء الضخم فى شموخه، وأنها يجب ألا تعمينا عن العظمة فى تولدها وامتدادها. هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة فى القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين؟ هل تخيلنا آلام أهل القرى عندما كان محمد على يكوّن إمبراطورية مصرية؟ هل تصورنا عصر النبوة فى حياته اليومية والدعوة الجديدة تفرق بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجته. تمزق العلاقات الحميمة وتحل العذاب مكان التقاليد الراسخة؟ وبالمثل: ألا يستحق إنشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التى تملك أكبر قوة فى الشرق الأوسط، ألا تستحق أن نتحمل فى سبيلها تلك الآلام؟! وكنت أشعر طيلة الوقت بأنه يمكن أن أقنع نفسى بضرورة الموت وفائدته بمثل هذا المنطق».

❑

كذلك يشير نجيب محفوظ فى ذكاء إلى تضحية الثورة بالحقوق المدنية بعبارات حوارية سريعة لكنها محملة بكل المعانى الممكنة فى مثل هذا الموقف:

- لم نصل إلى مثل هذه الحال فى أى عهد من العهود.

- حسبنا ما كنا نستظل به من حماية القانون.

- وحتى أعنف أيام الاستبداد لم تخل من صوت حر.

- وأيام الجهاد والنفى والفداء المجيدة كيف يمكن أن تنسى؟.

(٨)

وبالقدر نفسه من عمق التأمل المبكر يجيد نجيب محفوظ تصوير التمزق الذى عاناه أبناء الثورة نتيجة تعرضهم لجرائم المخابرات فيقول:

«... كانت التجربة قاسية جدا، وبسببها كفر [الضمير يعود على أحد أبطال الرواية] بجهاز من أجهزة الدولة هو المخابرات، أما إيمانه بالدولة نفسها، بالثورة، فلم يتطرق إليه الشك أو الفساد وتصور أنها - المخابرات - تمارس أساليبها فى خفاء من المسئولين».

«فكرت عقب الإفراج على فى أن أرفع شكوى للمسئولين، ولكن حلمى حمادة منعنى بقوة».

«واضح أنه لم يكن يؤمن بالدولة نفسها؟».

«بلى».

«وفى أعقاب النكسة اتجه إسماعيل (بطل الرواية) لأول مرة لدراسة تاريخ مصر الحديث:

«لا أخفى عنك أنى أعجبت بقوة المعارضة وحريتها وبالدور الذى لعبه القضاء

المصرى، لم يكن العهد شرا خالصا وكانت به عناصر فكرية جديرة بالاستمرار والنمو والازدهار، وكان التنكر لها من أسباب نكستنا».

هكذا تعبر «الكرنك» بوضوح عما عبرت عنه أحاديث ومذكرات نجيب محفوظ بعد ذلك بتفصيل شديد، وهكذا كان عشق نجيب محفوظ لليبرالية والحرية واضحاً على الدوام.

❑

وبالإضافة إلى تصوير هذا الصراع الفكرى بجوانبه المختلفة يجيد نجيب محفوظ وصف جو القهر معبرا عن إحساسه بالمرارة الشديدة تجاهه، وهو ـ على سبيل المثال ـ يصف جو الخوف والرهبة من الحديث عن أسباب غياب المعتقلين فيقول:

«... أسدل ستار كثيف على فترة الغياب المجهولة فمضت كسرٍ مثير تحوم حوله الأسئلة وترتد خائبة. ورغم المرح والأحاديث انتشر الحذر فى الجو مثل رائحة غريبة مجهولة المصدر، وتحملت كل نكتة بأكثر من معنى، وكل إشارة بأكثر من مغزى، وكل نظرة التبست فيها البراءة بالتوجس».

❑

ويصل نجيب محفوظ فى أحد مواضع الرواية إلى بلورة وصف دقيق لهذا الجو الخانق للحرية، وهو يستخدم مهاراته الأدبية والبلاغية فى تصوير هذا الجو مطلقا اسم «**القوى المجهولة**» على الجواسيس والمرشدين ومسميا هذا العصر «**زمن القوى المجهولة**»، وهو يقول فى هذا المعنى:

«نحن فى زمن القوى المجهولة وجواسيس الهواء وأشباح النهار. وجعلت أتخيل

وأتذكر، تذكرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وجنون الأباطرة، تذكرت سير المجرمين، وملاحم العذاب، وبراكين القلوب السود، ومعارك الغابات. وقلت لنفسى مستعيذا من ذكرياتى: إن الدناصير استأثرت بالأرض ملايين السنين ثم هلكت فى ساعة من الزمان فى صراع الوجود والعدم فلم يبق منها اليوم إلا هيكل أو هيكلان. وعندما يلفنا الظلام أو تكسرنا القوة أو تطربنا نشوة تقليد الآلهة فإنه يستيقظ فى أعماقنا تراث وحشى ويبعث فينا العصور البائدة. وظلت معلوماتى ترتكز على الخيال حتى أتيح لى بعد ذلك بسنوات أن تُفتح لى القلوب المغلقة فى ظروف جد مختلفة وتمدنى بالحقائق المرعبة وتفسر لى ما غمض علىّ فهمه من الأحداث فى إبان وقوعها».

هكذا يلخص نجيب محفوظ فى براعة شديدة موقفه المعرفى من حوادث التعذيب وتجاوزات الثورة.

(٩)

وبتمكن الروائى من أدواته الفنية يجيد نجيب محفوظ تصوير الجو النفسى لاعتياد الجماهير على مآسى الاعتقال المفاجئ للشبان فيحدثنا بعبارات مكثفة عن موقف الناس من الاعتقال الثانى لبعض أبطال «الكرنك» ويقول:

«وللمرة الثانية اختفى الشبان».

«وقع المقدور مفاجأة وبلا سابق إنذار كما حدث فى المرة الأولى».

«ولم يقع أحد منا فى حيرة التساؤل وعذاب الشك ولكن اجتاحنا الانزعاج والذهول».

❑

وعلى الخط نفسه يكثف نجيب محفوظ وصفه لمشاعر رواد المقهى تجاه تجربة

الاعتقال الثالث لمجموعة الشبان وهو بعبارة مكثفة يصف حالة اعتياد القهر والتعود عليه والانسياق له بسهولة:

«وفى أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث!».

«لم يُثـرِ تلك المرة أى تساؤلات ولا عنفاً فى ردود الأفعال،تبادلنا النظرات، هززنا رءوسنا، نطقنا بكلمات لا معنى لها:

- «كالعادة».

- «نفس النتائج».

- «لا جدوى من التفكير».

❑

بل إن نجيب محفوظ وهو يسجل أحد حوارات المقهى يعبر عن حالة الشك المتبادل التى جعلت الناس لا يثقون فى بعضهم ويقول:

«فقالت: «توجد حولنا أسرار!».

«فتمتمت [الضمير يعود على صاحبة المقهى] : «ربما».

«بل هو مؤكد، جميع الناس يتكلمون ولكن مَنْ الذى يبلغ الكلام؟».

«فقلت بعد تردد:

«أنت أدرى بالمكان».

«لاشك لدىّ فى رجالى، عارف سليمان مدين لى بحياته، أما إمام الفوال فهو من رجال الله، وكذلك جمعة».

«فقلت:

«وشيوخ المعاش فى عزلة على شاطئ الحياة».

«وتبادلنا نظرة طويلة ولكنها قالت:

«زين العابدين وغد، ولكن لا صلة له بالسلطة، فضلا عن أنه يخشاها لانحرافه».

«فقلت:

«يعبر بالمقهى كثيرون ونحن لا نلقى إليهم بالا».

«فتنهدت وقالت بامتعاض شديد:

«لم يعد فى الدنيا أمان»

وفيما بعد صفحات أخرى يكثف نجيب محفوظ من رؤية رواد المقهى وعقيدتهم تجاه حالة الخوف التى تعتريهم من المخابرات والمرشدين، فيستنطق نفسه بقوله أو نصحه لهم:

«لنتصور أن المقهى أذنٌ كبيرةٌ».

بل إنه يوجه إليهم النصح بطريقة أكثر تفصيلا وتجسيدا فيقول:

«إذا دعت ضرورة إلى الخوض فى موضوع وطنى فلنتكلم متخيلين أن السيد خالد صفوان يجالسنا».

(١٠)

ومع هذا كله فإن نجيب محفوظ حريص أيضا على أن يفسح المجال للحديث عن أوهام القوة والنصر التى كان ذلك النظام الحاكم يزرعها فى أفئدة الناس، فإذا هم يظنون أننا انطلقنا وتضخمنا.

ويوحى لنا نجيب محفوظ أنه كاد هو الآخر أن يصدق هذا الزعم، لكنه يعجب من أن يحدث هذا بينما نحن مشغولون بالشك فى بعضنا لأن كل حديث كان ينقل إلى الحكومة:

«وعجبت لحال وطنى. إنه رغم انحرافه يتضخم ويتعظم ويتعملق. يملك القوة والنفوذ، يصنع الأشياء من الإبرة حتى الصاروخ، يبشر باتجاه إنسانى عظيم، ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار فى تفاهة بعوضة، ما باله يمضى بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء».

❑

ويصل نجيب محفوظ إلى بلورة وصف حالة اللامبالاة التى وصل إليها الشعب على نحو غير مسبوق فيقول:

«لم يجد الناس يفعلون شيئا إلا **انتظار الموت**».

كما أنه فى موضع آخر يصور مقهى الكرنك وقد أصبح خاليا من الشباب.. ويقول:

«لم يبق إلا الشيوخ وقد نسوا المعتقلين وتناسوا الرعب والسياسة فعكفوا على همومهم الشخصية، وكأنه لم يعد لهم من عمل إلا **انتظار الأجل**. وراحوا يبكون الأيام الماضية ويتبادلون وصفات غريبة بقصد خفى واحد هو تأجيل الموت».

(١١)

وتكاد رواية الكرنك أن تكون بمثابة النتيجة الطبيعية لما سربته دولة الثورة نفسها عن بعض أخطائها، وبصفة خاصة عن أخطاء ما أسمته الثورة وحكومتها وزعيمها وسكرتيره الصحفى «دولة المخابرات»، ونحن نرى نجيب محفوظ وهو

يكاد يقع فى الشرك القائل بأن دولة المخابرات كانت دولة داخل الدولة، وأن هذا الانحراف المخابراتى كان تلقائى الوجود.

ويحاول نجيب محفوظ أن يكثف من آرائه فيما يتعلق ببطل المخابرات خالد صفوان على نحو تشكيلى وفلسفى، فهو يصف ملامحه بدقة تصويرية، وإن كان يعود على لسان البطلة ليعلق على هذه الملامح بأنها لا تعنى شيئا، إذ لا غرابة فى منظره على حد تعبيرها، فهو يمكن أن يكون أستاذاً فى الجامعة أو رجلاً من رجال الدين، كما يلخص على لسان بطل المخابرات (خالد صفوان) نفسه تصوره لقصة حياته فى عبارات موجزة، فأما العبارات فيقول فيها:

- **«براءة فى القرية».**
- **«وطنية فى المدينة».**
- **«ثورة فى الظلام».**
- **«كرسى يشع قوة غير محدودة».**
- **«عين سحرية تعرى الحقائق».**
- **«عضو حى يموت».**
- **«جرثومة كامنة تدب فيها الحياة».**

ومع هذا الوضوح الرمزى الذى تحمله هذه العبارات فإن نجيب محفوظ يحرص على أن يصور للقراء أن الذين استمعوا من بطل المخابرات إلى تلخيصه لقصة حياته على هذا النحو، لم يكونوا بقادرين على أن يستوعبوا المعانى التى أشار إليها، وهو يعلق ملخصا موقفهم من هذا الذى سمعوه بقوله:

«... وخلّف وراءه ذهولا شاملا، قال قوم إنه يهذى، وقال آخرون إنه يهزأ بنا، وغير هؤلاء وأولئك قالوا إنه يحاول الدفاع عن نفسه، إنه يقول إنه بدأ من البراءة وأن قوى غشومة أفسدته، ولكن ما العين السحرية؟ ما العضو الحى الذى مات؟ ما الجرثومة الكامنة التى دبت فيها الحياة؟!».

(١٢)

على الرغم من أن نجيب محفوظ يفسح المجال لدفاع رجل المخابرات عن نفسه وعن تصرفاته، فإنه يتدارك الأمر وكأنه ينتقد حالة الانخداع التى يمكن أن يقع فيها الشعب حين يبدى كل مسئول سابق دفاعه عن نفسه بطريقة مقنعة، وهو يلخص مثل هذا الموقف فى وصف بديع لاستقبال الجماهير لمثل هذه الدفاعات عن النفس، لكنه فى الوقت ذاته يتدارك الأمر على لسان إحدى بطلات الرواية التى تنبه إلى خطورة زحزحة المسئولية من شخص إلى شخص.

وها هو نجيب محفوظ يقول فى الكرنك:

«ومن عجب أنه اكتسب شعبية عقب انصرافه، ونوه كثيرون بقيمة عرضه، وبثراء مخزونه من الأسرار، بل وجد مَنْ يدافع عنه فيقول إنه لم يكن مسئولا عن جرائمه، أو لم يكن يتحمل المسئولية الأولى، حتى قالت قرنفلة [وهى صاحبة المقهى] محتدة:

«زحزحوا المسئولية من شخص لشخص حتى تستقر فى النهاية فوق كاهل جمعة مساح الأحذية!».

❑

ثم يعقب نجيب محفوظ بما يريد أن يوحى به من أن روح الشعب تتسامح وتتقبل المخطئين فيقول:

«ولكن.. وجُد استعداد لقبوله إذ قرر حقا الانضمام إلى الكرنك!!».

❑

ومع هذا فإن نجيب محفوظ ينتبه إلى أن يستنطق بطل المخابرات بالاعتراف بالخطأ الذى وقع فيه، بل الذى وقعت الثورة فيه من خلاله، بل إنه يجعل هذا البطل يعترف بالأخطاء وسبيل تصحيحها، ونحن نرى الرواية تنتصر للقيم الإنسانية وللعلم حتى على لسان بطل المخابرات نفسه ...

وهو يورد اعترافه على هذا النحو:

«... سأعترف لكم فى الدقائق الباقية لى هنا بخلاصة تجربتى، لقد خرجتُ من الهزيمة أو قل من حياتى الماضية مؤمنا بمبادئ لن أحيد عنها ما حييت».

«ما هى هذه المبادئ؟.

- أولا: الكفر بالاستبداد والدكتاتورية.
- ثانيا: الكفر بالعنف الدموى.
- ثالثا: يجب أن يطّرد التقدم معتمدا على قيم الحرية والرأى العام واحترام الإنسان وهى كفيلة بتحقيقه.
- رابعا: العلم والمنهج العلمى هو ما يجب أن نتقبله من الحضارة الغربية دون مناقشة، أما ما عداه فلا نسلم به إلا من خلال مناقشة الواقع متحررين من أى قيد قديم أو حديث.

«ثم تثاءب وهو يقول:

«هذه هى فلسفة خالد صفوان التى تعلمها فى أعماق الجحيم، والتى أعلنها فى الكرنك حيث يجمعنا النفى والجريمة».

كأنما كان نجيب محفوظ بحس استشرافى قادر يصور ما حدث بالفعل حين تحول بعض رموز عصر الهزيمة إلى منظرين، وكتاب تاريخ، ومسئولين عن جمعيات لحقوق الإنسان.

(١٣)

ولا يشغل نجيب محفوظ قارئه بالحديث عن تفاصيل دلالات التعذيب البدنى التى كانت قد بدأت ملامحها وتفصيلاتها فى التبلور فى ثنايا الخطاب الأدبى والسياسى، لكنه يكتفى من هذا كله ببعض لقطات موحية تكفل لنا تصور ما كان يحدث لأبناء الثورة على يد الثورة نفسها.

من هذا التصوير نقدم تلك اللوحة التى يحكى فيها أحد أبطال الرواية قصة الاعتقال الأول الذى فوجئ به :

«... كانت ليلة، وكعادتى فى فصلى الربيع والصيف كنت أنام على أريكة فى الفناء تاركا حجرتنا الوحيدة لوالدى، وكنت مستغرقا فى النوم عندما شعرت بنهار ينهمر على روحى كحلم، واستيقظت على هزة شديدة، فتحت عينى فضاع بصرى فى ضوء باهر يتدفق فى عينى، جلست فزعا فإذا صوت يسأل:

- «أين مسكن الشيخ؟».

- «فقلت:

- «هنا، ماذا تريد؟ أنا ابنه إسماعيل».

- «فقال بارتياح:

- «عظيم».

- «وأطفأ الكشاف فساد الظلام، وبعد حين تبينت أشباحا:

- «قم معنا».

- «مَنْ أنتم؟».

- «لا تخف.. نحن من رجال الأمن».

- «ماذا تريدون؟».

- «ستجيب على بعض أسئلة ثم تعود قبل طلوع النهار».

- «دعونى أخبر والدى وأرتدى بدلتى».

«لا داعى لذلك ألبتة».

- «وقبضت يد على منكبى فاستسلمت، وسرت بينهم حافيا بجلباب النوم، ثم دفعوا بى داخل سيارة فجلست محاصرا باثنين، ومع أن الظلمة كانت كثيفة إلا أنهم عصبوا عينىّ وأوثقوا يدى، فسابت ركبتاى وتساءلت:

- «لماذا تعاملوننى هذه المعاملة وأنا برىء؟».

- «اصمت».

- «خذونى إلى مسئول، وسترون!».

- «إنك فى الطريق إليه».

- «ركبنى رعب مميت، مميت بكل معنى الكلمة، ورحت أتساءل عن التهمة المأخوذ بها، لست شيوعيا ولا من الإخوان ولا إقطاعيا، ولم يلفظ لسانى بكلمة تنال هيبة العهد الذى أعده عهدى مذ وعيت ما حولى».

«توقفت السيارة فى مكان ما، أخرجت منها،ثم سرت معصوب العينين بين اثنين يقبضان على ذراعى، حتى دفع بى إلى مكان، انفكت القبضتان عن ذراعى، سمعت وقع الأقدام وهى تبتعد، وصرير الباب وهو يغلق، كانت يداى قد تحررتا كما رفعت العصابة عن عينى، ولكننى لم أر شيئا كأنما قد فقدت البصر، تنحنحت فلم يجبنى أحد، توقعت أن تخف الظلمة باعتياد النظر فيها لكنها لم تخف، ولم يند من المكان صوت، ترى أى نوع من المكان هو؟! مددت ذراعى أتحسس المجال، تحركت بحذر شديد، سرت برودة الأرض فى قدمى، لم أعثر بشيء إلا الجدران، لا يوجد فى الحجرة شيء، لا كرسى ولا حصيرة ولا أى قائم، الظلام والفراغ والحيرة والرعب، والزمان فى الظلام والصمت يتوقف تماما، وبخاصة أننى لم أعرف متى ألقى القبض علىّ، ولا فكرة لى عن متى تنقشع الظلمة أو متى تبعث الحياة فى تلك الجثة الشاملة. لكن أحب أن أخبرك أن الإنسان يتحايل على المعاناة إذا تخطت حدودها، وأنه فى أعماق العذاب يتوثب لطرح همه باستهتار يستوى أن تعده قوة أو يأسا، فاستسلمت للمقادير، وقلت ليأت الشيطان إن كان مقدورا له أن يأتى، وليأت الموت أيضا، وكففت عن طرح الأسئلة التى لا جواب لها، ولكن طاب لى أن أذكر سلوك فيروس الانفلونزا الذى يواجه مضادات الحيوية بخلق جيل جديد ذى مناعة ضد المضادات».

❑

على هذا النحو من البحث فى سلوك الكائنات الحية غير الإنسانية يحاول نجيب محفوظ أن يبحث عن مصير الإنسان بعد أن أفقده التعذيب إنسانيته.. أرأيت إلى هذه المهارة المتناهية فى التعبير والتصوير؟

(١٤)

على أن نجيب محفوظ لم يغفل أن يصور باقتدار نوعا آخر من التعذيب أقسى بكثير من هذا التعذيب البدنى، وهو تحول الشاب (الشاب) من أبناء الثورة تحت وطأة القهر إلى مرشد على إخوانه وأحبائه، ونحن نرى نجيب محفوظ ينتقم بكل ما أوتى من مهارة من هؤلاء المرشدين، وكأنه يثأر لنفسه ولقومه منهم، وهو بذكاء شديد يصور قبولهم هذا العمل المشين فى صورة بشعة، وينتهى بمصيرهم إلى أسوأ ما يمكن أن يتصور.

والحاصل أن نجيب محفوظ يبلور رؤيته المبكرة لهذا العذاب واصفاً حال أحد هؤلاء فى قوله:

«هكذا رجع من معتقله مرشدا ذا مرتب ثابت، وضمير معذب، وحاول أن يسوغ عمله بانتمائه الثورى ولكن القلق لم يفارقه أبدا».

هكذا نرى البراعة فى التصوير حين يجتمع **المرتب الثابت مع الضمير المعذب!!:**

❑

بل هو يصور هذا الحال البائس على لسان الضحية حين يشعر بفقدان الخصوصية مع شريكة حبه:

- «لأول مرة أجتمع بزينب وأنا غريب، لى حياتى السرية الخاصة المجهولة لها والتى يجب أن تظل مجهولة».

– «أخفيت عنها الأمر؟».

ـ «نفذت الأوامر والإرشادات».

ـ «لتلك الدرجة آمنت بقوة تسلطهم؟».

«أجل، وهو إيمان حقيقى، يضاف إليه **الخوف** الذى استهلك روحى.. وشعورى **بالسقوط**، ولم أفلح فى إقناع نفسى بالشرف فكان علىّ أن أستهتر بكل شىء، ولم يكن ذلك باليسير علىّ نظرا لتركيبى الأخلاقى واستقامتى الروحية فوقعت فى **التخبط والعذاب**.. والأدهى من ذلك أننى وجدت زينب فى صورة جديدة تغشاها **كآبة** عميقة ولا أثر فيها للشعور بالنجاة فزدت إحساسا **بالغربة**».

هكذا يصل إحساس نجيب محفوظ بمعاناة هؤلاء: الخوف، السقوط، التخبط، العذاب، الغربة وبما يرونه من صورة أحبائهم : الكآبة، اللانجاة.

❑

وتنبئنا الرواية بالمفاجأة القاسية فلم يكن من سبب لهذه الصورة الغريبة التى وجد البطل محبوبته عليها إلا أنها قد تحولت هى الأخرى إلى مرشدة على نحو ما ستبوح به صفحات الرواية فيما بعد!!

بل إنها فى سبيل حفاظها على حبيبها أرشدت عنه دون أن تدرى أنها فى الوقت ذاته ترشد عن مرشدٍ أهمل فى الإرشاد، فقد نقلت للأجهزة حوارا شارك فيه مدافعاً عن الدولة، وكان الأولى به أن يكون هو المرشد ولكنه لم يرشد... فاعتقل عقابا له بينما نجت هى من **العقاب** لتقع فى عذاب **الحرمان** من الحبيب، وكانت تظن نفسها تفعل الصواب حين نقلت الحوار إلى الأجهزة مبرئة حبيبها من الفكر المناهض حتى لا تحرم منه.. فإذا بها توقعه فى خطيئة «علم ولم يبلغ»!!

وحين تكتشف البطلة هذه الحقيقة المرة تقول:

«وعندما رجعت إلى بيتى وخلوت إلى نفسى هالنى ما خسرته، خسارة حقا لا تعوض بأى ثمن، ولأول مرة فى حياتى وجدتنى أحتقر نفسى حتى الموت».

❑

وهنا يحاول نجيب محفوظ أن يبدو وكأنه يريد أن يظهر متوازنا فى أحكامه فهو يفسح المجال للاستطراد ولكن البطلة نفسها ترفض أى عذر لهذا التورط، ويبدو لنا أنها لم تستمرئ الخطيئة بعد فهى تلوم نفسها وترى الخطيئة لا تستأهل الدفاع:

«قلت معزيا:

«ولكن».

«فقاطعتنى:

«إياك أن تدافع عنى، إن **الدفاع عن الهوان من ضمن الهوان**».

«ثم بحدة:

«وجعلت أردد بإصرار: إنى **جاسوسة وعاهرة**».

❑

ثم نرى البطلة المسكينة تعمق هذا المعنى عندما اكتشفت سقوط الجميع حتى إمام الجرسون وجمعة مساح الأحذية:

«فقالت بأسف:

«كانا كذلك ولكنهما تدهورا مثلى تماما، ماذا حصل للناس؟ يخيل إلىّ أننا صرنا

أمة من المنحرفين، تكاليف الحياة والهزيمة والقلق تفتت القيم، إنهما يسمعان عن الانحراف فى كل مكان فماذا يمنعهما منه؟ أؤكد لك أنهما يحترفان القوادة الآن، وبلا حياء».

«فتنهدت متسائلا:

«هل نيأس يازينب؟».

«كلا، إنها فترة كالوباء ثم تتجدد بعدها الحياة».

هكذا يبعث نجيب محفوظ الأمل وهو يحاول أن يقول إن الفترة التى انقضت منذ ١٩٦٧ وحتى تحقق النصر فى ١٩٧٣ كانت كفترة بوباء !!

ولكن يبدو، من الرواية وأحداثها، أن الوباء كان أكبر مما صوره وتصوره.

4

يوم قتل الزعيم ونهاية عصر السادات

يوم قتل الزعيم ونهاية عصر السادات

حين نحاول قراءة قصة كتبها نجيب محفوظ فى الثمانينيات فلابد لنا أن نؤهل أنفسنا قبل القراءة بقدر كبير من التعمق القادر على استشفاف ما يريد أن يصوره كاتب مقتدر بعد خمسين عاما من الخبرة بالكتابة..

وحين نحاول ذلك فلابد لنا ، حتى وإن لم نشأ، من أن نلقى بفكرنا إلى عالم الظنون التى قد تصيب وقد تخيب..

بيد أنه لابد لنا من هذا التوجه، لأننا إذا بقينا عند المستوى الأول من الانطباعات نكون قد أهدرنا قيمة اللؤلؤة التى فى أيدينا بالنظر إلى ما عليها من طبقة الغبار كأنه منها.. أو ربما من ناحية أخرى نكون كأولئك الذين تخدعهم طبقة الجليد الرقيقة التى تغطى سطح مياه البحار حين تنخفض درجات الحرارة إلى معدلاتها الدنيا من دون أن تتجمد البحار.

بيد أن لهذه القضية وجها آخر يتصل بالطرف الآخر من ممارسة الفكر،

ويتجلى فى أن المبالغة فى تفسير رموز نجيب محفوظ يقودنا إلى طريق أكثر خطرا حين نجد أنفسنا وقد بعثنا فى الرموز الواضحة ما ليس فيها، اعتمادا على الغموض الذى اندفعنا إلى إيجاده لنخلق من خلاله المجال الأوسع لتحركنا فى نقد عمل أدبى لم يجد مؤلفه نفسه حرجا فى أن يجعل عنوانه مباشرا إلى أبعد حدود المباشرة، حتى وإن قادنا اقتناعنا [الجدلى] بالمباشرة إلى القول بأن العنوان لم يكن مقصودا به إلا الزمان.. على نحو ما نفعل حين نرمز للحدث بالتاريخ، أو حين نجعل ترتيب مذكراتنا أو يومياتنا مرتبطا بالترتيب الزمنى ١ يناير.. ٢ يناير.. وهكذا. فيوم قتل الزعيم ليس إلا كناية لفظية عن ٦ أكتوبر ١٩٨١..

ولكن هل يمكن لنا أن نفهم عنوان الرواية حتى ولو كتب بنصه: ٦ أكتوبر ١٩٨١ من دون أن نربط ذلك باغتيال الزعيم! أو بقتل الزعيم كما يقول العنوان!!

أغلب الظن أنه لو كان نجيب محفوظ قد نشر قصته تحت اسم ٦ أكتوبر ١٩٨١ لكان القراء ترجموا اسمها إلى «يوم قُتل الزعيم»!! هكذا صمم نجيب محفوظ على أن يمضى فى خط الرمز إلى نهايته.. فحقق بما فعل نهاية ما يمكن للرمز أن يحقق.

هذا هو السؤال الأول فيما يتعلق بالعنوان وحده.

❑

ونأتى إلى السؤال الثانى : لماذا عبر نجيب محفوظ عن فعل الاغتيال بفعل القتل؟ ولماذا بناه للمجهول؟ إذ يبدو لنا بوضوح أن هذا هو جوهر موقف نجيب محفوظ من حادث الاغتيال.. ونحن حين نقرأ القصة ونصل إلى اللحظة التى قرر فيها علوان فواز محتشمى أن يقتل رئيسه فى العمل أنور علام (ص ٨٤) فإننا نجد

نجيب محفوظ يدير الواقعة على أنها نوع من العبث أو من المصادفة غير المقصودة وغير الرامزة إلى شيء، بيد أنه كان لابد لها من أن تقع.

يتحدث القاتل فى رواية نجيب محفوظ حديثا هادئا ليس فيه من تعصب ولا تشنج ويقول:

«.... وجدتنى مساء اليوم أمام فيلا جولستان (أخت أنور علام ذات المال والجاه اللذين استمتع بهما أنور علام)، ودون دعوة ولا تدبير سابق اندفعت إلى الداخل (تأكد معى من العبارات التى ينفى بها علوان أو نجيب محفوظ سبق الإصرار والترصد)، وكان هو أول مَنْ رأيت (لاحظ أيضا أن هذه مصادفة.. فقد كان من المتوقع أن يقابل الخدم أو الحشم أو الحرس فى البداية)، فهتف مرحبا «أهلا» رب صدفة خير من ميعاد (هكذا ظن أنور علام من فرط غروره بالدنيا أو اطمئنانه إليها أن قدوم علوان التلقائى إليه لا يستهدف إلا تحيته).. وإذا بى أصيح مفقود الرشد: «ياقذر!» (هكذا ترى نجيب محفوظ يختزل الموقف من الجريمة المبيتة تماما والمجهزة تماما والمخططة تماما إلى «نوبة غضب كانت مصحوبة بفقدان الرشد») .. ولكمته فى صدره بقوة فترنح وهوى إلى الأرض (هذا هو كل ما فى الأمر.. لم يكن علوان حين لكم أنور يقصد أن يميته.. فإذا حدث بعد ذلك واتضح أنه أراد أن يميته فإن الواقعة تصبح وكأنها ليست إلا ضربا أفضى إلى الموت).

وهنا نبهتنى صرخة جولستان إلى وجودها.. قالت لى بحزم «كف عن همجيتك»، وساعدته على القيام وهو يلهث فمضت به إلى حجرة نومها، تسمرت فى موقفى غائب الوعى تقريبا، وغابت هى ربع ساعة ثم رجعت شاحبة اللون ذاهلة النظرة وغمغمت: ماذا فعلت يا مجنون؟ لقد قتلته! حملقت فى وجهها دون أن أنبس، اغرورقت عيناها وتمتمت:

ـ ماذا فعلت يا مجنون؟! لماذا قتلته؟.. إلى آخر الواقعة.

نجيب محفوظ إذاً لا يريد أن يقول إن ما وقع فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ اغتيال (بما ينطوى عليه من مؤامرة) إنما هو قتل.. الفعل فيه مبنى للمجهول حتى ولو أمكن التعرف على علوان قاتل أنور علام فى اليوم ذاته!! (أو على قاتل الرئيس أنور السادات ومعه اللواء علام كبير ياورانه فى ذلك اليوم).. وبدهى أن معنى بناء الفعل للمجهول أو تقييد الحادثة ضد مجهول ليس مقصودا به فى العمل الروائى ذلك المعنى القانونى أو اللغوى.. وإنما المقصود الروائى هنا هو المجاز اللفظى حين لا يكون الفاعل شيئا محددا أو شخصا محددا أو اتجاها محددا.. إنما هى الظروف أو العبث أو المصادفة غير المرتبة التى تقود إلى ضرب يفضى إلى الموت، بل لعله كما ترى زميلتى الدكتورة نادية زغلول يرمز إلى تفاهة شخص القاتل إذا قيس بمن قتل. وإلى تعاظم أهمية الحدث بغض النظر عمن أحدثه.

❑

نجيب محفوظ إذاً يختزل كل تحليلاتنا لمقتل أنور السادات بعدما قرأها جميعا، وتأمل فيها على مدى سنوات غير قليلة منذ وقع الحادث، فإذا هو من داخل هذا كله أو بما هو خارج عن هذا كله يصل إلى تفسير آخر يربط الأمور بعضها ببعض من بدايات أعمق.. بداية الجيل الثالث فى القرن العشرين الذى لا يجد الفرصة لتحقيق آماله المشروعة (على الأقل فى بدء حياته العائلية.. فعلوان ورندة مخطوبان لسنوات طويلة ثم يضطران لفسخ خطوبتهما تحت وطأة الأزمة المالية.. ومَنْ ذا الذى يأخذ خطوة الفسخ.. إنه الرجل الذى من المفروض أن يبقى أكثر صمودا، بيد أن المرأة هنا ومع انقلاب الأوضاع تصبح بعزيمتها المتواضعة أكثر قوة من الشاب اليائس.. وهو نفسه الشاب الذى وجه لكمته فى النهاية إلى رئيسه أنور.. وهو نفسه الذى كانت أمامه الفرصة لينجو من تهمة قتل هذا الرجل وليستمتع بالدنيا المقبلة

عليـه (جـولسـتـان هانم)، لكنه مع كل هذا يؤثر أن يمضى فى الخط الـذى عـرف محطاته من قبل.. وهى محطة الأمل المنشود.. ثم محطة الأمل الذى لا يتحقق.. ثم مـحطة الأمل المستحيل.. ثم مـحطة اليأس الذى لابد منه.. والإجرام الذى يقع بالمصادفة.. وأخيرا محطة الجزاء الذى يظن الشاب أنه يطهره أو يريحه أو يهرب به من هذه المحطات التى لم ير فيها خيرا أبدا.

على هذا النحو نستطيع أن نفهم قصة نجيب محفوظ، وأن نقارن بين أجياله الثلاثة فى هذه القصة وبين أجياله الثلاثة فى الثلاثية على سبيل المثال، وأن نخرج من هذه المقارنات بما ينير وعينا بما حرص نجيب محفوظ عليه دوما من التفرقة بين أثر ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢.

❑

فى يوم قتل الزعيم نجد الجيل الأول ويمثله محتشمى زايد وقد استراح باله لما حققه، وأصبح يستمتع بالدنيا الزائلة أو الغاربة رغم ماقد يعانيه فى أخرياتها.. ونحن نرى هذا الجيل وهو يدرك مظاهر الأزمة الاقتصادية لكنه لا يتأثر بها كثيرا.. بل قد يجد نفسه وقد ظنت أن اضطراب الأوضاع الاقتصادية بمثابة حكمة من حكم الخالق جل جلاله.. اقرأ هذا النص لمحتشمى وهو يحادث نفسه:

«مر العارف أبو العباس المرسى بالقاهرة بأناس يزدحمون على دكان خباز فى سنة الغلاء، فرق قلبه لهم، ثم وقع فى نفسه أنه لو كان معى دراهم لآثرت بها هؤلاء فأحس بثقل فى جيبه فأدخل فيه يده فوجد به جملة من الدراهم فأعطاها للخباز وأخذ بها خبزا فرقه، فلما انصرف وجد الخباز الدراهم زائفة فاستغاث عليه وأمسكه.. فعلم أن ما وقع فى نفسه من الرقة اعتراض على قضاء الله فاستغفر وتاب وسرعان ما تبين للخباز أن الدراهم صحيحة».

هذا هو الجيل الكبير الجيل الأول الذى ينتمى إليه نجيب محفوظ نفسه.. وكل المعاصرين لنجيب محفوظ أو الأكبر منه بسنوات قليلة.. وهذا هو جوهر الفهم السياسى الذى يعتقد نجيب محفوظ أن جيله قد ظل ينظر به إلى الأمور بعدما اختلطت عليهم مظاهر الصواب والخطأ.. ينحو نجيب محفوظ بهؤلاء إلى الحكمة ، وشأن كل حكيم فإنه يجد الطريق إلى حكمة الله سبحانه وتعالى.. وأنه سبحانه وتعالى أراد الدنيا هكذا.. ويجد نجيب محفوظ فى قصة العارف المرسى أبى العباس التى نقلناها عنه لتونا خير نموذج يبلور هذه الفكرة.

أما جيل الوسط فإن نجيب محفوظ أشد ما يكون حيرة فى شأنه، وهو أكثر من هذا يعبر عن هذه الحيرة بأقسى أنواع التعبير وأقصاها فى الوقت ذاته، وهو التجاهل.. فأنت تراه وكأنه لم يبذل كروائى أى جهد فى بنائه الفنى لشخصية فواز والد علوان وابن محتشمى زايد أو بنائه لشخصية زوجه، أو لشخصية كل من والدى رندة سليمان مبارك.. لا تكاد ترى أى جهد فى بناء هذه الشخصيات (الوسطى عمريا) ولا فى تنميتها ولا فى الحديث عما يفتعل فى نفوسها من مشاعر أو تفكير.. إنما أنت ترى هذا الروائى المخضرم المتمرس القادر على توظيف أدواته وهو يقتصر فى بناء هذه الشخصيات على كلمات تنسب إليها أو قرارات تصدر عنها وكأنه لا يعمد فى رسمها إلا لحدود دنيا لمجرد أن تكتمل عناصر الحكاية ليس إلا..

وحتى فى البناء المعمارى الخارجى للرواية كلها وهو البناء الذى سنتحدث عنه بعد قليل لا نجد فصلا على الإطلاق من بين الفصول التى تفوق العشرين يحمل فى عنوانه اسم فواز أو زوجه أو سليمان مبارك أو زوجه.. بل إن هذا المنهج قد أغرى صاحبه المتمكن من أدواته ومن عدم استعمالها بالقدر ذاته.. أغراه إلى أن

يمضى فيه إلى النهاية حتى إن أنور علام وشقيقته جولستان رغم دوريهما المحوريين فى القصة لا يخرجان عن هذه القاعدة من التجاهل المقصود لتفصيلات شخصيتهما .

❑

ونجيب محفوظ حين يفعل هذا لا يتعمد تجاهل هذا الجيل ولا تنحيته عن دوره فى التاريخ المعاصر، لكنه فيما يبدو يؤثر لصورته ـ عن عمد وعن وعى ـ أن تظل محاطة بالغموض والاضطراب.. ويبدو أن هذا مقصود من أجل خطوة تالية، وهى أن هذا الغموض والاضطراب كانا بمثابة السبب الذى قاد الجيل التالى (وهو الجيل الثالث) إلى الضياع على سبيل المثال.

ولعل هذا يقودنا إلى القفز المفاجئ للحديث عن موقف نجيب محفوظ من الرئيس أنور السادات فى هذه القصة.. وليس من شك فى أن نجيب محفوظ متعاطف مع أنور السادات إلى أبعد مدى فى الجزئية المهمة جدا وهى تحقيقه للنصر.. ونحن نرى نجيب محفوظ وهو لا يفتأ طوال هذه القصة يعبر على لسان أبطاله عن حيرته القصوى والعميقة من غرابة سلوك هذا الشعب الذى لا يقدر جهد السادات فى تحقيق هذا النصر العظيم والمؤزر.. بل إنه يحاول أن يبحث بنفسه عن تفسيرات شارحة الموقف النفسى، ولكنه فيما يبدو غير مقتنع بأى من هذه التفسيرات إلى النهاية.

فهو فى صفحة ٢٣ يقول على لسان علوان:

«فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول.. ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر!!».

وفى صفحة ٧٩ نجد علوان فواز محتشمى نفسه (وهو قاتل أنور علام بعد قليل) يستمع فى ضيق إلى قول القائل إن الرئيس الراحل - أى عبد الناصر- فى هزيمته أعظم من هذا - أى السادات - فى نصره.. ويروى لنفسه عن جده محتشمى زايد ما قاله:

«نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر، فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى فى أعماقنا.. فأحببنا الغناء الشجى والمسرحية المفجعة والبطل الشهيد، جميع زعمائنا شهداء: مصطفى كامل شهيد الجهاد والمرض، محمد فريد شهيد المنفى، سعد زغلول شهيد النفى أيضا، مصطفى النحاس شهيد الاضطهاد، جمال شهيد ٥ يونيو، **أما هذا المنتصر المعجبانى فقد شذ عن القاعدة، تحدانا بنصره، ألقى فى قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيأ لها، وطالبنا بتغيير النغمة التى ألفناها جيلا بعد جيل، فاستحق منا اللعنة والحقد» ، ثم غالى بالنصر لنفسه تاركا لنا بانفتاحه الفقر والفساد، هذه هى العقدة!!**

هذا إذاً هو نجيب محفوظ يتعاطف مع أنور السادات، كما لم يتعاطف أنور السادات نفسه مع أنور السادات!

وهذا هو نجيب محفوظ يورد هذه الجملة كلها على لسان علوان رغم أن قائلها هو محتشمى زايد وهو صاحب صوت عال على مدى فصول هذه الرواية، ونحن لا نستطيع أن نتجاهل أن الفرصة كانت (ولازالت) متاحة لإيراد كلام كثير كان من الممكن أن يتسع ليأخذ مثل هذه الجملة بين ثناياه.. ولكن نجيب محفوظ الفنان الكبير حريص بخبرته على أن يعطينا المعنى بأعمق ما يكون.. هذه إذاً هى الحكمة

وجدت طريقها إلى علوان.. وتسربت إليه وعلى لسانه.. ولكنه، رغم كل هذا، بعد قليل لن يتورع عن أن يناول أنور علام لكمة تفضى به إلى الموت!

❑

ومع هذا كله أو بالرغم من هذا كله فإن نجيب محفوظ لا يأخذ حادث مقتل الزعيم على أنه مصادفة فحسب.. لكنه يعكس لنا بعض إيمانه بحتمية قتل القاتل (ص ٨٢):

«إنها نهاية محتومة.. مَنْ قتل يُقتل ولو بعد حين».

وصحيح أنه يورد هذه العبارات ضمن العبارات الأخرى التى ترددت بتلقائية [مصرية] عقب مقتل الزعيم، مستوحية فى هذا ما شاع عن مشاركته فى قتل أحد وزراء ما قبل الثورة، إلا أنه يفرد لهذه العبارة المتقدمة ميدانا فسيحا من الاستقبال الحار بقوله: إنها نهاية محتومة!!

كأنما تغرينى رواية نجيب محفوظ بأن أقول إن نجيب محفوظ قد نجح فى أن يصنع لنا رموزا قليلة واضحة الرمز لكنها تحتمل كثيرا من المعانى التى يمكن إنطاقها بها حسب الأهواء المتنافرة للقراء والنقاد.. وحسب الزمان والمكان.. وهو كما رأينا بحكم خبرته الطويلة يهيئ لهذه الرموز مرونة شديدة بحيث تصبح فى صورتها أقرب ما تكون إلى صورة نعرفها ونشاهدها كثيرا وهى صورة دمية عرض الأزياء المتحركة المكونة من أجزاء عديدة يمكن إعادة ترتيب العلاقات بينها لتؤدى مرة دور المرأة المترهلة، ومرة أخرى دور السيدة الرشيقة، ومرة ثالثة دور الرجل الكلاسيكى، ومرة رابعة دور الشاب اليافع..

ورموز نجيب محفوظ فى هذه القصة تحتمل أكثر من دلالة، فهى تحتمل مثلاً

أن يرمز لجولستان بمصر نفسها.. بالدنيا.. أو بالحكومة التى تريد أن تسرع فى خططها الهادفة إلى التئام الجراح وتصحيح الأخطاء.. أو بالديمقراطية التى تفسح للقاتل مكانا فى منابرها بل وتساعده فى إخفاء جرمه.. هكذا.. وهكذا. وليس من شأن هذه الدراسة أن تتطرق إلى اتجاه معين فى فك الرمز، وإلا تحول النص على غير رغبة كاتبه إلى عرض أو تفسير.

❑

إلاّ أنه ينبغى لنا أن نلفت النظر بعد هذا كله إلى تمكن نجيب محفوظ من أن يبث عبر سطور هذه القصة كثيرا من آرائه السياسية الشخصية فى رشاقة شديدة.. وبودى لو استطعت أن أحصى للقارئ هذه الآراء رأيا رأيا، وأن أبين له مدى اقتناع نجيب محفوظ بها.. لكن حسبى أن أضرب له مثلا برأيه فى موقف ثورة ٢٣ يوليو ومؤرخيها من ثورة ١٩١٩ حين يصرون أن يكتبوا للطلبة فى كتبهم المقررة أنها فشلت.

ها هو نجيب محفوظ فى صفحة ٧٧ يجرى الحديث على لسان محتشمى زايد الذى شهد تلك الثورة فيقول:

«يتحدثون عن الثورة بلا معرفة.. لم يسمعوا عنها.. حكى لهم الراوى المأجور حكاية زائفة كاذبة. يبدأ المدرس المغلوب على أمره درسه بالسؤال الخائن «لماذا فشلت ثورة ١٩١٩ ؟»».

«يا أبناء الأبالسة.. ألا توجد قطرة حياء؟ يا زبانية المعتقلات وعباد نيرون».

وهذا، كما ذكرنا فى الباب الأول من هذا الكتاب، نموذج حىّ للتعبير المباشر الذى ما فتئ نجيب محفوظ يحقنه بخفة ومهارة فى وريد أعماله الروائية (كلها)

مقدما به الحقيقة الحية إلى مَنْ يستحقون الإحاطة والاستمتاع بآرائه السياسية، حتى ولو كان العمل نفسه داخلا [فى مجموعه] فى باب الرمز.

❑

بقى أن نشير إشارة سريعة إلى الشكل المبدع الذى تمكن من خلاله نجيب محفوظ أن ينجز هذه الرائعة..

إنه يتبادل فصولها بين ثلاثة أبطال: محتشمى زايد، وهو العقل والجيل الكبير.. هو الراوى والمتأمل.. هو التاريخ الذى يرتبط فيه الماضى بالحاضر.. ثم علوان ورندة، وفيما بين هؤلاء الأبطال الثلاثة يرد حديثه عن شخصيات أخرى بمن فيها كل جيل الوسط.

وهكذا تمضى الرواية بفصول متعاقبة ومتكررة التعاقب.. محتشمى.. علوان.. رندة.. وفى كل فصل نصادف حديثا يبدو فى مجمله كالمونولوج ولكن تقطعه حوارات حاضرة بين الشخوص، أو حوارات مروية عن شخوص، ثم مونولوج..

وهكذا تمضى الرواية تتكرر على هيئة ثلاثيات فى منتهى السلاسة..

وهكذا تمضى الفصول مرات متتالية إلى أن يأتى الفصل الثانى والعشرون: «محتشمى زايد» فإذا الفصل لا يزيد على سطور عشرة آخرها قول محتشمى:

«آن لى أن أنضم إلى فريق المسبحين المتطلعين إلى الأبدية.. فى رحاب ذى الجلالة».

وهكذا يختتم نجيب محفوظ القصة كما ينبغى للقصص الكلاسيكى أن يختتم.. وإن لم تنته القصة بعد.

5

معاناة نجيب محفوظ بسبب آرائه السياسية

معاناة نجيب محفوظ
بسبب آرائه السياسية

(١)

لم يكن عدم دخول نجيب محفوظ السجن لينفى ما جلبته عليه كتاباته فى السياسة من معاناة، فهناك من المعاناة (النفسية) أنماطٌ خاصة يصعب على كاتبٍ من طراز نجيب محفوظ أن يتقبلها، فضلاً عن تحملها. وعلى كل حالٍ فلم يكن تكرار ذلك النوع من المضايقات كفيلاً بإثناء كاتبنا عن المضى فيما وجد نفسه ملزماً بالتعبير عنه، ولعلنا نجد أصدق تعبير عن إحساسه بتلك القضية فيما قاله فى أحد حواراته:

«.... وهؤلاء لا يعرفون أننى كنت أكتب الرواية، ثم أضع يدى على قلبى خشية الاعتقال، ثم ماذا يريدون منى بعد كل تلك الانتقادات الصريحة التى وجهتها إلى السلطة وكشفت فيها عن أخطاء خطيرة؟ وهى أمور ما كنت لألتفت إليها لو كان فى نيتى نفاق الحكام».

والشاهد أن نجيب محفوظ ظل يحاول الإقلال - ما أمكن - من الحديث عن معاناته مع السلطة . ومرد ذلك - فى تقديرى - إلى رغبة منه فى التسامح أو إلى قدرٍ من التجاوز، ولكن هذا القدر لم يمنعه من إشارة إلى تلك المتاعب فيما سرد من ذكريات أو عرض من آراء.

(٢)

وعلى الرغم من كل ما يُفرض على روايات ومقالات كاتبنا من اختزال (لأسباب غير مجهولة) فقد كانت إشارته واضحة إلى أن معظم متاعبه كانت مع إدارة صحيفة الأهرام.. وهو يقول فى حواره للأستاذ رجاء النقاش:

«كل تلك المتاعب لا تذكر بجانب تلك التى حدثت بعد النكسة، ولم تكن خاصة بى وحدى، بل قاسى منها كل أدباء مصر، وكانت أغلب معاناتى مع إدارة «الأهرام»، رفض الأستاذ هيكل نشر رواية «المرايا» فنشرتها أنت في مجلة الإذاعة والتليفزيون، ورفض الأستاذ أحمد بهاء الدين عندما كان رئيسا لتحرير «الأهرام» نشر رواية «الحب تحت المطر» فنشرتها أنت في مجلة الشباب بعد أن حذفت منها الرقابة أشياء كثيرة».

«أما رواية «الكرنك» فقد كانت أكثر الروايات التى عانيت فى نشرها، حيث قدمتها إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل، وبعد أن قرأها ظن أنها هجوم مباشر على عهد عبد الناصر، فحمل أصل الرواية وذهب إلى مكتب توفيق الحكيم يشكونى إليه، وقد حكى لى الحكيم استنكار هيكل لما جاء فى الرواية وقال له: «يرضيك كده.. خد شوف نجيب باعت لى إيه؟!».

ومن المهم بعد هذا أن نورد رأى الأستاذ رجاء النقاش الذى سجله فى هامش الذكريات حيث يقول عن واقعة رواية «المرايا»:

«كنت فى ذلك الوقت رئيسا لتحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون، وحصلت من نجيب محفوظ على الرواية واستأذنت الأستاذ محمد فائق وزير الإعلام فى نشر الرواية فأذن لى، بعد أن أخبرته باعتذار «الأهرام» عن عدم نشرها، وقد تم نشر الرواية فى مجلة الإذاعة والتليفزيون ابتداء من أول مايو سنة ١٩٧١».

ويقول عن واقعة رواية «الحب تحت المطر»:

«كنت مسئولا عن تحرير مجلة الشباب التى كانت وزارة الشباب تصدرها عندما كان وزيرها هو الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد، وقد استأذنته فى نشر هذه الرواية بعد رفض الأهرام فقرأ الرواية وأذن لى بنشرها».

ونعود إلى حديث نجيب محفوظ:

«أما روايتى «ميرامار» فقد نشرت كاملة دون حذف كلمة واحدة منها فى جريدة «الأهرام»، ثم ظهرت بعد ذلك فى فيلم سينمائى، وشاهدها عدد من أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى عرض خاص، فاعترضوا على الفيلم، وقالوا إنه يتضمن هجوما صريحا على النظام، وطالبوا بمنع عرضه، وجن جنون منتج الفيلم جمال الليثى، وراح يشكو فى كل مكان، حتى وصل صوته إلى الرئيس عبد الناصر، وكلف عبد الناصر نائبه أنور السادات بمشاهدة الفيلم وكتابة تقرير عنه ليتخذ قرارا عادلا فى القضية، ولما سمعت أن عبد الناصر اختار السادات للفصل فى أزمة الفيلم، قلت فى نفسى: «عليه العوض.. الفيلم راح».

لابد أن نتوقف هنا لنشير إلى مدى ما تنبىء عنه هذه الجملة الأخيرة من الرواية من أن فهم نجيب محفوظ ومعلوماته عن قادة الثورة كانت محدودة إلى الدرجة التى لم يكن يعرف فيها السادات على حقيقته إلا بعد أن أنجز حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ونحن نراه هنا يعبر بصدق عن مدى الاستسهال الذى كان يوثره هو وغيره حين كانوا يرددون ما أشيع عن الرئيس السادات بسبب صراعات السلطة، ومن العجيب أن يكون موقف نجيب محفوظ على هذا النحو السطحى الذى لم يعن بإدراك شخصيات الرجال.

وفى اليوم التالى للعرض الخاص الذى شاهد فيه السادات الفيلم، فوجئت بخبر منشور فى جريدة «الأهرام» أصابنى بالاستغراب والدهشة، فالسادات لم يوافق فقط على عرض الفيلم، بل إنه أدلى بتصريح يمثل دعاية صريحة له. فقد أكد السادات أن الفيلم برىء تماما من تهمة العداء للنظام، ودعا الجمهور إلى مشاهدة الفيلم».

«ضربت كفا بكف ولم أفهم تفسيرا لهذا الموقف إلا بعد وفاة عبد الناصر، حيث اتضح لى أن السادات لم يفعل ذلك إلا من منطلق عدائه للاتحاد الاشتراكى ونكاية فيه، وتم عرض الفيلم وحقق نجاحا جماهيريا كبيرا بفضل دعاية السادات له، وحقق رقما قياسيا فى أسابيع العرض وقتذاك، فقد استمر عرضه ١٩ أسبوعا متصلة».

يبدو مرة أخرى أن نجيب محفوظ يستسهل النقل عما هو شائع فى الصالونات فى ذلك الوقت، وكنت أود لو أنه قرأ ما ورد عن هذه الواقفة بالتفصيل فى مذكرات الأستاذة اعتدال ممتاز التى عرضناها فى كتابنا «مذكرات المرأة المصرية»

(٣)

ونأتى إلى معاناة نجيب محفوظ فى عهد الرئيس السادات وقد كانت معاناة نفسية فى المقام الأول بسبب المواقف التى اتخذها منه مَنْ كانوا بمثابة الاصدقاء، وهو يعبر عن هذا المعنى فيقول:

«ربما كانت أصعب المتاعب التى واجهتها فى علاقتى مع السلطة هو ما حدث فى بدايات عصر السادات، وأقصد هنا تداعيات البيان الشهير الذى كتبه توفيق الحكيم، ووقّع عليه عدد كبير من الأدباء، وكنتُ من بينهم، يعترضون فيه على حالة «اللاحرب واللاسلم» التى كانت تعانى منها مصر، كان ذلك فى أوائل عام ١٩٧٣ وفى شهر فبراير من ذلك العام إن لم تخنى الذاكرة. وسرعان ما صدر قرار بعزل الموقعين على البيان ومنعهم من الكتابة، ونشرت الصحف أسماء هؤلاء الممنوعين، وتم منع الحكيم وأنا، على الرغم من عدم نشر اسمينا فى قائمة الممنوعين فى الصحف، فتوقف «الأهرام» عن نشر أعمالى، ومُنعت من الحديث فى الإذاعة والتليفزيون كما حدث مع غيرى من الذين وقعوا على البيان. ولكن بالنسبة لى كان هناك عقاب إضافى، وهو منع عرض أفلامى فى التليفزيون، سواء كانت هذه الأفلام مأخوذة عن رواياتى، أو كانت من الأفلام التى شاركت فى كتابة السيناريو لها، أما العقاب الأشد إيلاما فى نفسى فهو ذلك الهجوم الجارح الذى شنه علىّ كتّاب أعتبرهم من الأصدقاء وفى مقدمتهم حسن إمام عمر وصالح جودت»..

(٤)

وبالإضافة إلى هذه المتاعب البارزة التى حدثت بالفعل، فقد كانت هناك مجموعة أخرى من المتاعب النفسية والشعورية التى يعبر عنها نجيب محفوظ بوصف دقيق يقول فيه:

«فى مرات عديدة، كنت على حافة الهاوية».

ومن المهم أن نتأمل بعض هذه المتاعب:

قصة سائق القطار

تتمثل أولى هذه الأزمات فى نشر نجيب محفوظ لقصة بعنوان «سائق القطار» (فى إشارة خفية إلى) الرئيس عبد الناصر، ويروى نجيب محفوظ أن من أنقذه من هذا الموقف هو كاتب وأديب نبيل لم يكن له به سابق معرفة، وهو الأستاذ محمد فريد أبو حديد عضو مجمع اللغة العربية:

«أولى هذه المرات كانت بسبب قصة قصيرة نشرتها فى «الأهرام» بعنوان «سائق القطار»، وبعد النشر سرى همس فى أوساط المثقفين بأننى أقصد عبدالناصر، والقصة تدور حول سائق قطار يفقد صوابه، ويتسبب فى حادث تصادم مروع، وكان التفسير السائد هو أننى أشير إلى أن عبد الناصر يقود مصر إلى كارثة، ولك أن تتصور ما نتيجة هذا التفسير؟! ومن خلال مكالمات الأصدقاء التليفونية عرفت مدى خطورة القصة، وتأثيرها على الناس، وتوقع بعضهم اعتقالى.. حتى أن صديقى محمد عفيفى اتصل بى على غير عادته بدون مناسبة وفى ساعة متأخرة من الليل لكى يطمئن - فقط - على أننى مازلت موجودا فى منزلى ووسط أسرتى. كل هذا جعلنى أتوقع شرا محدقا، ولكن أنقذنى من تلك الورطة محمد فريد أبو

حديد رئيس تحرير مجلة «الثقافة» فى ذلك الوقت، إذ كتب مقالا فى افتتاحية المجلة - ولم يكن بيننا سابق معرفة - عن قصة «سائق القطار»، توصل فيه إلى أن كاتب القصة يرمز للصراع بين الشرق والغرب، وبالتحديد بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وهو الصراع الذى كان مستعرا فى ذلك الوقت (حوالى عام ١٩٦٥)، وكيف أن هذا الصراع قد يتسبب فى تدمير الكرة الأرضية، والكرة الأرضية ترمز إليها القصة بالقطار».

«حمدت الله لأن فريد أبو حديد توصل إلى هذا التفسير، وشعرت بالراحة، وبأن المقال أزاح عن صدرى هما ثقيلا، لدرجة أننى - وبشىء من الحماقة - اتصلت بفريد أبو حديد لكى أشكره، ولم ألتفت إلى أننى بهذا الاتصال التليفونى أؤكد التهمة، لكننى لا أنسى لفريد أبو حديد هذا الموقف النبيل، فهو كان على علم بحجم الورطة التى وقعت فيها بعد نشر القصة، فساعدنى على اجتياز الأزمة فى سلام».

❑

رواية ثرثرة فوق النيل:

يقدم نجيب محفوظ فى مواضع كثيرة من مذكراته تفاصيل الأزمة التى واجهها بسبب روايته «ثرثرة فوق النيل»:

«... بعد نشر «ثرثرة فوق النيل» ثار المشير عبد الحكيم عامر، وبلغنى أنه هددّ وتوعد بإنزال العقاب بى، بسبب النقد العنيف الذى ضمنته الرواية عن سلبيات قائمة فى المجتمع، وسمعه البعض وهو يقول: «نجيب زودها قوى ويجب تأديبه ووقفه عند حده»، وعندما تخرج كلمة «ويجب تأديبه» من المشير عامر فإنها تحمل معانى لا تخفى على الذين عاشوا فى ذلك العصر، كما أن لها معانى خاصة عندى، حيث ربطت صداقة حميمة بين المشير وابن أختى حازم النهرى، وتزاملا

فى الدراسة الابتدائية والثانوية، وكان المشير مقيما تقريبا فى بيت أختى ويناديها بـ«طنط».

❑

ويؤثر نجيب محفوظ أن يروى حقيقة ما حدث بعد نشر هذه الرواية من خلال الرواية التى استمع إليها (بعد سنوات) من ثروت عكاشة وزير الثقافة فى ذلك الوقت:

«وعندما جاء ثروت عكاشة لتهنئتى بجائزة نوبل حكى لى تفاصيل ما دار فى كواليس السلطة عن أزمة رواية «ثرثرة فوق النيل»، فقد كان عكاشة وقتئذ وزيرا للثقافة، وبينما هو يستعد لرحلة عمل إلى إيطاليا، استدعاه جمال عبد الناصر وسأله عما إذا كان قد قرأ الرواية، ولما لم يكن قد قرأها فقد طلب منه عبد الناصر قراءتها وإبداء رأيه فيها بعد عودته من إيطاليا، قرأ الدكتور ثروت عكاشة رواية «ثرثرة فوق النيل» فى أثناء رحلته، وفى أول لقاء له مع الرئيس عبد الناصر دافع عنها وفند اتهامات المهاجمين لها، وأكد للرئيس إننى أنبه إلى أخطاء موجودة وليس لدى سوء نية فى مهاجمة نظام الحكم، ثم قال له: إن من الضرورى أن يتوافر للأدب قدر من الحرية، لينقل صورة واقعية حقيقية عن المجتمع، وإذا لم يجد الأدب هذا القدر من الحرية مات واضمحل تأثيره. واستطاع الدكتور ثروت عكاشة إقناع عبد الناصر بأن حرية الأدب هى أفضل دعاية للنظام فى الخارج، وبالفعل اقتنع عبد الناصر وقال للدكتور ثروت عكاشة: «اعتبر المسألة منتهية».

....

ولا ينسى نجيب محفوظ بعد هذا أن يشير إلى ما يدل على تشبعه بالروح المصرية فى فهم مثل هذه الأمور:

«وهكذا تراجع المشير عبد الحكيم عامر عن تهديده بعقابى بعد تدخل عبد الناصر، ولكن مصدر دهشتى من تهديد المشير هو أنه لم يراع صداقته القوية بابن أختى، وكنت أظن أن هذه الصداقة ستشفع لى ولو قليلا».

❑

قصة الخوف:

يشير نجيب محفوظ إلى أنه نشر إحدى قصصه القصيرة فى الأهرام فسببت الرعب للمسئولين عنه، وأن الضباط كانوا يستوقفونه فى الطريق ليسألوه إن كان يقصد جمال عبد الناصر ببطل القصة «عثمان جلالى»، ويروى نجيب محفوظ أنه خرج من هذا المأزق بالإشارة إلى أنه كان يقصد الضابط أبو زيد الذى استعانت به حكومة الثورة لتأديب المجرمين فى الصعيد ثم نقلته إلى الحسينية لتأديب الفتوات:

«... من القصص التى كتبتها فى تلك الفترة قصة بعنوان «الخوف»، وتدور أحداثها حول مجتمع يحكمه الفتوات، فيصل إليهم «ضابط» يهزمهم ويتغلب عليهم، ويغير ملابسه الرسمية بأخرى مدنية، ويجلس مع الفتوات على المقهى، ويعيش معهم نفس حياتهم، ويخطف منهم فى النهاية الفتاة التى يتنازعون عليها.

«لم يجد القراء صعوبة حينما قرأوا القصة فى فهم ما كانت تهدف إليه من اعتراض واضح على أساليب الثورة الديكتاتورية، وأن الفتوات هم رمز للقوى السياسية والأحزاب التى تتصارع على السلطة قبل الثورة، وأن هذا الضابط الذى جاء وهزمهم وخطف الفتاة منهم هو جمال عبد الناصر (مما ساعد على تصور جمهور القراء على أن بطل القصة يرمز إلى الرئيس عبد الناصر أن بطل القصة اسمه عثمان جلالى، ففى هذا الاسم الحرفان الأول والثانى من اسم جمال

عبدالناصر نفسه، وهما ج. ع)، وكانت القصة فى مجملها نقدا صريحا للأسلوب غير الديمقراطى الذى اتبعه فى الحكم».

«ومن خلال الهمس الذى سمعته بعد نشر القصة على صفحات «الأهرام» شعرت أنها سببت رعبا للمسئولين فى الصحيفة، وسببت لى أنا الآخر رعبا على المستوى الشخصى. فعندما كنت أسير فى الشارع كان يعترض طريقى بعض الضباط ويسألوننى عن مغزى القصة، ومَنْ هى الشخصية الحقيقية التى أرمز إليها بشخصية الضابط؟! استطعت الهروب من هذا المأزق بحيلة طريفة، ففى تلك الفترة كانت قصة الضابط أبوزيد أشهر من نار على علم، حيث استعانت به الدولة - قبل الثورة - لتأديب المجرمين فى الصعيد وأثبت كفاءة عظيمة، وعندما وقعت خناقة الفتوات فى الحسينية ودخول الفتوة كامل عرابى السجن بعد الثورة، تم نقل أبوزيد إلى الحسينية لتأديب الفتوات، وأصبح أشهر ضابط بوليس فى منطقة الحسينية. لقد شاهدت أبوزيد مرة واحدة وهو يجلس على قهوة عرابى، وكان الرجل ضخم الجثة، وأصبح شكله العام مثل الفتوات تماما. وعندما كان يعترض طريقى أحد الضباط ليناقشنى فى قصة «الخوف» ويسألنى عن الشخصية الحقيقية وعما إذا كنت أقصد بها جمال عبد الناصر، كنت أبادره بالسؤال: هل أنت من الحسينية؟ وأشرح له أنه إذا كان ممن يعيشون فى الحسينية أو قريبا منها فإنه حتما سوف يعرف الشخص الذى أقصده، وهو الضابط أبوزيد الذى كان مشهورا هناك، وفى كل مرة أتعرض فيها لهذا الموقف كان يدور نفس هذا الحوار، وفى كل المرات كان صاحب السؤال يقتنع بوجهة نظرى وتفسيرى للقصة، أو يتظاهر بالاقتناع».

❑

على أن معظم متاعب نجيب محفوظ فى واقع الأمر جاءت من محاولات الايدولوجيين الدائبة مهاجمته من منطلق أنه هاجم الناصرية أو كشف عن بعض أخطائها .

❑

ومن العجيب أن بعض الذين لا يكفون عن إظهار الانتساب والبنوة لنجيب محفوظ ويفيدون من هذا الانتساب وهذه البنوة لا يمانعون فى أن يفسحوا المجال للهجوم عليه من هذه الزاوية، بل إن انخداع بعض هؤلاء بحسن نية وبحساب المصالح الوقتية جعل بعضهم ينحاز ضد نجيب محفوظ بطريقة سافرة فيما سجلوه من حوارات [مع بعض رموز عصر الشمولية] حافلة برؤى سخيفة مفتعلة.

وليس يخفى على القارىء لما سجلوه لهؤلاء من روايات مستفيضة أن نجيب محفوظ ـ دونا عن غيره ـ كان على حق فى هذه المواقف التى رووا رؤية الأخرين المصطنعة لها، ولكن جزاء نجيب محفوظ وثوابه عند ربه.

❑

بقى أن نشير إلى مجموعتين من المتاعب «التقليدية» التى تعرض لها نجيب محفوظ. المجموعة الأولى هى متاعبه فى نهاية السبعينيات حين أظهر تأييداً واضحاً لخطوات الرئيس السادات من أجل السلام بدءا بمبادرة السلام فالتفاوض فاتفاقيات كامب ديڤيد ثم معاهدة السلام، وقد لقى نجيب محفوظ وغيره من كبار كتابنا كثيراً من الأذى بسبب هذا الموقف، ومنع توزيع أعماله الأدبية

(والسينمائية) فى بعض البلاد العربية، ولكن نجيب محفوظ وكبار كتابنا الآخرين تحملوا هذه المتاعب بشموخ ورأوا فيها تضحية لا مانع منها من أجل مصلحة وطنهم وأبنائه، ونحن لا نجد نجيب محفوظ يشير إلى هذه المتاعب على أية صورة، على الرغم من أن كثيرين من التالين له من المشتغلين بالأدب بنوا أمجاداً وقصوراً من جراء مهاجمتهم للسادات وانضوائهم فى حملات بعض الأنظمة العربية على سياسته وعلى الموقف الذى اتخذته مصر منذ ذلك الحين وحافظت عليه فى عهد الرئيس حسنى مبارك.

ومن الجدير بالذكر أن نجيب محفوظ لم ينل، على الإطلاق، أية جائزة أو أى نوع من التقدير الذى انهمر فى الثمانينات فى الوقت الذى انهالت فيه جوائز كثيرة وتقديرات مادية ضخمة على من هم أقل منه قامة وموهبة وإنتاجاً.. ولكن أحداً فى مصر لا يعنى بمثل هذا النمط من الثواب والعقاب !! ، وربما كان هذا من حسن حظ الإبداع العربى.

❑

المجموعة الثانية من المتاعب فرضت نفسها على نجيب محفوظ بعد فوزه بجائزة نوبل، ولا تزال للأسف، تفرض نفسها بصورة أو بأخرى، فما كان أسهل أن ينجرف مَنْ لم يصلوا إلى ما وصل إليه نجيب محفوظ إلى القول بأن هذا الأديب العظيم لم يصل إلى هذا التكريم إلا بسبب رضا اليهود عن أدبه وإبداعه، ومع أن مثل هذا القول يسهل الرد عليه بمنتهى السهولة، إلا أنه يبقى بمثابة «دليل» أو

«قرينة» لا يمانع أصحاب الاتجاهات المتطرفة أن يبدوا عليه انتقادهم أو اتهامهم لمثل هذا الرجل، بل إنهم قد لجأوا إلى هذا بالفعل، وكانت النتيجة التى لا يتعظ منها أحد أن اندفع بعض مَنْ لا يعلمون إلى محاولة قتل هذا الرجل!

ويبدو أن بعض الذين يتشدقون بحرية الإبداع لم يكفهم هذا الذى حدث، ولم يتعظوا بما قد يجلبه توظيفهم الخاطئ لأيدولوجيات عفا عليها الزمن..

نسأل الله العافية.

في ظلال السياسة

نجيب محفوظ

الروائى بين المثالية والواقع

يتناول هذا الكتاب الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته . وهو فكر متقدم تناول قضايانا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والايدولوجيات واستشراف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته يفيد من أخط
التجارب ويستثمر الإيجابيات التى تحقق
بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.



